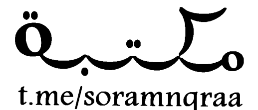

محمد يحيى
مصانع التاريخ
حكاية العالم كما رسمته
الأفكار الاقتصادية
الرواق للنشر والتوزيع
مكتبة
t.me/soramnqraa

مصانع التاريخ

مصانع التاريخ

محمد يحيى

الطبعة الأولى: يناير 2024



t.me/soramnqraa



للنشر والتوزيع

186 عمارات امتداد رمسيس 2

مدينة نصر - القاهرة - مصر

هاتف: 20220812006+

rewaq2011@gmail.com

www.alrewaqpublishing.com

تصميم الغلاف: أحمد فرج

الإخراج الفني: محمد عبد القوي مصيلحي

المراجعة اللغوية: سارة سرحان

الترقيم الدولي: 8 - 234 - 824 - 977 - 978

رقم الإيداع: 2903 / 2024

محمد يحيى

مصانع التاريخ

حكاية العالم كما رسمته الأفكار الاقتصادية

الرواق للنشر والتوزيع

الفهرس

الإهداء	٧
تقديم	٩
الفصل الأول: البداية	١٣
الفصل الثاني: غروبٌ وشروق	٢٩
الفصل الثالث: عوالم جديدة	٣٥
الفصل الرابع: الجميلة والوحش	٥١
الفصل الخامس: العجوز المجرمة	٦٧
الفصل السادس: أستاذ الأخلاق	٨٥
الفصل السابع: معاناة تشارلز ديكينز	١٠٧
الفصل الثامن: البقاء للأصلح	١٢٩
الفصل التاسع: المانيفستو الشيوعي	١٥٣
الفصل العاشر: دراميةُ القرن العشرين	١٧٣
الفصل الحادي عشر: كوب شاي وبعض الإجابات	١٩١
المراجع	٢٠٩

الإهداء

إلى الأستاذ الذي درَّسَ لي هذا التاريخ منذ عشر سنوات...

تقديم قصير

التاريخُ بناءٌ ضخمٌ له أبواب، لكل بابٍ من أبوابه رواقٌ خاصٌّ يعرض جانبًا ينماز عن غيره، وبين تلك الأبواب بابٌ قد ملَّ حارسُه لقلة الطارقين، هذا الباب مكتوبٌ على بداية رواقه: تاريخ الفكر الاقتصادي.

يخافُ كثيرٌ من الكُتاب والمؤرخين طرق هذا الباب لعلمهم أنَّ وراءه نظرياتٍ وتحليلاتٍ وأرقامًا وإحصاءات... وهذه الصورة الخيالية المخيفة هي التي نهدف إلى مسحها من العقول بهذا الكتاب إن شاء الله، ونقدم تاريخ الفكر الاقتصادي كحكايةٍ مثيرةٍ مليئة بالأحداث.

فالتاريخ بتقلباته، لا يعدو كونه نتاجًا صافيًا للأفكار الاقتصادية الكبرى، فهي التي شكَّلَتْه وهي التي تفاعلت معه وهي التي وضعت لبعضِ أحداثه نهاياتها الدرامية. **وفي القرن التاسع عشر عندما اختمرت الثورة الصناعية وعاشَ العُمَّالُ الأوروبيون حيواتٍ كئيبةً، كان الاقتصاد نفسُه عِلمًا للكآبة!**

وقد حاولت في هذا العمل، تقديمَ هذا التاريخ بشكلٍ متوازن يجعله إضافة إلى المكتبة التاريخية العربية بالقدر نفسه الذي يجعله إضافةً للمكتبة الاقتصادية العربية، فوضعت النظريات في قالبٍ من الأحداث والأزمات

التي عاصرتها وتغيرات التاريخ والحروب وسير الأعلام... على هذا الأساس يكون الكتاب سردًا ماتعًا ومضيفًا للقارئ غير المتخصص -وهو الهدف- ومُرضيًا للقارئ المتخصص.

وبهذا النهج أتسق مع مشروعي الخاص بتبسيط التاريخ الصعب الذي تتجنبه الأقلام الشابة، وأكون قد رددت الدَّين الذي يلتف حول عنقي منذ عشر سنوات. فعندما تخصصتُ في هذا العلم، درستُ هذا التاريخ على أستاذٍ جعلنا نرى أناقة آدم سميث وهو يحاضر في إدنبره، ونسمع خطب ريكاردو في البرلمان البريطاني، ونندهش من عنفوان ماركس الشاب الثوري المتحمس، ولم يُلزمنا بكتابٍ من تأليفه كما هي العادة في جامعاتنا، بل أحالنا إلى كتاب السياسي الأمريكي جون كينيث جالبريث (الماضي صورة الحاضر)، وهو كتابٌ عظيمٌ في هذا الباب. فما زلت إلى اليوم أحتفظ بكشكول محاضرات هذا الأستاذ، بل قد استعنت بما كتبته فيه منذ عشر سنوات وأنا أكتب هذا العمل الذي بين يديك. أما كتاب كينيث فقد صدَّرتُ به قائمة مراجعي.

أمَّا عنوان الكتاب، فقبل أن تُتمَّ ثُلثَ الكتابِ الثاني ستدرك كم هو مناسبٍ لسطورٍ تحكي تاريخ الأفكار الاقتصادية وآثارها على العالم.

يبقى عليك أن تلاحظَ نقطتين مهمتين: الأولى هي أنَّ الكتاب يُعنى بالأفكار الاقتصادية الكبرى التي غيرت شكل العالم، وهذا الوصفُ يجري على الأفكار التي أسست مذهبًا اقتصاديًّا، أو حلَّتْ معضلة اقتصادية كبرى، أو تحولت إلى نظامٍ معروف من أنظمةِ الدول وتبنَّتها الحكومات. وأمَّا الثانية فهي أنَّ الاقتصاد من الثورة الصناعية وحتى مطلع القرن العشرين تقريبًا، كانَ يُطلقُ عليه "الاقتصاد السياسي"

لذلك ستجد كل المؤلفات المشهورة التي ناقشت جوانب من هذا العلم في تلك الفترة تُعنون بالاقتصاد السياسي.

الفصلان الأول والثاني من الكتاب هما استدراج بسيط، فيهما مقتطفات من الممارسات الاقتصادية في التاريخ القديم، والفصلان الثالث والرابع فيهما مدرسة الميركنتيلزم، ومدرسة الفيزيوقراطيين، على الترتيب. وفيهما كثيرٌ من الأحداث التاريخية المهمة التي أحاطت بهاتين المدرستين.

بدايةً من الفصل الخامس، يأخذ الكتاب منحىً مهمًّا، وأكثر دسامةً من الفصول الأولى، فمنه وإلى الفصل العاشر تزداد الأحداث التاريخية أهمية، ومعها تزداد الأفكار الاقتصادية وتتبلور، فتظهر الرأسمالية ثم الشيوعية ثم الكينزية... أما الفصل الأخير فقد جعلته جلسةً طيبةً بيني وبينك، نشرب فيها كوبًا من الشاي المغلي، وأجيبك عن بعض التساؤلات المهمة حول التاريخ الفكري الذي سردناه، وأثره على تاريخ بعض الدول، وكيف وصل العالم إلى شكله الذي تراه اليوم.

محمد يحيى

١٢/ ٢٠٢٣

الفصل الأول
البداية

يقولون إن الإنسان سُمِّيَ بهذا الاسم لأنَّه يأنسُ بغيره، فهو يميل للاجتماع لا للوحدة، وللاختلاطِ والتعامُل لا للنبذِ والتخامل. هذه الفطرةُ هي مدخلُ البشرِ إلى خوضِ مراحل متتالية يمكن أن نعتبرها أنماطًا من الممارسات والأفكار الاقتصادية، بدأت بالبديهيات والضرورات ثم أخذت ترتقي حتى صارت عِلمًا له أصولٌ وقواعد.

مارسَ الإنسانُ منذ الأزل أشكالًا إذا رصدناها نرى فيها بوادر هذه الأفكار؛ ففي عصورٍ سحيقة كان الرجلُ يخرجُ من كهفه يصيد الحيوانات ثم يعود بها إلى أسرته، ثم تطورت هذه الحياة البدائية وعرف البشرُ سبيلًا آخر للغذاء وهو الزراعة، ثم تشعبت الحيوات وتعددت الحاجات أكثر بين ضروبٍ من المسكن والمأكل والمشرب والملبس والملذات...

وفي عصرٍ فاصلٍ، صار المجتمع سورًا يحوي مساحةً محدودةً من الأرض، وإن شئت قُل: من الموارد. الأمرُ الذي دفَعَ أهلَه إلى اقتسام المُتاح، فتحولت الأرض التي لم يكن لها مالكٌ في العصور السابقة إلى ملكيةٍ لها مالك، وهكذا سائر الموارد.

هذا المجتمع متعدد الحاجات يُخصِّص أفرادَه بالضرورة وبشكل تلقائي، حيثُ يقوم الفرد بإنتاج ما يتقنه ويعتمد في باقي حاجاته على إنتاج غيره، وهنا يظهر السؤال: كيف يحصل الفرد على حاجاته التي لا يتقنها؟

يشتريها؟

ليس الأمرُ بهذه البساطة يا صديقي، فنحن الآن في زمنٍ بعيدٍ في الماضي، فلا نقودَ ولا أسواق.

على هذا الشخصِ صاحب الحاجة أن يجد من يتقن حاجته، ثم يذهبَ إليه ويعرض عليه مقابلًا مناسبًا من شيءٍ يملكه مقابل حاجته. فلو كان صاحبنا هذا مربِّيًا للأبقار، ثم أراد أن يحصل على ٥٠ كيلوجرامًا من القمح، فعليه أن يبحث عن رجلٍ يزرع القمح، ثم يأتيه فيعرض عليه بقرةً مقابل القمح! ولو أراد أن يحصلَ على قدرٍ ما من الخضراوات سيكرر نفس الفعل مع رجلٍ يزرع الخضراوات...

إذا اتفق صاحب البقرة مع صاحب القمح، أتمَّا الصفقة، وبهذا يكونان قد باعا واشتريا في الوقت نفسه، فكل واحدٍ منهما في هذه العملية بائع ومشترٍ، فهذه الطريقة في التعامل لا تفصل بين البيع والشراء، بل تجبر من يشتري على البيع حتى يشتري، وتجبر من يبيع أن يشتري حتى يبيع! وهذا النمط من المعاملات هو أول ممارسة اقتصادية حقيقية مارسها البشر في القديم بلا تنظيرٍ أو قواعد، فقط عملية "مقايضة" بسيطة في ظاهرها، فتحت السبيل لتلبية الحاجات المتعددة للإنسان.

لعلَّك تعجبُ الآن من وصفي لعملية المقايضة تلك بأنها بسيطة في ظاهرها، كأنك تراها بسيطة في حقيقتها!

صدقني يا صديقي المقايضة كانت عملية صعبة وأحيانًا معقدة، وأثارت عددًا من المشاكل التي احتاجت إلى حلولٍ عاجلة. تعالَ معي نذهب مع هذا الرجل صاحب الأبقار وهو يبحث عن القمح الذي يريد.

خرجنا معه نبحث عن القمح ومعنا بقرةٌ من أبقاره، فلمَّا وجدنا رجلًا يملك ما يريده صاحبنا من القمح أخبرنا يأن مئة كيلوجرام من القمح تُستبدل ببقرة، ونحن نعلم أن صاحبنا يريد خمسين كيلوجرامًا فقط، فعليه إذن أن يعرضَ على الرجل نصف بقرته فقط. فهل سيقبلُ صاحبُ القمح بأن يأخذ نصف بقرة فلا ينتفع إلا بلحمها، بدلًا من أن يأخذ بقرةً كاملة يشربُ لبنها ويستخرج منه مشتقاتٍ مفيدة، ثم في النهاية يذبحها وينتفع بلحمها؟ هذه واحدة.

وإذا كان مئة كيلوجرام من القمح تُستبدلُ بجوالٍ من الفلفل، فهل هذا يعني أن ذات الجوال يُستبدَل ببقرة؟

إذا قلتَ نعم، فإنك قد افترضتَ أن هؤلاء الناس قد اتفقوا فيما بينهم على أن يقيِّموا كافة السلع بالقمح، وهذا لم يحدث في تلك المجتمعات، إذ كانت كل صفقة وكل عملية مقايضة لها قيمُها الخاصة، وهي منفصلة تمام الانفصال عن غيرها، وهنا تظهر مشكلة جديدة تتمثل في افتقار هذا النظام لمعيار ثابت للقيم. وهذه الثانية.

ثم تعالَ نفترض أننا عندما ذهبنا مع صاحبنا نبحث عن رجلٍ لديه من القمح كميةٌ يستغني عنها فلم نجد، فكيف سيكون الحال؟ هذه المجتمعات الأولى لم تنتج بغرض البيع، فقد ذكرتُ لك سابقًا أنهم لا يعرفون مفهوم السوق أصلًا، إنما ينتجون ما يستهلكون ويستبدلون الفائض إن وجِد. ثم هب أننا وجدناه ووجدنا عنده ما يريد صاحبنا

من القمح لكنَّه أخبرنا بزهده في البقرة وعدم حاجته إليها لا كلها ولا نصفها، فكيف نفعل حيال هذا؟ فالمقايضة تحتاج التقاء رغبتي الطرفين في الوقت ذاته. وهذه الثالثة.

أضف إلى تلك الثلاث، أن المقايضة كما تستلزم مقابلة طرفي العملية، فهي تستلزم أن يفهما طبيعة السلع عين التبادل حتى لا يقع أحدهما في الغش أو الغبن.

والآن هل ترى المقايضةَ بسيطة هينة؟

بمرور الزمن تطورت المجتمعات وتعقدت، وزادت الحاجات وتعددت، وصار الفرد حريصًا على امتلاك أدواته الخاصة التي ينتج بها لغيره، وبهذا انفصل الإنتاج عن الاستهلاك، ووجِّه الأول إلى الاستبدال، فصاحبنا الذي يربي الأبقار، صارَ يحلبُ البقرَ بهدف استبدال هذا اللبن ومشتقاته، لا بغرض استهلاكه الشخصي. وعندما قصد الناس الإنتاج بغرض الاستبدال فإنهم صاروا يتخذون لأنفسهم أماكن يعرضون فيها منتجاتهم التي يريدون استبدالها، فيأخذ صاحبنا مجلسًا معروفًا ويعرض فيه بضاعته التي استخرجها من أبقاره، وهدفه هو مقايضتها بمنتجات أخرى. وهكذا نشأت الأسواق في صورتها الأولى.

لَمَّا نشأت الأسواق بدأ الناسُ يشعرون بما يشوب نظام المقايضة من عَوَار، وشعروا بأنها تقف في وجه ديناميكة هذه الأسواق، وتعسِّر قضاء الحاجات؛ بسبب النقاط التي ذكرناها. وعند هذه النقطة من الزمن ابتدع الإنسان فكرةً عبقريةً يحلُّ بها عُقدَ المقايضة، حيث بدأ الناسُ يستخدمون سلعًا معينة كوسيط لعملية التبادل، فبدلًا من استبدال البقرة بالقمح في عملية تُحاطُ بالكثير من الصعوبات التي تهدد إتمامها، قام صاحب

البقرة ببيع بقرته لشخصٍ مقابل مقدار معين من الأصداف، ثم ذهب في الوقت الذي يريده بحملٍ خفيفٍ من الأصداف إلى صاحب القمح، فابتاع منه القمح الذي يريد، وأعطاه قدرًا يرضيه من الأصداف.

بهذه الطريقة انفصلت عملية البيع عن عملية الشراء، فصاحب القمح باع ولم يشترِ شيئًا، بل سيحتفظ بهذه الأصداف، ثم يبتاع بها ما يريد وقتما يريد. وهذا قدرٌ عظيمٌ من المرونة اكتسبته الأسواق والتجارة باستخدام الناس لوسيطٍ لعملية التبادل.

لكن هذا الوسيط وجبَ عليه أن يستوفيَ شروطًا معينةً حتى يصبحَ أهلًا لمهمته، وهذه الشروط هي:

أولًا: يجب أن يلقى قبولًا عامًّا من المجتمع، فالكل يقبل أن يتعامل به ويثق به ويعرف تمام المعرفة أنَّه لن يذهب به إلى حاجةٍ يشتريها إلَّا ويقبله البائع بلا أي ريبة، وهذا الشرط قد دعمته الدول بعد ذلك بالقانون ذاته، لكن لا بد من الاعتراف بأنه حتى بالقانون لن ينجح هذا الوسيط إلَّا بالقبول الحر من الناس.

ثانيًا: يجب أن يكون لهذا الوسيط وحدات متجانسة يعوض بعضها بعضًا بلا أي نقص. ففي حالة استخدام صاحب الأبقار للأصداف، فأي مجموعة من الصدف تغني عن غيرها، وأي صدفة تغني عن أي صدفة أخرى في حجمها، وهكذا. كل وحدات الأصداف المتشابهة سواءٌ عند الجميع.

ثالثًا: بالطبع لا بد من أن يكون هذا الوسيط قابلًا للتجزئة، ليكون نافعًا في إتمام كل الصفقات بأحجامها المختلفة.

رابعًا: أن يكون مُعَمِّرًا عصيًّا على التلف، وإلَّا فإنَّه لن يصلح كوسيط

للتبادل يمكن الاعتماد عليه مع الزمن. فلو كان هذا الوسيط يفسد بالوقت فإنه يفقد قيمته بفساده، وبالتالي فهو لا يغني عن المقايضة التي تستلزم إتمام العمليات بشكلٍ آني دون تأجيل وإرجاء.

خامسًا: أن يكون سهلَ الحمل والحفظ. تخيل المعاناة التي يعيشها صاحب الأبقار في كل مرةٍ أراد أن يقايض فيها!

أخيرًا: أن يكون هذا الوسيط متوفرًا في المجتمع وقابلًا للزيادة بالشكل الذي يتناسبُ مع حجم العمليات وتطورها، وإلّا فإنَّ الناسَ سيبحثون عن غيره.

هذه هي الشروط المثالية للوسيط الذي يمكن أن يحل محل المقايضة المباشرة ويستخدمه الناسُ في معاملاتهم، والحقُّ أنَّها لم تتوفَّر كلَّها في كل الوسائط التي استُخدمت عبر التاريخ، بل تفاوتت المجتمعات في اختيار وسيطها الذي تتعامل به. فمن الوسائط ما كان مثاليًّا ومنها ما لم يكن. فقد استخدمت المجتمعات المختلفة قديمًا الأحجار والأصداف والقواقع وقضبان الملح والشاي وجلود المواشي والحرير والقمح وحتى الأغنام في بعض المجتمعات...

يقول الدكتور محمود أبو العيون[1] في كتابه النقود والسياسة النقدية: "وفي إفريقيا استخدمت بعضُ القبائل البقر والماعز، وفي بلاد اليونان استُخدم الثور، وفي التبت استخدمت رُزَم الشاي، وفي الهند استُخدم السكر، وفي الحبشة استخدم الصوف، وفي بلاد الرافدين استخدم الشعير...".

---

١ - محافظ البنك المركزي المصري (٢٠٠١-٢٠٠٣)، وأستاذ الاقتصاد بجامعة الزقازيق، شغل عددًا من المناصب الاستشارية في الوزارات الاقتصادية المصرية والعربية.

لَمَّا تطورت المجتمعات وأدركت مزايا استخدام وسيط في معاملاتهم، أدركوا بالممارسة أنَّ هذا الوسيط سيكون نافعًا في وظائف بعينها، ولو فشل فيها فليس هو بالوسيط الذي يحظى بالقبول العام، وهذه الوظائف هي:

أولًا: سيكون هذا الوسيط معيارًا للقيمة، يعني وسيلة لتسعير السلع الموجودة في الأسواق، حيثُ تقيَّم به، فمثلًا لو كان المجتمع يستخدم القمحَ وسيطًا، فإنَّ كافة السلع في الأسواق يجبُ أن يُعرفَ لها قيمة بالقمح، فمثلًا نقول: قيمةُ مترٍ من الحرير ١٥ كيلوجرامًا من القمح، وقيمةُ لوحٍ من الخشب ٥ كيلوجرامات من القمح، وقيمة كيلوجرام من اللبن كيلوجرام ونصف الكيلوجرام من القمح، وهكذا.

ثانيًا: سيكون هذا الوسيط مستودعًا للقيمة، أي أنَّ له قيمةً في ذاته يحتفظ بها لفترات طويلة، فيمكن أن تشتريَ به اليوم والغد وبعد أسبوع وبعد سنة دون أن يطرأ على قيمته سوى تغييرات طفيفة إن طرأت. وعلى هذا الأساس فإنَّه سيصلح لتسوية المعاملات الآجلة التي تحتاج مُددًا زمنية لإتمامها، كأن تشتري شيئًا ثم تدفع مقابله بعد مدة.

بمرور الزمن استخدم الناس المعادن كوسيط للتبادل، فاستخدموا النحاس والحديد والبرونز، ثم حدثَ أمرٌ مميزٌ في القرن السابع قبل الميلاد.

ففي بلدةٍ خلابة صغيرة، بيوتها بسيطة وشوارعها غير مرصوفة، تنعم بالأمطار وطيب الثمار، تُدعى "آرغوس" وتقع في جنوب بلاد اليونان القديمة، كان القضاة يحصلون على أجورهم في شكل أسياخ معدنية، فأمرَ الملك "فيدون" أن تُصهرَ هذه الأسياخ وتُسكَّ فتصبح مسكوكات معدنية صغيرة، وكان هذا الحدث هو ميلاد النقود المعدنية[٢].

---

٢ - "Pheidon" ملكٌ وثَبَ على مدينة آرغوس وحكمها حكم الطغاة المتوسعين، وهو أول من أصدرَ عملةً رسمية في بلاد اليونان القديمة، وسكَّ عليها رسمًا =

والآن وقد صرنا في اليونان القديمة، فلنكمل حكايتنا منها.

بخصوص التجارة والمبادلات، قد استعرضنا الأفكارَ البشريةَ منذ بدايتها حتى وصلنا إلى الصورة الأولية للنقود المعدنية، فماذا عن باقي نواحي الحياة الاقتصادية؟

كان لفلاسفة الإغريق المشهورين أفكارٌ قليلةٌ احتكَّت بشكلٍ ما ببعض نواحي الحياة الاقتصادية، وفي الحقيقة هي ليست أفكارًا اقتصادية في ذاتها، بل كما قلتُ أفكارٌ في ميادين أخرى لكنَّها احتكَّت بالاقتصاد البدائي ذاك. فالأفكار الاقتصادية مثلها مثل معظم الأفكار في العلوم الإنسانية تدور بين المحاولة لحلِّ مشكلةٍ ما أو تبرير ممارساتٍ ما، أو شرح ظواهر سلوكيةٍ ما. ولمَّا كان الشغلُ الشاغل للمدارس الإغريقية هو مسائل الأخلاق في المجتمع، فإنَّ غالب أفكارهم الاجتماعية كانت تستهدف هذه المسائل بشكلٍ مباشر أو غير مباشر.

غلبت هذه المسائل الأخلاقية عقل أرسطو (٣٨٤-٣٢٢ ق.م) في تناوله لأية قضية تعتبر في الأصل اقتصادية، فتراه نظر في كل الممارسات الاقتصادية فعلَّق على الفائدة والرقِّ، فقد هاجم أرسطو الفائدة[٣] وأنكرها إنكارًا شديدًا خلَّده التاريخ، ولم يرَ فيها أيَّ خير، فلم يكن في مجتمعه مفهومٌ عن الاقتراض المُنتِج، أي الاقتراض الذي يكوِّن رأسَ مالٍ يُدرُّ ربحًا، بل كان الاقتراض دائمًا للحاجة والفقر. وبالتالي لم يحتَجْ الأمر عنده إلى كثير مناقشة، فكيف يرى في استغلالِ الغني للفقير وأخذ فائدة منه شيئًا نافعًا؟! فهذه هي الصورة المعيارية للربا. وكان أرسطو يرى أن النقودَ عقيمةٌ لا تلد، فأنَّى لهذا المقتَرِض أن يردَّها بزيادة؟!

=للجزيرة اليونانية. انظر قصة الحضارة لويل وإيرل ديورنت.

٣ - ردُّ المال بزيادة.

قالَ أرسطو: "إنَّ أسوأ شيءٍ وأبغضه هو الربا، لأنَّ النقود قُصِدَ بها تسهيل التبادل لا أن تزداد عن طريق الفائدة"[٤].

وتكلَّم أرسطو في مسألة الرقِّ كلامًا أخلاقيًّا ليس هنا مكانه، لكن لا بد لنا من أن نذكر أنَّ الرقَّ كان في تلك العصور يحُلُّ محلَّ عنصر العمل في اقتصاد اليوم، وهذا هو السبب في أنك تقلِّب ناظريك في شتى المظاهر الاقتصادية قديمًا فلا تجدُ سلفًا لقواعد هذا العلم اليوم، فلا أجور ولا عُمَّال، فتلك المجتمعات لا تؤرقها مشكلتا التوزيع والقيمة اللتان تمثلان نصف علم الاقتصاد اليوم.

ومن أفكار الإغريق التي يجب أن تُذكر هنا وتنال احترامنا، أفكار إكسينوفون (٤٤٠-٣٥٥ ق.م)[٥] وهو أحد تلامذة سقراط، فقد تكلم هذا الرجل في مسألةِ التخصص وتقسيم العمل، وهذا من وجهة نظري أهم إسهام فكري اقتصادي يمكن أن يؤْثَر عن الإغريق، لكن كثيرًا من المؤرخين يتجاهلونه لسببٍ لا أعلمه. فكرة التخصص وتقسيم العمل فكرةٌ سيُعادُ طرحها على الساحات مرة أخرى في عهد آدم سميث ذاته، بل ستكون عمدة أفكاره التي خلَّدها كتاب ثروة الأمم المشهور. أقرَّ "إكسينوفون" بأن تقسيم العمل في المجتمعات الكبيرة وسيلة مهمة من وسائل الرخاء الاقتصادي، وعدَّ السلام من ضمن وسائل الرخاء الاقتصادي، وبيَّنَ أنَّ المجتمعات التي تظل في حالةِ سلمٍ لأطول فترة ممكنة هي أكثر المجتمعات رخاءً.

أمَّا بخصوص مسألة المحرك الأساسي لعجلة الاقتصاد، هل هو المصلحة

---

٤ - الماضي صورة الحاضر، جون كينيث جالبريث.

٥ - عسكري ومؤرخ أثيني من تلامذة سقراط كَتَبَ مذكرات عن تاريخ الإغريق، يُكتب أحيانًا بالعربية زينوفون.

الخاصة، أم المصلحة العامة؟ وهذا سؤال مهمٌّ شغل كل الاقتصاديين منذ القديم إلى يومنا هذا، وبسببه تشعَّبت المدارس الاقتصادية وتشعَّبت الأحزاب السياسية تبعًا لها. لذلك ستستمرُّ هذه المسألة في حكايتنا.

كان رأي أرسطو واضحًا كالشمس في هذا الصدد، إذ قال: "كم تكون السعادة أكبر عندما يشعر شخصٌ ما بأن شيئًا ما هو ملكٌ خاصٌّ له، لأن حب الذات هو شعور فطري... عندما تكون كل الأشياء مشاعًا لن يكون هناك بعد الآن أحدٌ يضربُ مثالًا للحرية، أو يقوم بأي عملٍ حرٍّ، لأن الحرية تتوقف على الاستعمال الذي يعتمد على الملكية"[٦]. هكذا اهتم أرسطو بالملكية الخاصة وبالتالي بالمصلحة الخاصة.

أمَّا أفلاطون فقد كانت أفكاره ضبابيَّة، فالرجل لم يذكر المصلحة الخاصة بوضوح، ولم يذكر المصلحة العامة بوضوح كذلك، والسبب في هذا أنَّه لمَّا قسَّم طبقات المجتمع، جعل منهم طبقةً مميزةً اعتبرهم حرَّاس الوطن الذين لا يجب أن يزاحمُ حبَّهم للوطن شيءٌ آخر، فهم يجب أن يكونوا متجردين في سبيل هذا الوطن، لا يتمَلَّكُون شيئًا، وإذا افتقدوا شيئًا سُخِّرَ لهم، لكن بلا ملكية دائمة، فليس لهم أن يتزوجوا وينجبوا فيُشغلوا عن الوطن، لكنَّ أحدهم إذا اشتهى النساء جاءته النساء، وهكذا. وهذه الفكرة شيوعية بامتياز، لكن كيف نعتبر أفكار الرجل شيوعية في عمومها وقد اختصَّ بها طبقةً معينة؟ وهذا في حد ذاته نقيض الشيوعية!

ثمة إسهام اقتصادي خافت بسبب صبغته السياسية والاجتماعية، لكننا سنذكره ائتانسًا به ولقلةِ ما يمكن أن يؤثر عن تلك الحضارة في موضوعنا، ولأنَّه الأول من نوعه تقريبًا. ففي القرن السادس قبل الميلاد

٦ - جون كينيث جالبريث، مرجع سابق.

ووفقًا للمؤرخ اليوناني فلوطرخس (٤٥ - ١٢٥ م) وصلَ التفاوت بين الغني والفقير في أثينا إلى ذروته، وصارَت المدينة على شفا جرفٍ يوشكُ أن ينهار بها وبأغنيائها، فقد أيقنَ الفقراء أنهم لا خلاص لهم إلَّا الثورة، فحتى المحاكم التي كانوا يلجأون إليها كانت فاسدة لا تقضي لصالحهم.

في هذه اللحظة الفارقة تدخل سولون (٦٤٠-٥٦٠ ق.م) الذي كانَ عضوًا في السلطة التشريعية، وقام بإصلاحات اقتصادية هي الأولى من نوعها في التاريخ المعروف، إذ خفض قيمة العملة ليقلل من حدة الأعباء على المدينين، وألغى جزءًا من الديون الشخصية التي أثقلت أكتاف الفقراء، وألغى عقوبة السجن للغارمين، وجعل الضرائب تصاعدية تتناسب مع الدخل.

هذه هي الأفكار الاقتصادية التي يمكن أن نأخذها إذا طُفْنا بمدن الإغريق، ومعظمها أفكار أوليَّة تناسب مجتمعاتهم، لكنَّها أيضًا أفكارٌ طغت عليها القضايا الأخلاقية. يقول ألكسندر جراي: "علم الاقتصاد في اليونان القديمة لم يكن مجرد تابعًا وخادمًا للأخلاق، بل سُحِقَ على يديها"(٧).

بحلول القرن الثالث قبل الميلاد كانت مملكة روما قد خرجت من حدود الجزيرة الإيطالية وتوحَّشت حتى سيطرت على سواحل البحر الأبيض كلها وجعلته بحيرةً في أرضها. ورثت هذه الإمبراطورية الجديدة الذِّكرَ بعد الإغريق. ولو كان هذا الكتاب يُعنى بالتاريخ العسكري والسياسي، لكان هذا الجزء الروماني منه ماتعًا جدًّا، لكن للأسف كتابنا يُعنى بتاريخ الفكر الاقتصادي، وبخصوص هذا الموضوع فقد أجمع

---

٧ - جون كينيث جالريث، مرجع سابق.

المؤرخون على أنَّ الفكر الاقتصادي في عصر الإمبراطورية الرومانية جدير بالإهمال وعدم الذكر، يقول جون كينيث جالبريث (١٩٠٨-٢٠٠٦ م)[٨]. في كتابه (الماضي صورة الحاضر): "يكاد يُجمِع كل الذين كتبوا عن تاريخ الفكر الاقتصادي على أنَّ إسهامَ الرومان كانَ محدودًا... فقد أطالوا في الثناء على الزراعةِ حتى أصبحت أنشودة يسبحون بها".

في حين أجمع المؤرخون على إهمال الأفكار الاقتصادية للرومان، أشادَ معظمهم بالقانون الروماني معتبرينه أهم منجز لتلك الحضارة. ونحن في موضوعنا ندعِّم هذه الإشادة ونقرُّ بأننا لو أردنا أن نبحث عن أي شيءٍ يُذكر بما يُعنى به كتابنا، فإننا سنجد شيئًا مهمًّا في القانون الروماني وهو حماية الملكية الخاصة، وهذا الأمر القانوني يسهم في الممارسات الاقتصادية بطريقة مباشرة؛ إذ تحمي الدولة بنفسها ما يعتبره البعض المحرك الأساسي للحياة الاقتصادية، وهي خطوة في غاية الأهمية.

في القرن الثاني قبل الميلاد، كان تيبيريوس جراكوس (١٦٣-١٣٣ ق.م)[٩] قد لاحظَ حجم التفاوت الكبير في ملكية الأرض في الإمبراطورية، وأدركَ أن تهميش الفقراء وعدم تملكهم للأراضي بسبب فقرهم قد يدفع البلاد إلى ثورة وأعمال تخريبية، ولأنه كان ممثلًا للعوام في مجلس الشيوخ، اقترح إعادة توزيع الأراضي، بحيث لا تزيد ملكية أحد عن ٣٣٣ فدانًا، لكنَّ المجلس رفض هذا الاقتراح معتبرينه مصادرة للملكية

---

٨ - سياسي ودبلوماسي واقتصادي أمريكي، وأستاذ للاقتصاد في جامعة هرفارد، تقلد العديد من المناصب الرفيعة وكان سفيرًا للولايات المتحدة في الهند، وله كتابات كثيرة رائجة ونال عددًا من الأوسمة الشرفية.

٩ - سياسي روماني مشهور بالإصلاح ونصر الفقراء والمهمشين في القرن الثاني قبل الميلاد، أحدث اضطرابات وقلاقل، ومات مقتولًا، وكان له أخٌ لا يقل عنه شهرة في أمور الإصلاح اسمه غايوس جراكوس.

الخاصة. (قُتل تيبيريوس جراكوس بعد أن تزعَّم تيارًا من الفقراء بعد رفض اقتراحه).



تيبيريوس جراكوس

بداية من النصف الثاني للقرن الثالث الميلادي، أخذ التاريخ يلوِّح بأن صفحة هذه الإمبراطورية ستطوى، فقد ضربها طاعون سيبريان المشهور الذي فتك بالآلاف يوميًّا، ثم تتالت مسببات الانهيار على أراضيها، فقد انقسمت الإمبراطورية إلى شرقية وغربية بموت ثيودوسيوس الأول في العام ٣٩٥ الميلادي، وبعد ذلك بعشرين عام تقريبًا وافق هونوريوس[١٠] على نزول القبائل الجرمانية في الأراضي الرومانية، وهي نفسها القبائل

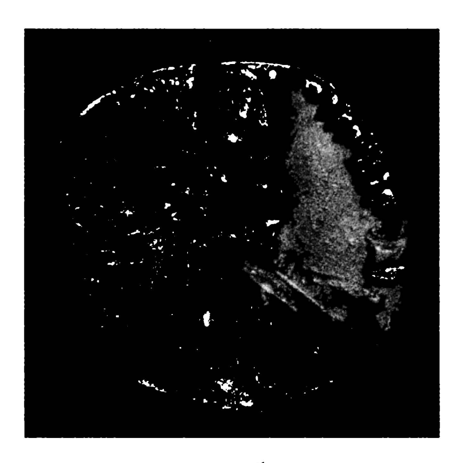
١٠ - هو ابن ثيودوسيوس الأول، وكان أول ملك للإمبراطورية الغربية بعد التقسيم.

المحاربة التي هدمت آخر حجر للإمبراطورية، وبنهاية القرن الخامس الميلادي دخلت أوروبا في طورٍ جديدٍ من تاريخها.

رصدنا في القرن السابع الميلادي واقعةً جديرة بالذكر هنا، فقد كانت المملكة الأموية(١١) العظيمة في تلك الفترة تتداول نقودَ بيزنطة، وبقية من نقود فارس والدراهم التي كان أول من سكها الخليفة الثاني عمر بن الخطاب، لكنَّ عبد الملك بن مروان الذي كان يحكم هذه المملكة من قصره في الشام، اتخذَ قرارًا بإخراج أسواق مملكته من النقد البيزنطي، فأمرَ بإنشاء دارًا لسكِّ العملة، وأصدر عملةً عربيةً جديدةً بالكلية، وهو بهذا الإجراء قد حقق عددًا من الأهداف السياسية المهمة، لكن ما يعنينا هو ما حققه اقتصاديًّا، حيث استقلَّ باقتصاده تمامًا عن أعدائه البيزنطيين، ثم وضع ضوابطًا ومعايير لعملة موحدة ليحارب الغش والتزييف الذي كان سائدًا نتيجة لاختلاف المسكوكات وتعددها، وأخيرًا صار التحكم في سعر العملة والسلع أمرًا مركزيًّا سهلًا. وهذه الواقعة ليس لها نظير على نفس المستوى في العالم القديم.

---

١١ – الدولة الأموية –بضم الهمزة– هي أولى الممالك المسلمة بعد عهد الخلافة الراشدة، أسسها الصحابي معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه، بعد أحداث الفتنة التي بدأت بقتل الخليفة الثالث عثمان بن عفان رضي الله عنه، وانتهت بقتل الخليفة الرابع علي بن أبي طالب رضي الله عنه، واسمها منسوب إلى أمية، وهو جد معاوية بن أبي سفيان بن حرب بن أمية، وأحد أشهر بطون قريش، دخلت أوروبا من الجهة الغربية وفتحت الأندلس بكاملها. وامتدت رقعتها من الصين شرقًا إلى المحيط الأطلسي غربًا، ومن اليمن جنوبًا حتى أذربيجان شمالًا، وكانت عصمتها ومقر حكمها الشام (٦٦٢–٧٥٠م).



الدينار الذي سكَّه عبد الملك بن مروان

هذا كل ما يمكن أن يؤثر عن تلك القرون الأولى بخصوص الفكر الاقتصادي، وكما رأيت هي في معظمها ممارسات أكثر من كونها تنظيرًا لحل المشكلات، فالاقتصاد بمفهومه اليوم يشغله أول ما يشغله قيمة السلع ثم كيفية توزيع هذه القيمة على المشاركين في توفيرها، وهذا ما يُعرف عند المتخصصين بنظريتي القيمة والتوزيع، لكن تلك العصور، يصعب فيها مناقشة القيمة، وقد كانت تحبو أصلًا للوصول إلى طرق مناسبة للتبادل، إضافة إلى أن أوليَّاتها لم تكن كأوليَّات اليوم، فهناك الرقيق هم العمال، وأحيانًا أخرى ترى الأسرة هي العمالة...

الفصل الثاني
غروبٌ وشروق

خَلَّفَ سقوطُ الإمبراطورية الرومانية أوروبا في تيهٍ عجيب؛ ميراث الإغريق الفلسفي مع أطلال إمبراطورية منهارة دانت بالمسيحية يحكمُ بقاياها قبائل بربرية لا تعرفُ إلَّا القتل والنهب، حتى إنهم يحتقرون الرجلَ الذي يتكسَّبُ بعرقه لا بدمه!

بهذا المزيج الغريب دخلت أوروبا قرونًا أطلقوا عليها فيما بعد القرون المظلمة "الوسطى" ولعلَّ هذه التسمية كافية لإخبارك بأننا لن نجد فيها ما نذكره في حكايتنا هذه من أفكار، وهذا حقيقي جدًّا خصوصًا في الفترة بين القرن الخامس الميلادي حتى القرن الثاني عشر الميلادي. لهذا السبب سنترك أوروبا التي أفلت وننطلقُ إلى الشرق باحثين عمَّا يمكن أن نذكره عن تلك الحِقَب من الأفكار أو الممارسات الاقتصادية التي لا يمكن إهمالها.

عندما غربت الشمس عن أوروبا أشرقت بنورها على إمبراطورية عظيمة بدأت من فلواتِ الجزيرة العربية القاسية، وفاضت حتى ضمَّت الشام والعراق وفارس وتاخمت الصين شرقًا، واستولت على حدود أوروبا الشرقية ومصر وشمال إفريقيا غربًا.

في القرن الثامن الميلادي بلغت هذه الإمبراطورية المسلمة ذروة ازدهارها، تحت سلطان الأسرة العباسية[١٢] التي اختارت بغداد عاصمةً لها.

تميزت الإمبراطورية العباسية عن الأموية في أنها استعانت في إدارتها للدولة بغير العرب، فلم تكن الإدارة حكرًا على العرب فقط، حتى أرقى المناصب وأهمها حساسيةً تجد فيها رجالًا فارسيين في الأصل معروفين بهذا عند الخليفة. فمثلًا كانت جلُّ الإدارة السياسية في عهد هارون الرشيد في فترة ما متروكة للبرامكة[١٣] وهم أسرةٌ فارسيةُ النسب. هذا التنوع في إسناد المهام أثرى الإمبراطورية في مختلف الفنون والعلوم والفكر وفي سبل الإدارة والاقتصاد.

ويمكننا إيجاز ميراث هذه الإمبراطورية في الفكر والممارسات الاقتصادية كالتالي:

أولًا: فيما يخص مشكلة القيمة، وضعت الدولة العباسية نظامًا يسمى "الحِسبة" وشاغله يسمى "المُحتَسِب" ودوره الأساسي هو مراقبة الأسواق لضمان الأسعار العادلة ومنع الاستغلال والغش. وهذه خطوة مهمة خطتها البشرية في السيطرة على مشكلة الأسعار، لكن يجب الإشارة

---

١٢ - الدولة العباسية هي ثاني مملكة مسلمة بعد خروج شكل الدولة الإسلامية عن الخلافة الراشدة التي كان يحكمها أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام، ونسبهم يمتد إلى العباس بن عبد المطلب، أسَّسها عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس، وهو أول ملوكها، ولقبه أبو العباس السفَّاح. وامتدت رقعتها من الصين شرقًا إلى المحيط الأطلسي غربًا، ومن اليمن جنوبًا إلى أذربيجان شمالًا، وكانت عاصمتها ومقر حكمها بغداد (٧٥٠-١٥١٧)م.

١٣ - أسرة فارسية الأصل تُنسب إلى رجلٍ فارسي اسمه برمك، أسلموا واستعان بهم العباسيون في إدارة البلاد، فأحسنوا وزاد نفوذهم في عهد هارون الرشيد، الذي كان وزيره يحيى بن خالد البرمكي، وانتهى بهم الحال بما يعرف تاريخيًّا بنكبة البرامكة حيث نكَّل بهم هارون فسجن بعضهم وقتل بعضهم.

إلى أنَّ فهم المسألة ووضع تنظير لها لم يكن ممكنًا أيضًا في تلك الفترة؛ لعدم وجود عوامل إنتاج خاضعة لنفسِ الهيكل الذي عرفته الإنسانية فيما بعد.

ثانيًا: في ظلِّ تطور تَمَدُّن هذه المملكة أنشأ التُّجارُ نقابةً مسؤولةً عن مراقبةِ المعاملات التجارية، وكان أعضاؤها هم التجارُ والأعيانُ ورئيسها يُنتخب منهم.

ثالثًا: أمَّا أهم مُنجَز اقتصادي لا مناص من ذكره في كتابٍ كهذا هو ما فعله الخليفة الواثق[١٤] حين أسقطَ "الجمارك" تشجيعًا للتجارة عبَر البحار. وهذا الإجراء سابق لعصره فكريًّا بقرون، وأحد أهم محاور الفكر الاقتصادي على مدار التاريخ. ولا أدري كيف أقرأ كتب تاريخ الفكر الاقتصادي القديمة فلا أرى فيها ذكرًا أو تلميحًا لهذا الإجراء العباسي المذهل، في حين أرى تشدقًا بنفس الإجراء في القرون التي تلت القرن الخامس عشر في أوروبا أي بعد أكثر من ستةِ قرون!

والحقُّ أنَّ ممارساتٍ كثيرة ناجحة يمكن أن نستخلصها من تاريخ تلك الإمبراطورية العظيمة، لكن تلك الثلاث هي الأقرب لسردنا. ويكفي أن نذكر نتاج هذه الممارسات الناجحة التي بدت في تزعم هذه المملكة لصناعة الصابون والزجاج والحرير والمنسوجات والورق، وتحويل إقليم العراق إلى أحد أغنى بقاع الأرض ثمرًا.

هذا الذي جعل إيرادات الدولة في عهد هارون الرشيد تتخطى المليار ونصف المليار دولار سنويًّا (٢٧٢ مليون درهم و٤ ملايين دينار)[١٥].

---

١٤ - هو هارون بن محمد، حفيد هارون الرشيد، وابن المعتصم، وهو الخليفة العباسي التاسع، ولقبه الواثق بالله.

١٥ - مختصر تاريخ العرب والتمدن الإسلامي، السيد أمير علي.

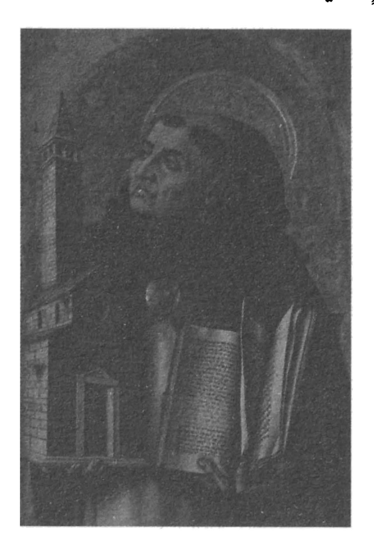


الدينار العباسي في عهد الخليفة الواثق

بما أننا في الشرق، فتعال نتوغل فيه أكثر حيث الصين، ففي الفترة التي أظلمت فيها أوروبا واستنارت الإمبراطورية الإسلامية كانت الصين تحت حكم أسرة "تانج الأول" (٦١٨-٩٠٧ م). في هذا العصر ظهرت أول نقود ورقية موثقة في التاريخ. حيث كان الشخصُ يودع ما يمتلك من معادن نفيسة لدى الدولة، ثم يأخذ بها صكًّا مكتوبًا. ثم يمارسُ معاملاته التجارية بهذه الصكوك. تجلَّى هذا الإنجاز أكثر عندما أعلن الإمبراطور "هين تسونج" (٨٠٨-٨٢١ م) أنَّ سلطة إصدار هذه الصكوك ستخضع له فقط. هذا ما يسمى في عالم الاقتصاد اليوم "النقود النائبة"، فهذه الصكوك تنوب عن الذهب والفضة اللذين أودعهما الشخص لدى جهة إصدار هذه الصكوك. فبدلًا من أن تحتفظ بمخزون من الذهب والفضة ويكون عرضةً للسرقة والنهب، يمكنك أن تذهب لجهةٍ مؤمَّنة تودعها هذا المخزون ثم تأخذ به صكوكًا مكتوبًا عليها مقدار ما أودعت من الذهب والفضة، ثم تذهب وتمارس معاملاتك بهذه الصكوك، فهي تضمن للناس أنك تمتلك الذهب والفضة، وأنهم إذا أخذوا منك صكًّا ثم ذهبوا إلى جهة إصداره فسوف يستبدلون به مقدار الذهب أو الفضة المكتوب فيه.

نعود الآن إلى أوروبا في قرونها السوداء، حيث اشتهر فيها هذا الإجراء بسبب المخاوف وسوء الأحوال المعيشية وافتقاد الأمان العام، وكانت الجهات التي يذهبون إليها هي جهات تمارس دورًا مصرفيًّا أوليًّا بإصدار مثل هذه الشهادات.

في أوروبا، وبدايةً من القرن الثالث عشر الميلادي، ظهرت بعضُ الشخصيات التي تركت فكرًا يسيرًا يمكن أن نذكره هنا، ففي هذه الفترة عاش توما الإكويني (١٢٢٥-١٢٧٤ م)، وهو رجل دين مسيحي فرنسي، إيطالي المولد، ينحدرُ من عائلةٍ عريقة، وأحد ألمع لاهوتيي العصور الوسطى. لم تبتعد أفكاره كثيرًا عن الفضيلة، فتكلمَ عن السعر العادل من المنظور الأخلاقي والديني وما يترتب على الغش من آثام... وبالطبع أنكر الفائدة وشنَّع بأهل الربا، فلمَّا حاجَّه الناسُ وقالوا إن الفائدة هي ثمن تعطيل النقود عبر الزمن، قال لهم إن الزمن ملكٌ لله، ولا ينبغي لأحدٍ أن يحصلَ على ثمنٍ لشيءٍ ليس ملكه!



توما الإكويني
برسم كارلو كريفيلي

في القرن التالي عاش نيكول أوريسم (١٣٢٠-١٣٨٢ م) أسقف كنيسة ليزييه المشهور، فهو أحد مستشاري الملك شارل الخامس (١٣٣٨-١٣٨٠ م) وأحد مترجميه الثقات. له إسهامٌ خافتٌ في الفكر الاقتصادي غَبَنه فيه معظم المؤرخين ونسبوه لغيره.

ففي تلك الفترة انتشر في أوروبا غش العملات المعدنية الذهبية، حيث كان بعض الناس يخلطونها بالنحاس، وهذا يحطُّ طبعًا من قيمة العملة التي كان لها قيمةٌ سلعية في ذاتها، فلمَّا لاحظَ الناسُ هذا بدأ الجميع يستعمل هذه العملات الرديئة ويحتفظُ بالعملات الجيدة لنفسه، تمامًا كما تحاول أنت أن تتخلصَ من نقودك المهترئة. وهنا لاحظ أوريسم أن الأسواق بعد فترة امتلأت بالعملات الرديئة وشحَّت الجيدة، واستنتج أن العملة الرديئة تطرد العملة الجيدة من التداول. وهذه القاعدة المهمة تُعرفُ اليوم بقانون جريشام!

نعم، نسبها المؤرخون الأوربيون إلى السير توماس جريشام (١٥١٩ - ١٥٧٩ م) الاقتصادي العَلَم ووزير الملكة إليزابيث الأولى (١٥٣٣-١٦٠٣ م). والحقُّ أنَّ جريشام لم يكن شخصًا خامل الذكر في التاريخ الاقتصادي الأوروبي بل كانَ مذكورًا ومؤثرًا، وهذا أدعى لأن تُنسبُ القاعدة لأوريسم لأنها لا تضيفُ لجريشام شيئًا!

الفصل الثالث

عوالم جديدة

مرت أوروبا بعد انهيار العملاق الروماني بمراحل بينيَّة متغايرة على المستوى الاجتماعي والسياسي، وأهم تلك المراحل من منظور كتابنا هي مرحلة عصر الإقطاع. فقد نتج عن المزيج غير المتجانس الذي ذكرناه في مطلع الفصل السابق انقسام الرقعة الأوروبية الكبيرة إلى إقطاعيات صغيرة على رأسِ كلٍّ منها بارون أو نبيل، له جنودٌ هو سيدهم وهم رجاله، وهذه العلاقة كانت تتسم بقدرٍ من الغرابة؛ إذ تبدو علاقة روحية يضمنها ميثاقٌ ما، فليست علاقة عادية بين قائدٍ وجنده. لعلك تفهم قصدي إن كنت قد شاهدت فيلم Last Knights. وكانت كل مجموعة من الإقطاعيات تخضع لملكٍ يستمدُّ سلطانه منهم، فهم يذعنون له ويمدونه بالجنود الذين يحمي بهم المملكة. وأمَّا إيرادات هذه المملكة فهي في الأساس الضرائب التي يجبيها من الإقطاعيات التي في سلطانه. هذه الإقطاعيات التي شكَّلَت ممالك غير متزنة هي التي تحولت إلى دويلات صغيرة فيما بعد، قبل أن تكوِّن دولًا قوميةً في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر.

هذه الفترة التي نتناولها في هذا الفصل تعتبر أحد أغنى فترات التاريخ بالأحداث على مختلف الأصعدة، وهي ذاتها الفترة التي أطلق عليها مؤرخو القرن التاسع عشر "عصر النهضة" ونحن هنا في سردنا نخص منها الفترة من منتصف القرن الخامس عشر إلى منتصف القرن الثامن عشر. فهذه الفترة ذخرت بأحداث غيرت ملامح العالم من جانبه الاقتصادي، ونتج عنها مدرسة اقتصادية مشهورة لها أفكار معينة سيأتي ذكرها في السطور القادمة.

بدأ نفوذ سادة الإقطاعيات يضعف بسبب الحروب وتطلعاتهم إلى التوسع، وهرب الكثير من رعاياهم وعبيدهم واستوطنوا بقايا المدن الرومانية المهجورة التي أطلق عليها لهذا السبب المدن الحرة. ثم بدأ هؤلاء الهاربون في مزاولة بعض الحرف التي يتكسَّبون منها؛ كالزجاج الملون والنقش على النحاس... وهذا التغير المجتمعي البسيط أخذ من نفوذ سادة الإقطاعيات وأعطى نفوذًا لطبقة جديدة كانت تلمع شيئًا فشيئًا، وهي طبقة التجار.

لكن سادة الإقطاعيات كانوا أقوى من الملوك الذين ينتمون إلى مملكتهم حتى هذه الفترة، ففي النهاية هؤلاء الملوك كانوا يحكمون أرضًا لا يملكونها، أمَّا بارونات الإقطاعيات فهم أصحاب الأرض. وكذلك هم الذين يدافعون عن المملكة بإرسال الفرسان إلى الملك!

لَمَّا كونت تلك الأسر التي سكنت المدن الحرة عوامل إنتاج من نفسها، أي صارت تعتمد على شغلِ أيديها في الكَسْب، وصارت تمارس بعض الحرف، وثب عليهم التجار واشتروا منهم منتجاتهم وطافوا بها يبيعونها، وبمرور وقت ليس بالطويل أثْرَت تلك الطبقة واغتنت، وزاد بريقها.

بالطبع يمكنك أن ترى في نشوء هذه الطبقة نفسيةً نفعيةً بامتياز.

بسبب ضعف الملوك، تكوَّنَ على النظام الإقطاعي مدن جديدة تحكم نفسها بمجالس برلمانية، بشرط أن يظل ولاؤها للملك. ولأنَّ الملك أراد أن يُحكم سيطرته على مملكته التي تتكون من مدن ذاتية الحكم، فلم يكن له سبيل إلَّا توطيد علاقته بالبارونات والنبلاء الذين لهم مكان مضمون في تلك المجالس. وهذه العلاقة كانت تُوطَّد بالثروة والعطايا، ومن هنا احتاج الملك إلى فئة ثرية تجالسه فتعينه على بسطِ نفوذه برأيها ثانيًا وبمالها أولًا، وهذه الفئة هم التجار.

وفي نفس الوقت احتاجت هذه الطبقة الجديدة لرعاية مصالحها إلى الأمن والاستقرار والطرق الممهدة، فرحَّبوا بهذه العلاقة.

ثم توسع هؤلاء التجار في تجارتهم حتى خرجوا بها خارج أوروبا، ومن حسن حظهم أنَّ الشرق العثماني[١٦] كان يعيش حالةً عظيمةً من الازدهار، فنقلت طبقة التجار الأوروبيين علومًا ومعارفَ شرقيةً بقدر ما نقلت بضائع ومصنوعات. وعلى أثر هذا الانفتاح عظمت التجارة أكثر ونشأت مراكز لامعة في أوروبا أخيرًا مثل فلورنسا وجنوة والبندقية[١٧]...

استفادت تلك الدويلات والممالك في الغرب الأوربي بصفة خاصة وفي كل أوروبا بصفة عامة من المعارف الشرقية المتطورة في إثراء تجارتها

١٦ - إمبراطورية إسلامية أسسها عثمان بن أرطغرل، على أنقاض الولايات الصغيرة التي كانت تابعة للدولة السلجوقية، وبلغت في أقصى اتساعها رقعة كبيرة ضمت الحجاز ومصر وساحل إفريقيا الشمالي والعراق والشام وأذربيجان وجورجيا وشرق أوروبا وهي التي أسقطت الإمبراطورية الرومانية الشرقية (بيزنطة) بفتحها القسطنطينية في العام ١٤٥٣. (١٢٩٩-١٦٢٣م)

١٧ - كانت دويلات مستقلة.

بشكلٍ مباشر إذ بنت المراكب الشراعية ذات الصواري الثلاث على التصميم العربي، وأدخلت في تجارتها طرق الحساب العربية الإسلامية فاستخدم الأوروبيون للمرة الأولى الفاصلة العشرية في مسائلهم وحساباتهم وطبقوها على العمليات التي تشمل الجمع والطرح والضرب والقسمة وقياس الأوزان وتحصيل الفوائد وتبادل العملات، وكان نقل هذه المعارف الدارجة في الشرق فتحًا عظيمًا على الأوروبيين الذين لم يعرفوا علامات الجمع والطرح إلا في القرن الخامس عشر، في حين عرف الشرق حل المعادلات من الدرجة الأولى والثانية قبل ذلك بستة قرون[١٨].

وفي العام ١٤٥٣م وقع حدثان دفعا التجارة والتجار إلى مرحلة جديدة أوسع من السابقة، حيث وقعت القسطنطينية في أيدي العثمانيين، والتقى الشرق بالغرب، وكانت الإمبراطورية العثمانية شديدة الحرص على التبادل وحفظ التراث، الأمر الذي جعلها تزيد من قدر التجارة والنقل المعرفي بينها وبين الغرب البائس، وفي نفس الفترة تقريبًا انتهت حرب المئة عام[١٩] التي اشتعلت بها أوروبا الشمالية فترةً طويلة، وهذا أدى إلى زيادة التبادل التجاري بين الجنوب والشمال الأوروبي وبين الشمال وباقي العالم.

مع ازدياد التجارة بين دويلات أوروبا وبين آسيا والصين والهند، فرضت الإمبراطورية العثمانية ضرائب على تلك التجارة التي يجب

---

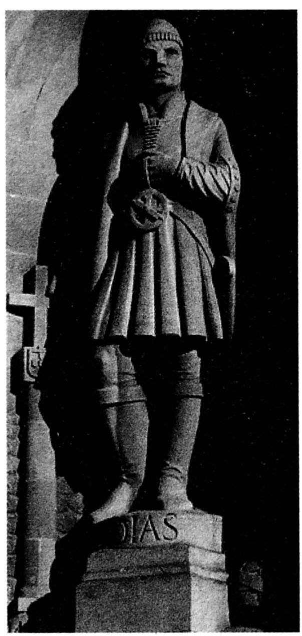
١٨ - صنَّفَ محمد بن موسى الخوارزمي للخليفة المأمون كتاب الجبر والمقابلة في القرن التاسع الميلادي وكان الكتاب يحوي حل المعادلات من الدرجة الأولى والثانية وحساب المواريث وحساب بعض الأحجام والأشكال الهندسية.

١٩ - سلسلة من المعارك التي وقعت بين فرنسا وإنجلترا واستمرت تقريبًا من العام ١٣٧٣ حتى ١٤٥٣م، شارك فيها قشتالة والبرتغال واسكتلندا. واعتبرها المؤرخون من أهم حروب القرون الوسطى.

أن تمر من طرقها البرية، كما فرضت دولةُ المماليك المصرية ضرائب على الحركة التجارية التي تمرُّ بالبحر الأحمر. الأمر الذي دفع مراكز أوروبا التجارية إلى البحث عن طرقٍ يتحايلون بها على تلك الضرائب الإسلاميَّة الباهظة، ففي حين كانت تلك الضرائب تسدد بالذهب والفضة، شحَّت مناجم وسط أوروبا بالمعدنين.

بدأت ممالك غرب أوروبا تسعى للحصول على الذهب بالبحث عنه على طول الساحل الغربي الإفريقي، وقد نجح مسعاهم وعادت الرحلات -التي كانت مدعومة من التاج البرتغالي وتنطلق من أراضيه مقابل نسبة من حصيلة السفن- بالذهب والعبيد. وفي هذه الفترة اقترح البحار كريستوفر كولمبس على التاج البرتغالي دعمه في القيام برحلة تستهدف الشرق من خلال الإبحار غربًا عبر المحيط والالتفاف حول الكرة الأرضية. لكن هذا الاقتراح لم ينل موافقة التاج البرتغالي. وفي العام ١٤٨٨م وبينما كانت الرحلات تتوالى على الساحل الغربي الإفريقي، عاد إلى لشبونة البحار البرتغالي بارثولوميو دياز (١٤٥٠-١٥٠٠ م)[٢٠] معلنًا إبحاره حول الرأس الجنوبي للقارة السمراء، مستنبطًا أنَّه لو أتمَّ الالتفاف واتجه شملًا لبلغ إثيوبيا من ساحلها الشرقي. كانت هذه الأخبار المدوية تعني أنَّ استكمال نفس الطريق الذي قصده دياز يصل بصاحبه إلى الهند، وهي أحد أكبر الأقاليم التي تتاجر معها أوروبا، وتتكلف ضرائب باهظة للوصول إليها عبر الشرق الأوسط الذي تسيطر الإمبراطورية العثمانية على معظمه.

٢٠ - Bartholomew Diaz هو مستكشف وبحار وأحد المقربين للتاج البرتغالي المشهورين في القرن الخامس عشر.



تمثال بارثولوميو دياز في لندن

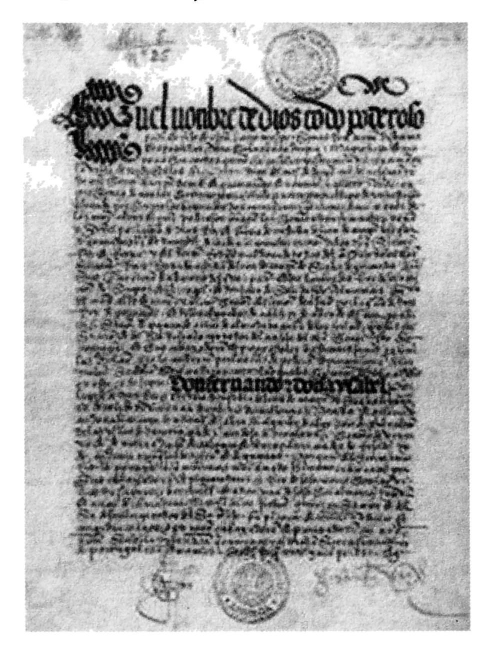
أثارت عودة دياز بهذا الكشف شهوة المستكشفين، وقد أطلق على الرأس الإفريقي الجنوبي (رأس الرجاء الصالح). وفي العام ١٤٩٢م أعاد كولمبس اقتراحه على التاج القشتالي مستغلًّا ضائقة مالية تمر بها المملكة تجعلهم يقبلون مغامرة كهذه[٢١].

انطلق كولمبس بثلاث سفن وتسعين رجلًا جهة الغرب، حتى وصل إلى جزر البهاما ثم كوبا، وأتمَّ رحلتَه الضالَّة وعاد إلى قشتالة بقليلٍ من الذهب وكثير من السكان الأصليين المختطفين!

---

٢١ - قشتالة والبرتغال وليون، هذه الممالك الثلاث هي الممالك المتاخمة لبقايا الأندلس من الشمال في شبه الجزيرة الأيبيرية وقد تحولت جميعًا إلى إسبانيا.

وكما أثارت رحلة دياز طموح المستكشفين، أثارت رحلة كولمبس مشاكل دبلوماسية بين البرتغال وقشتالة، فقد اعتبرت البرتغال رحلة كولمبس الذي -يزعم أن اليابسة التي بلغها هي يابسة الشرق- خرقًا لمعاهدة سابقة بين المملكتين، كانت تضمن للبرتغال احتكار الاستكشاف في هذه الجهة. فقامت المنازعات التي انتهت في النهاية بمعاهدة توردسيلاس[٢٢] الصارمة التي رُسمَ فيها خطٌّ في المحيط الأطلسي بحيث يكون كل ما يقع في شرق هذا الخط حكرًا على البرتغال، وكل ما يقعُ في غربه حكرًا على قشتالة. وبهذا احتفظت قشتالة بالأرضِ الجديدة التي وطئها كولمبس.



ورقة من معاهدة توردسيلاس ١٤٩٤م

---

٢٢ - Tordesillas هي المدينة التي وقعت فيها اتفاقية ترسيم العالم الجديد بين البرتغال وقشتالة عام ١٤٩٤.

في العام ١٤٩٧م غادر البحار فاسكو داجاما ساحل لشبونة ليكمل رحلةَ دياز إلى الهند. وبأسطولٍ مكون من ١٧٠ رجلًا وأربع سفن تذخر بالمدافع، نجح في تجاوز الرأس الإفريقي ثم بلوغ بحر العرب[٢٣]. وهو بحرٌ غير ثابت المعالم في خرائط الأوروبيين لقلة معرفتهم الجغرافية آنذاك، لذلك استعان دا جاما بملّاح عربي من المنطقة.[٢٤]

نجح هذا الملاح العربي الماهر بمعرفته البحرية الراسخة وتقنياته المتطورة في حمل أسطول فاسكو داجاما إلى ساحل الهند. يقول جيري بروتون[٢٥] في كتابه عصر النهضة: "كانت هذه التقنيات مجهولةً تمامًا بالنسبةِ للأوروبيين. لقد أخذت الخبرة الفلكية البرتغاليين حتى حدود الرأس الإفريقي، ثم ساعدتهم المهارة الملاحية الإسلامية في نهاية المطاف على الوصول إلى الهند".

تتالت الرحلات البرتغالية التي تدور حول رأس الرجاء الصالح وتصل إلى الشرق، وكذلك الرحلات القشتالية التي تنطلق غربًا باحثةً عن الشرق. وفي حين نجحت رحلات البرتغال في إحداث ثورة في تجارة التوابل، وهي إحدى أهم التجارات آنذاك، أكدت رحلات قشتالة أنَّ كولمبس اكتشفَ قارةً جديدة!

هكذا كانت التجارة تتعاظم في تلك السنين آخذة في تعاظمها سياسات الممالك وتطلعاتهم وتطورهم العلمي والعسكري. في النصف الثاني من

---

٢٣ – الجزء الشمالي من المحيط الهندي، من الجزيرة الهندية شرقًا إلى سواحل الصومال غربًا، وتحده من الشمال جزيرة العرب.

٢٤ – اختلف المؤرخون في تحديد هذا البحار العربي، منهم من قال هو أحمد بن ماجد، ومنهم من نفى.

٢٥ – مؤرخ بريطاني ومُحاضر أول في دراسات عصر النهضة في كلية الملكة ماري بجامعة لندن.

القرن السادس عشر، وكنتيجة لسعي التجار الكبار لتعظيم ثرواتهم، وسعيًا للاحتكار المطلق، ظهر نوعٌ جديدٌ من التعاون المالي، حيث يقوم مجموعة من الأفراد الأثرياء بالاشتراك معًا في تمويل رحلةٍ معينة أو عملية تجارية محددة، وهذا هو الطور الأول لشركات المساهمة التي عُرفِت فيما بعد.

تطور هذا الشكل من العمل التعاوني أكثر وصار الغرض هو تكوين رأس مال ضخم يُستثمر في أنشطة دائمة وليس مجرد صفقة واحدة كما كان الحال من قبل. في العام ١٥٥٥م ترخصت شركة "موسكوفي" الإنجليزية، والتي احتكرت التجارة بين إنجلترا ودوقية موسكوفي في الشرق. وفي العام ١٦٠٠م تأسست شركة الهند الشرقية البريطانية، ثم تبعها شركة الهند الغربية الهولندية في العام ١٦٠٢م وهذه الشركات كانت تُمنح حق احتكار التجارة في منطقة معينة. ومعنى هذا الحق أن هذه المناطق أو الأقاليم تُمنع من التجارة مع أي كيانات أو دول غير هذه الشركات! وحفاظًا على هذا الحق العجيب في عصرٍ يشوبه جشعٌ لا يوقفه إلَّا النار، كانت تلك الشركات كيانات مسلحة، حتى إنك لو قرأت تاريخ تلك الحقبة ستمر على أسماء تلك الشركات في حروبٍ وعمليات مسلحة بقدرٍ صادم، فقد كانت هذه الشركات أدواتٍ للحرب وبسط السيطرة!

يقول روبرت سي آلن[٢٦]: "لم يصبح الأوروبيون الشماليون قوى استعمارية ذات ثقل حتى القرن السابع عشر، وكانت المنظمة المفضلة لديهم هي شركة الهند الشرقية التي جمعت بين النشاط الاستعماري والنشاط التجاري الخاص... وكانت تمتلك قوات عسكرية وبحرية،

٢٦ - روبرت سي. آلن، مؤرخ وأستاذ التاريخ الاقتصادي في أكسفورد.

وأقامت مواقع تجارية محصنة خارج أراضيها"[٢٧].

قبل أن تغلبنا متعةُ هذه الأحداث وننجرف لسردها، علينا الآن أن نستخلص منها الملامح العامة التي شكلت توجهات اقتصادية معينة أجبرتنا على إفراد فصل كامل لها. وهذه الملامح يمكن إيرادها في النقاط التالية:

أولًا: شهدت تلك الفترة انفصال العلوم عن بعضها للمرة الأولى في أوروبا، وخروجها من مظلةِ الفلسفة الجامعة. وبصفة خاصة حظيت العلوم المجتمعية باهتمام خاص كنتيجة للحركة الإنسانية[٢٨] التي انتشرت في أوروبا. ومع هذا لا بد من الاعتراف أنَّ الاقتصاد طول تلك الفترة لم يكن له ناطقون باسمه متخصصون فيه.

ثانيًا: ظهور حركة الإصلاح الديني وصعود التيار البروتستانتي في مواجهة الكنيسة التي توغلت وبلغت سلطتها مبلغًا عظيمًا في عصر الإقطاع وما بعده، كان لها صدى مباشر وعميق ولكنه بعيد زمنيًّا في نفوس التجار المسيحيين الذين كانوا يحرِّمون على أنفسهم الفائدة تبعًا لتعاليم الكنيسة، فمثل هذه الحملات على الكنيسة أكسبت الناسَ مرونة في الخروج عن تعاليمها في سبيل المصلحة. فمثلًا، كان الملك "هنري" الثامن متزوجًا من الملكة "كاثرين" التي تنتسب إلى حكَّام إسبانيا في الغرب. فلمَّا تأخَّرَ إنجابُها أراد أن يتزوج غيرها، فلجأ لبابا روما ليلغي هذه الزيجة، لكنَّ البابا رفضَ حتى لا يخسر علاقته بأباطرة إسبانيا، فلم يجد هنري بدًّا من الخروج على الكنيسة والبابا وتنصيب نفسه رأسًا دينيًّا

---

٢٧ - التاريخ الاقتصادي العالمي.

٢٨ - حركة فكرية ظهرت في عصر النهضة اهتمت بالعلوم والآداب وإحياء التراث الإغريقي والروماني الكلاسيكي، والاهتمام بالإنسان وتثقيفه.

في إنجلترا، وعين مطرانًا جديدًا للكنيسة الإنجليزية، وقام هذا الأخير بإلغاء زواج الملك من الملكة كاثرين، وزوَّجه غيرها.

يبدو أن ما حدث في إنجلترا صدى واضح جدًّا لحركة الإصلاح التي بدأت من ألمانيا. ومن هنا صار الخروج على الكنيسة سعيًا للمصلحة أمرًا مستساغًا عند الناس، ولا سيما طبقة التجار التي لا يوقفها عن جمع الثروة شيء. ففي الفترة التي احترم فيها المسيحيون تعاليم الكنيسة وامتنعوا عن أخذ الفائدة ووافقهم في هذا الشرقيون المسلمون، كانت النتيجة المباشرة لهذا أن فرغَ الميدان للتجار اليهود الذين انتهزوا الفرصةَ وصاروا أكبر المقرضين والممولين.

ثالثًا: استفحل نفوذُ التجار حتى زاحموا سادة الإقطاعيات الأرستقراطيين. لقد كان الأرستقراطيون أصحاب أراضٍ وفُرسانًا، يرون في التجارة وغيرها من سُبُلِ الكسبِ نزولًا عن مكانتهم العظيمة وتلطيخًا لدمائهم النبيلة، وهذا ما أفسح المجالَ للطبقة الجديدة أن تتعاظم، فزاد عدد التجار وصاروا هم أعلام تلك الفترة وقادتها، وحرصًا على مصالحهم دفعوا الضرائب للملوك وأغنوهم حتى تزاوجت التجارة بالسلطة، وعُبِّدت الطرق لرأسمالية تجارية يوشك أن تبتلع أوروبا.

رابعًا: أدَّى اكتشافُ العالم الجديد إلى إغراق أوروبا الأيبيرية[٢٩] بالذهب والفضةِ والعبيد، وهو أمرٌ سَحَرَ عقولَ التجار وأدى بصورةٍ مباشرة إلى إحداث تضخم جامح في الممالك الغربية في أورورباء فقد

٢٩ – شبه الجزيرة الأيبيرية هي أقصى الجزء الجنوبي الغربي من أوروبا، وفيها كانت الأندلس المسلمة والبرتغال وليون وقشتالة، وكلها ممالك، أما الآن فيها أسبانيا والبرتغال.

أدَّى نهب ثروات إمبراطوريتي الأزتك[٣٠] والإنكا[٣١] إلى ثراءٍ فاحشٍ وسريع، هذا فضلًا عن اكتشاف مناجم وجبال المعادن النفيسة. ولعل هذا التضخم هو الذي قتل قدرة ممالك الغرب الأوروبي على منافسة باقي أوروبا، وجعلهم يتخلَّفون على المستوى العالمي إذا قورنوا بممالك الشمال الأوروبي التي كانت أقل منها بكثير في الماضي. ومراقبة التضخم الذي حدث بسبب غزارة المعدنين يمكن أن تعده ظهورًا مبكرًا لنظرية كمية النقود. وهي النظرية التي تقضي بوجود علاقة طردية بين كمية النقود المتداولة في المجتمع وبين معدل الأسعار.

خامسًا: بتطور التجارة واتساعها تطورت المعاملات بالذهب والفضة وانتشرت فكرة الصكوك التي تنوب عن المعدنين، وصارت تلك الصكوك تتمايز في جدارتها حسب الجهة المصدرة لها، ومن هنا لمعت أسر تجارية معينة كانت ذات صيت وشأن حازت قبول الجميع، فكانت تمارس التجارة وفي الوقت ذاته تمارس إصدار تلك الصكوك، وبمرور الوقت صار لها نشاط مصرفي، فبجانب إصدار الصكوك مارست عمليات الإيداع والإقراض والتأمين البحري، ومن أشهر الأسر التي مارست هذا النشاط أسرة "دي ميدتشي" في فلورنسا.

---

٣٠ - حضارة وادي المكسيك القديمة، قبل أن تتعرض للغزو والنهب والمذابح على أيدي الأوربيين.

٣١ - إمبراطورية قديمة للشعوب الأصلية قامت في أقصى غرب أمريكا الجنوبية، على أراضي بيرو والإكوادور وبوليفيا وتشيلي.



كوزيمو دي ميديتشي، أهم رؤوس العائلة في أوج شهرتها

سادسًا: ظهور الشركات الكبرى التي تمثل تطلعات الدول الإمبريالية والهيمنة على سوق الموارد والخامات وعلى البحار أيضًا، كشركة الهند الشرقية وشركة الهند الغربية.

فقد استفادت البرتغال استفادة خيالية عندما جعلت مسار تجارتها مع الهند بحريًّا بالكامل، حيث انخفضت التكلفة لبعض المنتجات بنسبة تتعدى ٨٠٪[٣٢]، وهذا الانخفاض احتفظت به البرتغال كأرباح وأبقت الأسعار كما هي. على أثر هذه الاحتكارات المربحة سعت بريطانيا وهولندا إلى إنشاء تلك الشركات العملاقة التي ذكرناها. وقد نجحت

٣٢ - ذكر روبرت سي آلان، في كتابه (التاريخ الاقتصادي العالمي) أنَّ نسبة الانخفاض في تكلفة الفلفل مثلًا بلغت ٨٥٪.

هاتان الشركتان في إقامة مستعمرات اقتصادية ضخمة في آسيا على حساب البرتغال[٣٣]. وهذه الشركات شغل وظائفها رجال الدولة الكبار، وهم الذين كتبوا في الاقتصاد في تلك الفترة، وكل كتاباتهم لا تعدو كونها تبريرًا لأنشطة تلك الشركات، ومن أمثلة هؤلاء: توماس مون الذي أَلَّفَ كتابه "كنز إنجلترا في التجارة الخارجية"، والذي كان الشعار الأساسي في التوجه الاقتصادي في إنجلترا بصفةٍ خاصة وباقي بلدان أوروبا بصفةٍ عامة. هذا التوجه الذي أهمل التجارة الداخلية تمامًا وركز على التجارة مع العالم الخارجي.

هذه الملامح الست امتزجت معًا وشكَّلت مذهبًا اقتصاديًّا كان هو السائد في تلك القرون يسمى مذهب التجار أو الميركنتيليزم، وهو أساس الرأسمالية التجارية التي توحَّشت بعد ذلك. وتوجهات هذه المدرسة الفكرية هي:

- أن الثروة تقاس برصيد الذهب والفضة، سواء على مستوى الفرد أو الدولة. وهذا الفهم الخاطئ كان أحد نتائج استخراج الذهب والفضة من العالم الجديد بكميات ليس لها سابقة كما ذكرنا. وهو فهم خاطئ بالكلية سيتم تعديله بعد ذلك عندما يستوي علم الاقتصاد. فالنقود ليست من الموارد الاقتصادية، وليست إلَّا وسيلة لاقتطاع جزء من الموارد. أي أنَّها حقٌّ على الموارد وليست موردًا. فلو حُبِستَ في بيت ملآن بالذهب ستموت من الجوع ولن تنفعك النقود، لأنها ليست موردًا يشبع حاجتك، بل هي وسيلة لو كنتَ حرًّا ستشتري بها ما تأكله.

---

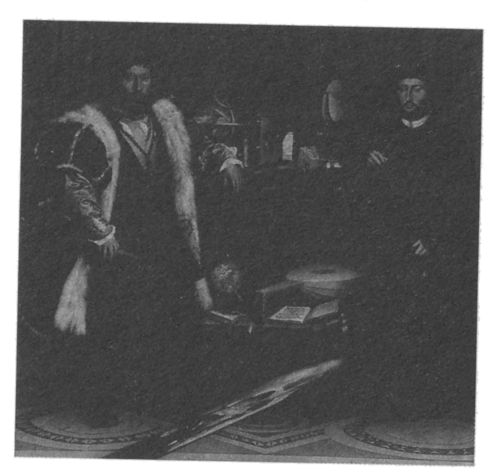
٣٣ - بعدما هزمت شركة الهند الشرقية الإنجليزية البرتغاليين في معركة سوالي البحرية عام ١٦١٢م أسست مواقع تجارية محصنة في (سورات) و(مدراس) و(بومباي) و(كلكتا).

- كنتيجة لهذه الفكرة السابقة، فإن فكرَ هذه المدرسة يستهدفُ توجيهَ الذهب والفضة إلى الداخل لا إلى الخارج، وعلى هذا الأساس فإن العملية التجارية لا بد أن تحقق ميزانًا تجاريًّا موجبًا؛ أي يكون التصدير أكبر من الاستيراد، فيحصِل فائضًا لصالح الدولة، وهذا الفائض يتم تحصيله ذهبًا. وهذه الفكرة مرَّت بثلاثة أطوار: إذ كانت تطبق على كل صفقةٍ على حدة، يعني أن تكون الدولة حريصة في كل صفقة مع دولةٍ أخرى، على أن تكون قيمة صادراتها في الصفقة أكبر من قيمة وارداتها، وتحصل على الفارق ذهبًا، ثم صارت تُطبق على إجمالي المبادلات مع دولةٍ ما، فلا يهم ميزان كل صفقة على حدة، بل المهم هو الميزان لكافة الصفقات مع دولةٍ ما، فلو كانت بعض الصفقات تحقق ميزانًا سالبًا فلا يهم طالما أن مجموع الصفقات مع هذه الدولة يحقق ميزانًا تجاريًّا موجبًا، فتكون المحصلة النهائية للمعاملات مع هذه الدولة هي أنَّ إجمالي البضاعة المصدَّرة أكبر من إجمالي البضاعة المستوردة، وهذا الفارق يُسدَّد ذهبًا، ثم توسعت هذه الفكرة فصارت تطبق على المبادلات التي تحصل مع العالم الخارجي كله، فلا يهم إن كان الميزان التجاري مع بعض الدول سالبًا طالما كان الميزان التجاري مع كافة الدول التي يتم التعامل معها موجبًا. وهذا الحرص على عدم التفريط في الذهب والفضة وجمع أكبر كمية ممكنة منهما هو الأساس لفكرة الحواجز الجمركية والقيود، فكل دولة في سعيها لتعظيم صادراتها وتقليص وارداتها تقوم بفرض ضرائب جمركية ضخمة.

- وأخيرًا لأن التجار كانوا هم أسياد هذا العصر، وهم الذين ينفقون على الدول والممالك لا العكس، فإنَّ الاحتكار كان أهم ما ميَّز فكر هذا المذهب، وكانوا يرون فيه سببًا لنمو التجارة والمبادلات! وبالطبع لا يهم

أصحاب هذا المذهب السعر العادل ولا الأجور، وقد حال بين التجار والعمال المستحقين للأجور مسافات كبيرة بقدر اتساع تلك التجارات.

كانَ هذا العصر ملكًا للتجار، وتطورت فيه التجارةُ تطورًا ملفتًا، وتبعا لهذا التطور احتاج التجارُ إلى أسس في إدارة تلك التجارة المتنامية وبعض المعارف المفيدة التي تسهل تنسيق وعرض تلك العمليات الضخمة، وقد أحسنَ جيري بروتون كثيرًا عندما افتتح كتابه عن عصر النهضة بلوحة الفنان هانز هولباين[٣٤] "السفيران" معتبرًا أنها تلخص كل عناصر عصر النهضة، ونحن هنا نذكر أنَّ تلك اللوحة الدقيقة تضمنت رسمًا لكتاب إرشادي لممارسة التجارة وحساب الربح والخسارة، وهذا يدلُّ على أنك لو أردت أن تختزل تلك القرون في رموز بسيطة فإنَّك ستكون مضطرًّا لذكر التجارة كأحد أهم أركان ذلك العصر. فهو بامتياز؛ عصرُ التُّجَّار.



لوحة السفيران للفنان الألماني هانز هولباين

---

٣٤ - Hans Holbein هو رسام ألماني مشهور تأثر بالحركة الإنسانبية وله إنتاج فني سخي (١٤٩٧-١٥٤٣م).

الفصل الرابع
الجميلة والوحش

تكوَّنَ القرنُ الثامن عشر من سنين كارثيةٍ على فرنسا، بالقدر الذي أشعل البلاد بثورةٍ عظيمةٍ في نهايته حجزت مساحةً كبيرةً من ذاكرة العالم حتى يومنا هذا بما تسببت فيه من عنفٍ ودماء.

شهد هذا القرن صعود قوى أوروبية جديدة، واستفحال قوى أخرى كانت موجودة بالفعل، وكانت فرنسا إحدى الدول القوية ذات النفوذ التي شاركت غيرها من القوى واقتسمت العالم معهم. ومن أجل أن تحافظ فرنسا على هذا الوجود دخلت المملكة في سلسلة من الحروب جرَّت عليها سلسلة من القروض الضخمة. فقد كانت فرنسا بحاجة إلى وجود عسكري قوي في القارة نفسها ووراء المحيط في اليابسة الأمريكية.

ولمَّا كانت السياسة المالية للمملكة في تلك الفترة هي الأسوأ على الإطلاق، بسبب خضوع العرش لسلطة مطلقة لا تهتم حتى بآراء مستشاري البلاط الذين يتم اختيارهم بعناية، فإنَّ تلك الديون لم تُستغلَّ بالشكل الذي يضمن لفرنسا القدرة على إصلاح الحال ورد القروض،

بل ظلَّت المملكة تنجرف في سيلٍ من الديون وسوء الإدارة حتى تأثرت معايش الناس تأثرًا بالغًا.

في العقد الذي نشرت فيه الروائية الفرنسية غابرييل سوزان دي فيلنوف حكايتها الخيالية الخالدة "الجميلة والوحش" كان عرش فرنسا يخضع للويس الرابع عشر (١٦٤٣-١٧١٥ م) وكان ملكًا شديد الزهو بنفسه وهو صاحب المقولة الشهيرة "أنا الدولة"[٣٥] ولم يبلغ بعد السابعة عشر من عمره! وبما أنه هو الدولة فإن هذه العنجهية أراد أن يصبغ بها المملكة أيضًا أمام منافسيها في أوروبا، بجعلها القوة الأعظم في يابسة القارة العجوز. وبالتالي كان لزامًا عليه أن يسابق بمملكته إلى مراكز الثروات والتجارات والهيمنة على الجزر والأراضي وراء المحيطات.

وكانت بريطانيا سبقته وصارت عُظمى وسيطرت على كثيرٍ من بقاع الأرض، كما لاحت في الأفق قوى جديدة لها طموح داخل أوروبا مثل بروسيا والنمسا وروسيا. الأمر الذي أسفر في النهاية في عهد لويس الخامس عشر عن حربٍ طاحنة اشتركت فيها تلك الدول التي ذكرتها مع غيرها من باقي دويلات وممالك أوروبا، وكان حلفاء فرنسا فيها النمسا وروسيا، وكان هدف لويس الخامس عشر الرئيس من تلك الحرب الحفاظ على تواجد فرنسا في أمريكا الشمالية.

على غير المراد أتت حرب السبعة أعوام[٣٦] على فرنسا بالهزيمة وغيرها من النتائج السيئة، فقد ذاقت القوات الفرنسية أهوالًا على أيدي قوات بروسيا، كما دمَّرَ الأسطول البريطاني أسطولَ فرنسا في المحيط

٣٥ - L'État c'est moi يقال إن لويس الرابع عشر قالها أمام البرلمان.

٣٦ - حرب أوروبية درات رحاها عام ١٧٥٦ وانتهت بعد سبع سنوات، طرفها الأول فرنسا وروسيا والنمسا وطرفها الثاني بريطانيا وبروسيا وهانوفر، وشاركت بعض الدول الأخرى مثل البرتغال والسويد وسكسونيا.

الأطلسي والبحر المتوسط، وخسرت فرنسا وجودها في الهند وأمريكا الشمالية. وتقزَّمَ نفوذ المملكة بشكل كبير في عهد لويس الخامس عشر.

وبقدر ما ساءت الأحوال الخارجية للمملكة كانت الأمور الداخلية أشد سوءًا، فهذه الحروب التي خسرتها الدولة كانت ممولة بقروضٍ جرَّت أعباءً قاسية، حتى صار ٦٠٪ من عوائد الضرائب يُبتلع من خدمة الديون[٣٧]. لكنَّ الغطرسة الفرنسية المتوارثة جعلت الملك لا يستسلم للواقع ولا يلتفت لأنين شعبه، وفي إجراء غاية في العجب والغباء، أمر الملك ببناء أسطول جديد.

في العام ١٧٧٤ م تُوِّجَ لويس السادس عشر (١٧٧٤-١٧٨٩ م) وجلس على عرش مملكة منهكة، لكنه لم يشغله سوى الثأر من بريطانيا العظمى ورد الهيبة الفرنسية، لذلك فبعد أربعة أعوام فقط من تنصيبه أقحمَ المملكةَ في حربٍ جديدة. ففي العام ١٧٧٨ م أعلنت فرنسا مساعدتها العسكرية للمستعمرات البريطانية في أمريكا، والتي بدأت القتال من أجل استقلالها عن بريطانيا، ولأن فرنسا كانت أضعف من أن تشارك في حربٍ كهذه وحدها فإنَّها حالفت، يقول ويليام دويل[٣٨]: "وقادت فرنسا تحالفاً ضد بريطانيا المنعزلة التي حطمت نفوذ فرنسا في المحيط الأطلنطي، فلم تتمكن فرنسا بمفردها من إرسال جيوش لأمريكا لمساعدتها في حرب استقلالها عن بريطانيا، وحين استسلمت القوات البريطانية في يورك عام ١٧٨١ م كان النصر فرنسيًّا أكثر منه أمريكيًّا!"

لكنَّ فرنسا لم تحقق على أرض الواقع أيَّ مكاسب من تلك الحرب،

---

٣٧ - الثورة الفرنسية، ويليام دويل.

٣٨ - **William Doyle** مؤرخ بريطاني وأستاذ في جامعة بريستول، له إنتاج ثري جدًّا لتأريخ الثورة الفرنسية.

وحتى المستعمرات الأمريكية نفسها بعد الاستقلال لم تُظهِر أي ميلٍ إلى فرنسا، بل ظلت محتفظة بكافةِ الروابط التِّجارية مع بريطانيا. وبحلول عام ١٧٨٦م صارت الأوضاع المالية للملكة تنبئ بالإفلاس، فحتى هذه الحرب الأخيرة مولها لويس السادس عشر بقروضٍ جديدة. وفي ١٦ أغسطس ١٧٨٨م توقفت وزارة المالية عن التصديق على أي مدفوعات أو صرف أي أموال[٣٩]، معلنةً بهذا إفلاس المملكة وعجزها عن الوفاء بالتزماتها. هذه هي اللحظة التي ظلَّ لويس السادس عشر يؤجلها قدر المستطاع مذ تولى المُلك.

بقدر ما يحتوي عنوان حكاية "الجميلة والوحش" من تضاد فإنَّ تلك السنوات الوحشية سابقة الذكر يمكن أن نسردها من زاوية أخرى تبدو جميلة ومشعة بالرفاهية والفنون والاستمتاع بالحياة، فمن هذه الزاوية نتجت مدرسة اقتصادية مهمة، خصصنا لأجلها هذا الفصل.

في بلدة قريبةٍ من فرساي، في صيف عام ١٦٩٤م وُلدَ طفلٌ لمحامٍ من مُلاك الأراضي، درسَ هذا الطفلُ لَمَّا شبَّ الطبَّ والجراحة، ولبراعته ونبوغه ونسبه عُيِّن أمينًا لأكاديميةِ الجراحة، وبعد فترة أصبح "فرنسوا كيناي" طبيبًا خاصًّا للملك لويس الخامس عشر (١٧١٥-١٧٧٤م).

كانت فرنسا مختلفة تمامًا من قصر فرساي[٤٠]، وكان الأرستقراطيون الذين يخالطون الملك لا يرون إلَّا جمالًا وفنونًا، أمَّا ضرائب القروض التي موَّلت الحرب والجزء الوحشي من فرنسا فكان يعيشه الشعبُ التعيس وحده. وحتى تدرك كم كان التفاوت كبيرًا والواقع الفرنسي

---

٣٩ - ويليام دويل، مرجع سابق.
٤٠ - Le château de Versailles هو قصر من أشهر المنشآت الملكية في فرنسا كلها، شيده لويس الرابع عشر، وجعله مقرَّ الأسرة الملكية.

منقسم إلى واقعين، فإنَّ دوق أورليان[41] الذي كان ابن عمٍّ الملك، أعلن مرةً أنَّه لن يدفع أيَّ ضرائب للملكة إلَّا إن أحبَّ أن يدفع!

لم يكن في العالم مملكة تنافس فرنسا في تلك اللامساواة وفي تلك الاستثناءات والامتيازات التي خُصصت لطبقة بعينها. ولعل مشهد دهس الماركيز بعربته وخيوله للطفل الصغير بلا إحساسٍ بأي ذنب كما صوره ديكنز في قصته للمدينتين، خيرُ تصوير لهذه الطبقية المجحفة.

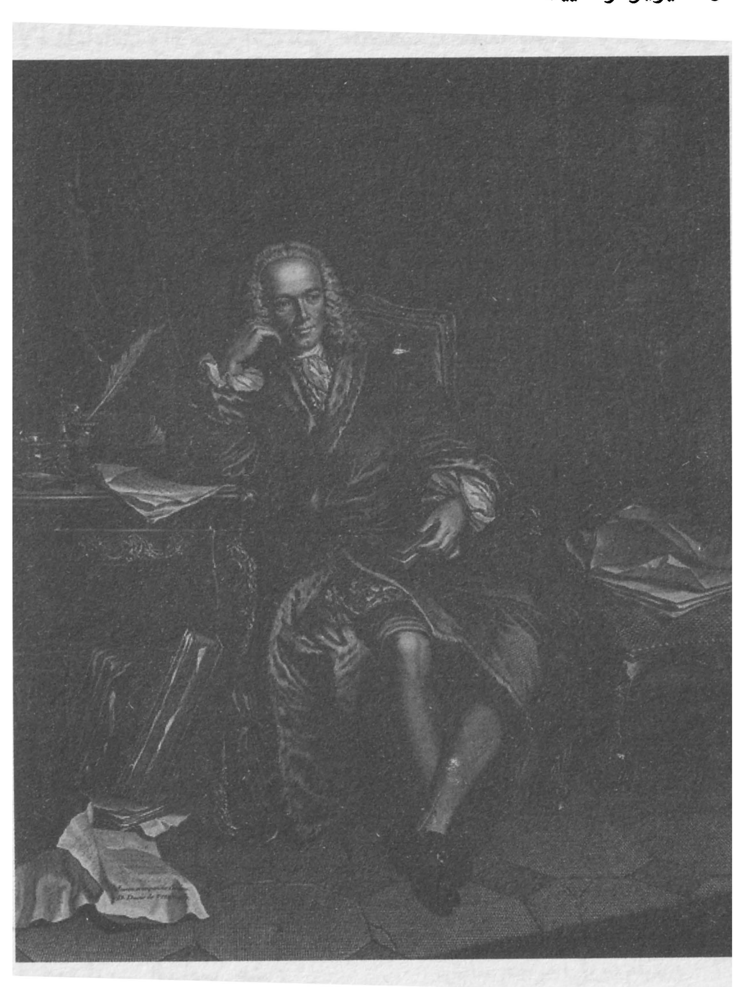
كان فرنسوا كيناي واحدًا من الأرستقراطيين المخالطين للملك، المهتمين بالعلم والآداب والفنون. وكانت هذه الطبقة تمتلك وحدها ما يقرب من ثلث أراضي فرنسا، فمن منظور اقتصادي تاريخي يمكننا وصفهم بأنهم كانوا إقطاعيين يعيشون في المدن ويُجبَى إليهم خراج أراضيهم الواسعة الغنية.

أدى ارتباط هذه الفئة بأراضيهم وزراعاتهم كمصدر ثرواتهم إلى تأسيس مذهبٍ فكريٍّ مغايرٍ تمامًا لمذهب الميركانتيلزم الذي كان سائدًا في كل أوروبا في تلك الفترة. حيث كان فرنسوا كيناي الذي قرر الخوض في الأفكار الاقتصادية بعد أن تجاوزت سنه الستين يجالسُ مجموعةً من الأرستقراطيين المهتمين بهذا النوع من المعرفة، مثل بيير صمويل دي نيمور (١٧٣٩-١٨١٧ م)[42]، وآن روبير جاك تيرجو (١٧٢٧-١٧٨١م)[43]، وفيكتور ريكيتي (١٧١٥-١٧٨٩ م). وأخذوا يناقشون بعض

---

٤١ - Orléans هي مدينة في وسط فرنسا.
٤٢ - كاتب ومفكر انضم لمجموعة كيناي "الاقتصاديين" وكان ذائع الصيت، له كتابات مهمة في الفكر الاقتصادي الفيزيوقراطي، كما تولى مناصب حكومية في عهد لويس السادس عشر.
٤٣ - سياسي فرنسي كبير في القرن الثامن عشر، شغل منصب مستشار في البرلمان الفرنسي، كما عُيِّن وزيرًا للمالية في عهد لويس السادس عشر.

الأفكار التي أخرجت في النهاية المذهب الذي أطلق عليه المؤرخون "الفيزيوقراط" أو "الطبيعي" وصارت هذه المجموعة تُعرف بالطبيعيين أو الفيزيوقراطيين.



فرنسوا كيناي

تحت شعار "الزراعة والرعي هما ثديا فرنسا" حاول هؤلاء الأرستقراطيون أن يواجهوا تمدد الرأسمالية التجارية التي اجتاحت أوروبا، ووجدت لنفسها أوتادًا في النصف الغربي منها. سمُّوا أنفسهم "اقتصاديين" كأول مجموعة في التاريخ تحمل هذا الاسم، ثم اعتبروا أنفسهم ناطقين باسم الإصلاح. وكانوا يرون أنهم بامتيازاتهم يمثلون العنصر الرئيس في الحفاظ على التقاليد والارتقاء بالمملكة، وهذه النزعة كانت تقاوم في داخلهم شعورًا قويًّا بأن مَلِكَهم وطبقتهم يسيرون في طريق الانهيار بشكلٍ ما. واختصارًا يمكن أن نعبر تعبيرًا موجزًا وشاملًا عن أفكارهم بأنهم كانوا يحاولون الإصلاح دون المساس بطبقتهم الشريفة؛ إذ هي أساسًا رأس الإصلاح. وأمَّا التعاليم الاقتصادية التي أنتجتها عقولهم الناعمة فيمكن توضيحها في النقاط التالية:

أولا: احترام القانون الطبيعي المقدس، وهذا المبدأ لا أستطيع أن أقرأ عنه أو أتناوله بأي شكلٍ إلَّا وأنا أرى بمخيلتي هؤلاء الأرستقراطيين جالسين معًا في فرساي تحوطهم طبيعة خلابة ويقول بعضهم: إنَّ هذا العالم قد خضع لقوانين طبيعية تحكمه، وعلينا إذا أردنا أن نتقدم ونرتقي أن ننسجم مع هذه القوانين، الناسُ ليسوا سواءً، إنما هم طبقات، وتلك التجارة التي تنامت وتوحشت ليست نشاطًا يوافق القانون الطبيعي، إنَّها لا تضيف للعالم شيئًا ماديًّا حقيقيًّا جديدًا، بل هي قائمة على الاستبدال فقط، دون خلقٍ أو إبداع. ومثلها الحرف والصناعات، فهي أنشطة تأخذ المواد وتحولها أو تضيف إليها موادًا أخرى غيرها، لكنها لا تخرج إنتاجًا حقيقيًّا، كل هذه الأنشطة لا تضيف إلى عالمنا شيئًا لم يكن موجودًا. فقط وحدها الزراعة هي التي تخلق وتضيف إلى العالم ما ليس فيه، لأنها تتسق مع الطبيعة، بل هي عملية تشاركنا

فيها الطبيعة بذاتها، نعم؛ الزراعة هي النشاط الوحيد الذي يحقق إنتاجًا إضافيًّا صافيًا، وتكون المخرجات منه أكبر من المدخلات فيه، وهذا يتسق مع كوننا نحن الطبقة الرفيعة، ملاك تلك الأراضي المزروعة، فنحن أداة التقدم.

هذا هو المفهوم الأول للفيزيوقراطيين، وهو في مجمله لا يعدو كونه تبريرًا لامتيازاتهم وملكياتهم من ناحية ومن ناحية أخرى هجومًا وسخطًا على الرأسمالية التجارية التي أفرزت للمجتمع الأوروبي شخصيات ثرية لا تنتمي في الأصل إلى طبقة الأرستقراطيين.

وأمَّا اعتبارهم أنَّ الزراعة هي النشاط الوحيد المنتج بحق، فهذا مبني على فهمهم الخاطئ للإنتاج أصلًا، فهم اعتبروا أنَّ الإنتاج لا بد أن يكون إضافةً مادية جديدة للواقع (خلق مادة)، وهم بذلك لا يأخذون في الاعتبار مفهوم الحاجة وإشباعها، فالمُنتَج يمكن أن يكون ماديًّا جديدًا أو ماديًّا محوَّلًا مصنَّعًا ويمكن أن يكون خدمةً غير مادية أصلًا، المهم أنه يشبعُ حاجةً معينة (خلق منفعة).

الإنتاج بمفهومه الواسع يعني خلقَ منفعة، ولا يقتصر معناه على خلق مادة.

على كلٍّ شَكَّلَ هذا المبدأ القاعدة الأساسية التي بُنيت عليها المبادئ الأخرى للمذهب.

ثانيًا: بما أنَّ الزراعة هي النشاط الوحيد الذي يحقق إنتاجًا صافيًا، فإنَّ الضرائب لا بد أن توجه بشكلٍ مباشر إلى النشاط الزراعي دون غيره من الأنشطة، لأنها لو وجهت إلى تاجرٍ أو صانعٍ ستحول بشكلٍ غير مباشر إلى المزارع مرة أخرى، ففي النهاية لا يملك التجار والصناع

-من وجهة نظر هذا النموذج- أيَّ فوائض يدفعون منها الضرائب، فهم لا إنتاج صافٍ لهم!

ثالثًا: على عكس مذهبِ التجار الذي يرى أنَّ ثروةَ الأمَّة تقاس بما لديها من الذهب والفضة، رأى الفيزيوقراطيون أنَّ ثروةَ الأمة تقاس بما تحققه من ناتجٍ صافٍ، وهذا أهم إسهام لهذه المدرسة، وفي نظري هو أهم إسهام في كل التاريخ الذي سبقَ تلك الفترة فيما يخص الفكر الاقتصادي، ورغم أنَّهم أقروه دفاعًا عن الزراعة التي تمثلهم هم وتجعلهم رأس عجلة التقدم، فإنهم أحسنوا كثيرًا بإقراره وسبقوا زمنهم بمعرفته. وفكرة الناتج الصافي هذه ستشكِّلُ جُلَّ الاقتصاد الكلي الذي سيعرفه العالم فيما بعد. وهنا تحديدًا أضع الإطراء الرقيق الذي قاله كينيث جالبريث في حق الفيزيوقراطيين في موضعٍ آخر: "وكان الفيزيوقراطيون رجالًا جديرين بالاحترام، وهكذا كان نظامهم من نواحٍ كثيرة..."[٤٤].

رابعًا: بالطبع رأى الفيزيوقراطيون أنَّ مما يخالف القانون الطبيعي ويعرقل آليته، فرض الجمارك وتقنين الاحتكار وتوجيه الأنشطة، فكل هذه الإجراءات تعدُّ تدخلًا سافرًا في أمورٍ يجب على الإنسان العاقل أن يتركها بلا تدخل، وهنا جاءت أشهر عبارة اقتصادية في هذا القرن "دعه يعمل، دعه يمر"[٤٥]، والتي ترمز إلى عدم التدخل في الأنشطة الاقتصادية على أي مستوى، وهذا المبدأ يعدُّ هدمًا لركنٍ مهمٍّ في النظرة الميركانتيلية السائدة التي كانت ترى ضرورة التدخل ووضع القيود

---

٤٤ - الماضي صورة الحاضر، تاريخ الفكر الاقتصادي.

٤٥ - Laissez faire | laissez passer: قاعدة فيزيوقراطية فرنسية مشهورة في التاريخ الاقتصادي توجه بعدم تدخل الدولة في النشاط الاقتصادي.

والجمارك على حركة التجارة للحفاظ على تدفق الذهب إلى خزائن البلاد.

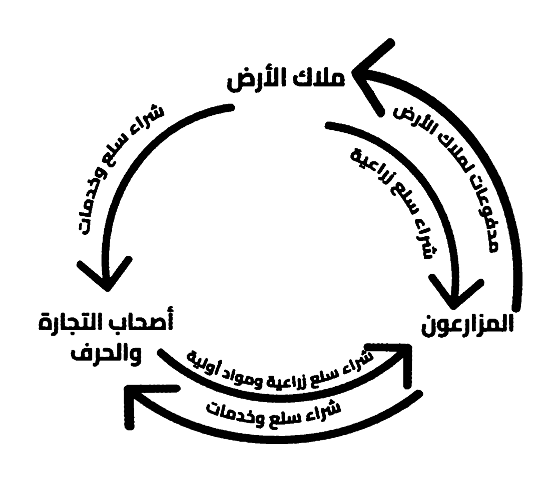
خامسًا: قسَّم الفيزيوقراطيون المجتمع إلى ثلاث طبقات من حيث المساهمة في ثروة الأمة، فجعلوا على رأس المجتمع طبقة الأرستقراطيين ملاك الأراضي، وتحتهم طبقة الزراع العاملين في الأراضي، ثم أخيرًا طبقة التجار والصناع، وأطلقوا على هذه الطبقة الأخيرة الطبقة العقيمة.

مرةً أخرى يضعون تبريرًا اقتصاديًّا يجعلهم على رأس طبقات المجتمع ومستحقين لامتيازاتهم ومخصصاتهم.

سادسًا: وكان من أهم الإسهامات التي لفتت أنظار الكثير من الاقتصاديين المتأخرين سواء بالإشادة أو الاستخفاف، الجدول الاقتصادري الذي صممه فرنسوا كيناي، والذي يبين دورة الإنفاق وإحداث الفائض بين طبقات المجتمع الثلاث، بحيث تتدفقُ النقود إلى المزارعين. وهذا التصميم يمثلُ انجازًا حقيقيًّا كفكرة في حد ذاتها، أما ما حواه التصميم فهو تعبيرٌ سطحيٌّ عن فكر الفيزيوقراط، لكن فكرة تصميم جدول يبين دورةً اقتصاديةً ما، كانت فتحًا عظيمًا، وعلى غرار هذا الجدول ستصمم الكثير من الجداول في الاقتصاد وباقي العلوم المحتكة به فيما بعد. وقد وصف فيكتور ريكيتي هذا الجدول قائلًا: وجدتُ منذ بدء العالم ثلاثة اختراعات عظيمة وفَّرت بشكل رئيس الاستقرار للمجتمعات السياسية، وهي اختراعات بعيدة عن كثيرٍ غيرها من الاختراعات التي أثْرت هذه المجتمعات وجمَّلَتْها. كان أولها اختراع الكتابة التي أعطت الطبيعة البشرية قوة نقل قوانينها وعقودها وحولياتها واكتشافاتها دون تغيير. وكان ثانيها اختراع المال الذي يشد العلاقات بين المجتمعات المتحضرة إلى بعضها بعضًا. وثالثها هو الجدول

الاقتصادي الذي جاء نتيجة للاختراعين السابقين والذي بدوره يتمم الاختراعين السابقين ويهذب هدفهما، وهو أعظم اكتشاف في عصرنا، لكن أحفادنا سيحصدون فوائده[٤٦].

لا أبالغ إن قلتُ إن هذا أكذب إطراء علمي قرأته في حياتي.



الجدول الاقتصادي الذي صممه فرانسوا كيناي (1758)

هذه هي المبادئ العامة لفكر الفيزيوقراطيين الاقتصادي، وثمةُ مفهوم عميق في فكرة الطبيعة والناتج الصافي الذي تحققه الزراعة لا بد لنا من ذكره هنا. هؤلاء الأرستقراطيون رأوا أنَّ الزراعةَ هي النشاطُ الوحيدُ الذي تشاركهم فيه الطبيعة، وبالتالي فإنها تكافئهم بفائض صافٍ عن المدخلات، هذا الصافي الفائض يكون من حق ملَّاك الأرض دون غيرهم ممن شاركوا في العملية بصورة مباشرة كالمزارعين

٤٦ - ثروة الأمم، آدم سميث.

العمال أو بصورة غير مباشرة كالتجار أو الحرفيين. وهذا المفهوم مهم جدًّا وسيشغلُ عقلَ ماركس فيما بعد عندما يرى نفس المفهوم لكن بدلًا من ملاك الأرض ملاك أدوات الإنتاج (رأس المال).

أمَّا الآن فعلينا أن نرى فرنسا الجميلة هذه وفرنسا الوحش التي ذكرناها في مطلع الفصل، وما الذي حصَلَ في الواقع عندما التقى الوجهان...

نتيجة لفشل الإدارة المالية للمملكة، منذ لويس الرابع عشر وحتى بدايات الثُلُث الأخير من القرن الثامن عشر، ونتيجة لقرب أصحاب المذهب الفيزيوقراطي من البلاط الملكي فإنَّ أفكارهم في الإصلاح لاقت استحسانًا من الإدارة على مختلف مستوياتها، ولكن بمجرد إسقاط هذه الأفكار على أرض الواقع، اصطدمت بصخور جعلت تنفيذها من المعجزات، فهواية فرض الضرائب التي كانت تمارسها كلُّ الهيئات الرسمية كانت أوغل من أن تُستأصَل، إضافة إلى أنَّ الدولة نفسها لا تتحمل الاستغناء عن أي جزء من تلك الضرائب ولو لفترة محددة. وفرنسا من الداخل كانت مغلولة بالكثير من الاحتكارات التي كان يمنحها الملك كالكلمة الطيبة، حتى بلغت الاحتكارات الكباري الصغيرة والطرق، فحتى تعبر ذالك الطريق، عليك دفعُ مبلغ من المال لأحدٍ ما، فقد منحه الملك حق احتكاره والاستفادة منه لنفسه!

وعلى جانب آخر وقف التجار وكبارُ أصحاب الحرف معارضين لأي تغييرات تطرأ على القوانين والإجراءات المنظِّمة لأنشطتهم.

بناء على ما سبق فإن الإصلاحات الجديدة طُبِّقت فقط على القطاعات التي لا قدرة لها على الاعتراض، أي الفقراء، وهم أنفسهم الذين كانوا

يعانون ويلات الإجراءات القديمة، وهم أنفسهم الذين يرون أن المملكة تمص دماءهم منذ ١٧٢٠م لتتجنب إعلان إفلاسها!

طُبِّق الإصلاح الفيزيوقراطي الذي يوجب إلغاء كافة القواعد الإجرائية المنظمة لتجارة الحبوب، بهدف تحرير سعرها الذي إذا ارتفع سيكون حافزًا لزيادة الإنتاج، وإذا زاد الإنتاج من الحبوب هذا يعني زيادةً في الإنتاج الصافي الحقيقي للدولة وإحداث فوائض مالية، وعندها يُكلل المذهب الفيزيوقراطي بالفوز بلقب المنقذ الحقيقي لتلك المملكة المنهكة.

لكنَّ المفاجأة أنَّ رفع يد الدولة عن توجيه تجارة الحبوب أدى بشكلٍ مباشر إلى هروبها إلى الخارج وحدوث شُحٍّ في الخبز، ثم زاد الطينَ بلةً تعرُّضُ البلاد في نفس الفترة لمناخ سيئ أضرَّ بالزراعة ضررًا بالغًا، وفرغت الأسواق وانفلت عقال الأسعار وبلغت ما لم تبلغه من قبل واشتعلت الشوارع باحتجاجات الحبوب والطحين.

ثم ساءت الأوضاعُ أكثر في العام ١٧٨٨م. يقول ويليام دويل: "وحين انهارت المحاصيل عام ١٧٨٨م بسبب قسوة الطقس، نتجت عن سياسة حرية التصدير في الأعوام السابقة حالة من النقص والشح الكلي وعدم وجود أي مخزون من الحبوب وتلاشى يقين كل مواطن عادي من عامةِ الشعب بأنَّ الملك هو حاميهم، بل زاد يقينهم على مدى جيل كامل بأنهم كانوا الضحية الوحيدة للتجارب الاقتصادية التي لم تضر أحدًا سواهم"(٤٧).

خذلت الطبيعة أصحاب المذهب الطبيعي، واجتاحت البلادَ عاصفةٌ ثلجية دمرت المحاصيل قبل حصادها، فشحَّت الأسواق وانهار الطلب، وانصرف ما تبقى منه إلى المنتجات الإنجليزية التي غزت فرنسا بعد

٤٧ - الثورة الفرنسية.

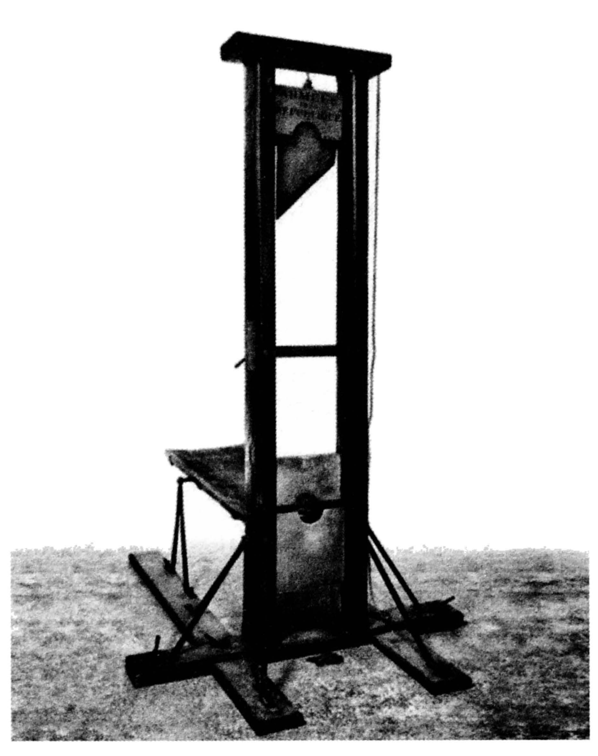
اتفاقية ١٧٨٦ م[٤٨]، وفشت البطالة وصار الحصول على الخبز حلمًا من أحلام البسطاء... ثم اندلعت الثورةُ الأشهر في تاريخ أوروبا في أمواج متلاحقة ضربت سواحل الأرستقراطيين بدايةً من العام ١٧٨٩ م. يقولُ توماس كارليل (١٧٩٥-١٨٨١ م)[٤٩] في كتابه (الثورة الفرنسية- تاريخ): "كانت فوضى لا يمكن وصفها في كل أنحاء البلاد تتلاطم في الداخل وفي الأعماق، وعبر تشققات السطح بدأ الدخان يتصاعد".

أنا لا أُحَمِّلُ الفيزيوقراطيين ذنبَ وصول البلاد إلى تلك الثورة العنيفة التي عرَّفَت العالم بالمقصلة، لكنني أزعم أن إصلاحاتهم كانت جزءًا من مرحلة من مراحل عدة، أدت في النهاية إلى ثورة سحقت ما كانوا يدافعون عنه.



٤٨ - اتفاقية قضت بفتح الأسواق الفرنسية للصناعات البريطانية مقابل دخول المحاصل الفرنسية إلى بريطانيا.

٤٩ - كاتب ومفكر ومؤرخ اسكتلندي ذائع الصيت، لاقت كتاباته رواجًا كبيرًا في القارة العجوز، له مؤلفات في الأدب والفلسفة والتاريخ. ويعتبر أحد رموز الحركة الأدبية والفكرية في العهد الفيكتوري.



المقصلة التي حصدت كثيرًا من الرؤوس في الثورة الفرنسية



اقتحام سجن الباستيل في ١٤ يوليو ١٧٨٩
خلال الثورة الفرنسية، برسم جان بيير لويس

الفصل الخامس
العجوز المجرمة

كان العالم أكثرَ اتزانًا واستقرارًا قبل القرن الخامس عشر منه في القرون التي تليه. والاستقرار العالمي يُعزى دائمًا إلى القوى العظمى التي تسيطر على مقاليد الأمور في أطراف اليابسة المأهولة، وهذه سُنَّةٌ من سنن كوكبنا البائس، فإذا كانت القوى المهيمنة على يابسته وبحاره قوى معتدلة تستوعبُ غيرها من الكيانات الأضعف وتشاركها، تنضر الأرض وتسكن أمواجُ البحار. وإذا وقعَ العالمُ في أسرِ قوى متغاشمة غبية لا ترى لغيرها الحقَّ في الحياة، تتزلزل الأرض وتهيجُ أمواج البحار.

في القرن الخامس عشر، هيمنت القوى الشرقية والشرق أوسطية على العالم، الصين والهند كانتا قوتين تجاريتين عظيمتين، والعثمانيون الذين ملكوا منطقة أوراسيا وأجزاء من الشرق الأوسط كانوا مُلكًا عظيمًا ثريًّا، ويُكملُ الصورة دولةُ المماليك في مصر، والشمال الإفريقي العربي الذي يمتد ليضع يدًا على شبه جزيرة أيبيريا في أقصى الغرب الأوروبي.

أما أوروبا فكانت كالمرأة التائهة ترجو نهاية النفق المظلم الذي طال واستطال، لكنَّ الجنوب الأوروبي المطل على البحر الأبيض لمعت فيه أضواء دويلات مستقلة ازدهرت وتاجرت مع إمبراطوريات الشرق فزاد ازدهارها بريقًا. كانت فلورنسا وجنوه والبندقية منارات أوروبية على السواحل الجنوبية في حين غشي الظلام باقي القارة، بالشكل الذي دفع كثيرًا من مؤرخي القرن التاسع عشر إلى عدِّ النهضة الأوروبية صناعة إيطالية محضة.

حتى إفريقيا جنوب الصحراء(٥٠)، ازدهرت فيها بعض الممالك المسلمة مثل مملكة مالي النفيسة التي وطأ سكانُها الذهبَ في خطواتهم، والتي ذُكرت بشيءٍ من الغموض في القصة التي أذاعها منسا موسى(٥١) في المماليك بأنها أول من أرسلت سفنًا للجانب الآخر من المحيط الأطلسي وبلغَ أهلُها الأمريكتين!

كانت البحار هادئة تشهد تجارةً واسعة بين كل تلك الأطراف الشرقية إضافة إلى دويلات إيطاليا وبعض ممالك الساحل الإفريقي الغربي، وكانت طرقٌ بريةٌ تصل بين الصين شرقًا وبين الشمال الإفريقي والبندقية غربًا.

بالطبع قامت حروبٌ بين تلك القوى، لكن الصفة الغالبة للجميع كانت تستوعب المشاركة، فحتى العثمانيون الذين استووا على القسطنطينية

---

٥٠ - هو الجزء ال‍إفريقي الشمالي، الذي يمتد من البحر الأحمر شرقًا إلى المحيط الأطلسي غربًا، ومن البحر الأبيض شمالًا حتى خط السافانا الذي يشق القارة عرضًا قاطعًا السودان وتشاد والنيجر ومالي. وتتعدى مساحة هذه الصحراء الكبرى ٩ ملايين كيلومتر مربع.

٥١ - أحد ملوك مملكة مالي في القرن الرابع عشر، وكلمة منسا لقب بمعنى ملك، وكانت له حِجَّة مشهورة مرَّ فيها على مصر بموكبه العظيم المُحمَّل بالذهب.

في ذلك القرن كانوا حريصين على التواصل مع أوروبا والتبادل التجاري، وبسببهم انتقلت كميةٌ هائلة من المعارف والعلوم إلى أوروبا؛ العجوز المسكينة التي تحاول استعادةَ وعيها. كما كانت دولة المماليك وهي قوة عالمية لا يستهان بها متحالفةً مع البندقية وبينهما مصالح تجارية مشتركة، إذ كانت التجارة التي تخرج من آسيا بحرًا وتمخرُ البحرَ الأحمر المملوكي ترسو في النهاية في ميناء البندقية ثم تدخل إلى أوروبا. وهكذا كانت حركة التجارة الهندية الأوروبية نافعةً للمماليك والبندقية. وأهم قاعدة سائدة آمَنَ بها كلُّ الشرقيين وقتها أنَّ البحر ليس ملكًا لأحد.

الحركة التجارية البحرية بين العرب والصين والهند كانت ضخمةً جدًّا وكان بحَّارة الأمم الثلاث وخاصةً العرب على دراية ملاحية ممتازة، لكن لم يزعم أحد أن المحيط الهندي ملكٌ له، وكانت سفن دويلات إيطاليا تمخر فيه وتتاجر كغيرها. وهنا يجب أن تعرف أنَّ العربَ أول من صمموا السفن ذات الصواري الثلاث التي غيرت شكل التجارة البحرية وأنَّ الصينيين هم أول من اكتشف البارود، ومع ذلك ظلت البحار هادئة سالمة.

في أواخر القرن الخامس عشر كانت إسبانيا والبرتغال تتطوران تطورًا كبيرًا وتنافسان دويلات إيطاليا في التجارة والثراء، واستطاعت المملكتان الوصول إلى سواحل الأمريكتين ثم إلى الشرق الأقصى من خلال تمويلِ رحلات بحرية ضخمة جدًّا. وفي حين كان التنافس بين المملكتين يُحلُّ بالمعاهدات وإعادة ترسيم العالم! كان تنافسهما مع القوى الأخرى التي كانت تسيطر على جُل تجارة البحار الشرقية في القرن الخامس عشر لا يُحَل إلَّا بالحروب.

بمجرد وصول البرتغاليين إلى الهند من طريق رأس الرجاء الصالح، أثارَ وجودهم عددًا من المشاكل في منطقة بحر العرب والسواحل الهندية الغربية والإفريقية الشرقية، وشرعوا في أعمال تخريبية ضد سفن المماليك وغيرها من القوى الشرقية، علاوةً على أنَّ التاج البرتغالي قرَّرَ استخدام هذا الطريق الجديد عوضًا عن المرور من البحر الأحمر، وبالتالي ستخسر دولةُ المماليك والبندقية المكاسب التي كانتا تحققانها.

بناء على ما سبق، شهدت العقود الأولى من القرن السادس عشر معارك بحرية بين البرتغال وبين القوى الشرقية، هدفها هو السيطرة على تجارة المحيط الهندي. في العام ١٥٠٨م نشبت معركةٌ بحريةٌ بين أسطول البرتغال وبين أسطول المماليك حول ميناء شاول الهندي، وانتصر المماليك وأغرقوا سفينة لورينسو دي ألميدا قائد الأسطول البرتغالي. وفي العام التالي جهزت البرتغال أسطولًا عظيمًا وحاربت في نفس المنطقة تقريبًا أسطولًا مشتركًا من المماليك والعثمانيين بمساعدات خفية[٥٢] من أحلافهم في البندقية، وانتهت المعركة بانتصار البرتغاليين.

كانت هذه نقطةً فاصلةً في التاريخ، إذ انتهت سيطرة القوى الشرقية على تجارة المحيط الهندي واستفحل نفوذ البرتغال البحري، وصار للغرب الأوروبي سطوةً على سواحل آسيا الجنوبية، وطريقًا للشرق لا يخضع للقوى المسلمة.

هكذا افتُتِح القرن السادس عشر بسيطرة البرتغال على غالب التجارة البحرية على حساب القوى الشرقية ودويلات إيطاليا. ويمكننا أخذ صورة استاتيكية عن الوضع الأوروبي في تلك الفترة كالتالي: البرتغال

---

٥٢ - أخفت البندقية مساعدتها للمماليك، حتى لا يُقال إنها ساعدت قوى مسلمة ضد البرتغال المسيحية.

أكبر قوة تجارية في البحار الشرقية، وإسبانيا ودويلات إيطاليا هم الأقوى اقتصاديًّا في تجارة المصنوعات، وأما إنجلترا فهي لا تعدو كونها مزرعةً لتربية الخراف[٥٣]، وفرنسا مملكة عظيمة لها هيبةٌ داخل القارة لكنها تتآكل من الداخل بسبب سوء الإدارة المالية لآل بوربون[٥٤]، وأخيرًا فهناك دولة صغيرة تتكون من مجموعة مقاطعات على الساحل الجنوبي لبحر الشمال تجاهد من أجل حصولها على الاستقلال من سلطان إسبانيا، تسمى "Holt land" أو أرض الخشب.

على مدار سنوات هذا القرن كانت ممالك إسبانيا والبرتغال هما الأكثر حظًّا وثراءً، فقد استغلوا سطوهم على الأمريكتين استغلالًا غشيمًا، وفي حين كانت البرتغال تتوسع في تجارة التوابل مع الشرق الآسيوي، ظلت إسبانيا تنهم من الذهب والفضة وراء المحيط، وطول النصف الأول من القرن السادس عشر لم يكن للإنجليز أسطولٌ يُذكر!

في العام ١٥٨١ م نجحت هولندا Holt land في الاستقلال، وهذا الاستقلال أعاد رسمَ تاريخ وجغرافيا العالم من جديد...

كان الهولنديون تجارًا متمرِّسين، فأرضهم في الأصل هي ميناء على بحر الشمال، كانوا يستغلونه بنقل الحبوب من دول البلطيق إلى بلجيكا وفرنسا وإنجلترا، لكن هولندا المستقلة تشكلت من مجموعة من المقاطعات على رأس كل منها تاجرٌ كبير في الغالب، وبسرعةٍ عجيبة وفي غفلةٍ من الأوروبيين، نمت التجارةُ الهولندية بمعدلات مذهلة في مطلع القرن

---

٥٣ - التاريخ الاقتصادي العالمي، روبرت سي آلن.

٥٤ - أحد أشهر العائلات الملكية في أوروبا، ملكت أجزاء كثيرة في أوروبا وعلى رأسها فرنسا، ومنها لويس الرابع عشر والخامس عشر والسادس عشر الذي قامت عليه الثورة الفرنسية ١٧٨٩.

السابع عشر، وانتشرت تجارتهم -التي كانت الرنجة عمادها- انتشارًا مُعجزًا، وصار التاجر الهولندي مضربًا للأمثال في القدرة على الكسب.

شكَّلَ الاستقلال ذاتيةً هولنديةً فريدة مُجِدَّةً لا تكدُ ولا تتعب ولا تهتم بالتنعُّم الأرستقراطي بقدر ما تهتم بعملية الإثراء ذاتها. وقد كانت الأرستقراطية الأوروبية في تلك الفترة تزدري هؤلاء الهولنديين الذين لا يعيشون إلَّا للعمل. وهذا الاختلاف في الذاتية الهولندية عن ذاتية الطبقات العليا في إنجلترا وفرنسا هو أحد أهم أسباب التفوق الهولندي وقتها.

في نفس الفترة إلتي كان الأسطول الهولندي فيها يتكاثر ويتضاعف، تطورت القدرات الإدارية والمصرفية الهولندية وصارت متفوقة بمسافة كبيرة عن باقي الأوروبيين المجاورين، وصارت أمستردام مركزًا مصرفيًّا مهمًّا، ففي العام ١٦٠٩م تأسس بنك أمستردام الذي استطاع أن يمنح فوائد تربو عن ضعفي المعدلات السائدة في سائر أوروبا!

بلغ أسطول هولندا الذي يحمل الحبوب في تلك الفترة ألف سفينة، وكانت تجارة الحبوب في هولندا تساوي ١٣ ضعفًا من نظيرتها في إنجلترا!

كان النصف الأول من القرن السابع عشر هولنديًّا بامتياز، وقد عظم الأسطول الهولندي فيه حتى صار أكبر من أسطولي البرتغال وإسبانيا معًا، وبدت هولندا هي القوى البحرية الأوروبية الجديدة التي تنافس البرتغال في سواحل القارة السمراء والمحيط الهندي، وأبحرت الأساطيل الهولندية إلى الأمريكتين واستحوذت على أراضٍ كثيرة على ساحل المحيط الأطلسي الأمريكي.

لاحظ أننا الآن نتكلم عن واقع عصر التجار الذي ذكرناه في الفصل

الثالث، كل هذا التضخم التِّجاري البحري يُعدُّ من نتاج الفكر التجاري (الميركانتيليزم) ويصب في بوتقته. فقد كان الهدف الأسمى لهذا الفكر هو التصدير ودعمه بكل وسيلة ممكنة، ومن أهم هذه الوسائل إقامة مستعمرات في بلدان بعيدة واحتكار حركة بضائعها بيعًا وشراءً.

أثارَ الازدهار الهولندي دهشةَ أوروبا الغربية رغم إنكار الأرستقراطية الإنجليزية والفرنسية لهذا الإنجاز، ففي النهاية لم يُطِق الأوروبيون الغربيون هذا التفوق الهولندي الساحق، وفي حين بدأت هولندا تناطح إسبانيا والبرتغال في السيطرة على البحار، عمدت إنجلترا إلى اللحاق بهولندا.

والآن تعالَ نرتب الصورة مرة أخرى لتلك الفترة: انهارت القوى الشرقية وتراجعت سيطرتها على البحار، وصارت السيطرة للأسطول البرتغالي وخصوصًا في السواحل الإفريقية ورأس الرجاء الصالح وبحر الهند وجزر الشرق الأقصى، وأمَّا إسبانيا فما زالت منكبَّةً على سرقة ثروات الأراضي الجديدة وراء المحيط الأطلسي، ثم صارت أساطيل الإمبراطورية الهولندية تجوب المحيطات لانتزاع السيطرة من البرتغال.

وبالفعل، خلال القرن السابع عشر استولى الهولنديون على جزر الملوك[٥٥] عام ١٦٠٥ م، وسيلان عام ١٦٥٨ م، وخلال العقدين الرابع والخامس تحديدًا استعمر الهولنديون جزر إنتاج السكر في الكاريبي، وصناعة السكر هذه كانت وقتها تشبه صناعة استخراج البترول اليوم، وأنشأوا مدينةَ نيويورك عام ١٦٢٤ م، وأنشأوا مستعمرة كيب في جنوب إفريقيا عام ١٦٥٢ م... حتى صارت هولندا إمبراطوريةً بحريةً عظيمةً على حساب البرتغال.

٥٥ - مجموعة جزر في أقصى الشرق، تتبع إندونيسيا اليوم.

وكما شهد النصف الأول من القرن السابع عشر هذا التفوق الهولندي، شهد أيضًا سطوع شمس الإنجليز على حساب ما تبقى من الهيمنة الإسبانية والبرتغالية، فقد انتصر الإنجليز على الأسطول الإسباني بعد سلسلة معارك بحرية انتهت بكسر شوكة الأرمادا[٥٦] الإسبانية في مطلع القرن. ثم تمكن الإنجليز من هزيمة البرتغاليين في معركة سوالي عام ١٦١٢م، وهذا الصعود الإنجليزي أدى بشكلٍ حتميٍّ إلى الاصطدام بهولندا. فكما ذكرت، أولئك الأوربيون لهم ذاتيةٌ فردية لا تقبل إلَّا المصلحة الخاصة.



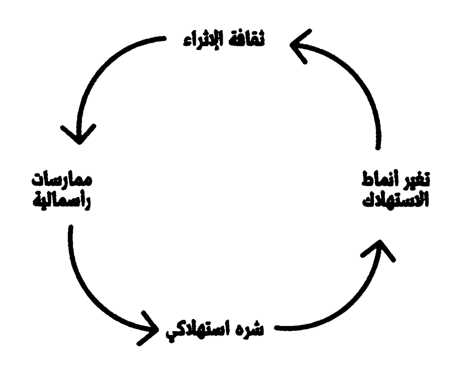
رسم لتحطم الأرمادا الإسبانية

---

٥٦ - تعنى الأسطول الكبير، وقد كانت إسبانيا أقوى القوى البحرية مهابةً في نفوس الأوروبيين قبل هزيمتهم في هذه الحرب الأخيرة، التي غرقت فيها ٥٠ سفينة من أسطولهم مقابل سقوط عدد أقل بكثير من الأسطول الإنجليزي.

كان النصف الثاني من القرن السابع عشر ذاخرًا بالمعارك بين هولندا وبين إنجلترا، وقد بدأت تلك العداوة بالقانون الذي مُرِّرَ في إنجلترا عام ١٦٥١ م، والذي يمنع المستعمرات الإنجليزية من التجارة مع هولندا. تتالت الحروب بعد هذا، فحربٌ في الفترة (١٦٥٢-١٦٥٤ م)، وثانية في الفترة (١٦٦٥-١٦٦٧ م)، وثالثة في الفترة (١٦٧٢-١٦٧٤ م). وكانت نتائج هذه الحروب الطويلة في صالح الإنجليز، فاستولوا على نيويورك وأقاموا الكثير من المستعمرات في أمريكا الشمالية، هذه المستعمرات هي التي أثْرَت إنجلترا بتجارة التبغ والأرز والقمح واللحم.

راقب معي قبل أن نكمل، كيف تلاحمت أفكار الميركانتيليزم مع الذاتية الأوروبية الفردية، فدفعهم هذا المزيج إلى السطو على الأمريكتين وإبادة السكان بقتلهم المباشر أو استعبادهم واستعمالهم في العمل الشاق، ثم إنشاء تجارة ضخمة للعبيد من الساحل الإفريقي الغربي لاستعمالهم في المستعمرات الجديدة، وقد شَحَنَ الأوروبيون ما يزيد عن ١٠ مليون إفريقيًّا في هذه التجارة الملعونة، ونحن هنا لا نذكر تلك السوأة من جانبها الأخلاقي الذي لا يحتاج إلى إشارة، لكن هدفنا هو تعرية الرأسمالية التي خلَّفها الفكر التجاري في تلك الفترة، فالرأسمالية هي ثقافة قبل أن تكون ممارسة اقتصادية، هذه الثقافة مضمونها هو الإثراء والعمل على جني الثروات مهما كانت الكلفة طالما أنها ليست كلفة اقتصادية (خسائر مالية)، فلا يضر الثروةَ إن تكونت من السرقة أو القتل أو الاستعباد، المهم هو جني الثروة. أجرمت القارة العجوز في حق العالم جرمًا عظيمًا. وأنا أعبر عن هذه الدائرة التي تبدأ بالثقافة الرأسمالية وتنتهي إليها مرة أخرى بالشكل التالي:



نتيجة لذاتية نفعية لديها جموح في السعي وراء المكاسب (ثقافة الإثراء)، تنشأ الممارسات الرأسمالية، والتي كانت في ذلك الوقت تجارية، وهذه الممارسات التجارية تُغير نمطَ استهلاك المجتمع بسبب غزو أسواقه بالسلع، وعرض هذه السلع الجديدة يخلق شرهًا استهلاكيًّا في الناس وخصوصًا في بعض الطبقات فوق المتوسطة، فيتغير نمط الاستهلاك العام في المجتمع بالشكل الذي يمكن استغلاله في تعزيز عمليات الإثراء التي بدأت بها الحلقة.

هذه الحلقة هي نتاج لفكر الميركانتيلزم، وإن شئت قل: هي جوهر فكر الميركانتيلزم.

عادت المستعمرات التي أقامها الإنجليز بالنفع الكبير، فقد كانت هذه المستعمرات أمة من الزبائن المجبورين على الشراء من إنجلترا[٥٧] على حد تعبير آدم سميث، فتغير الهيكل الاقتصادي والاجتماعي الداخلي بشكل إيجابيٍّ ملحوظ، وارتفع معدل التحضُّر فيها، فقد كان عدد سكان لندن لا يتعدى ٥٠ ألف نسمة في العام ١٥٠٠ م، لكن هذا العدد

٥٧ - ثروة الأمم.

بلغ ٥٠٠ ألف نسمة في العام ١٧٠٠ م[٥٨]. ومع انتهاء القرن السابع عشر كانت إنجلترا هي الإمبراطورية الأعظم داخل القارة وخارجها، وصارت أمريكا الشمالية مجرد سلسلة من المستعمرات الإنجليزية.

نجح النموذج التجاري في خلق رأسمالية أوروبية جامحة سيطرت على معظم ثروات العالم الضعيف، وعلى جانبٍ آخر فشل النموذج الطبيعي الذي لم يخرج أبدًا خارج حدود فرنسا، وكان لفرنسا نصيبٌ قليل من ذلك الجموح الأوروبي مقارنة بجيرانها.

أدى النجاح الإمبريالي الإنجليزي إلى إحداث نمو مذهل، فقد احتكرت إنجلترا التجارة مع مستعمراتها البكر الغنية في العالم الجديد، بمعنى أوضح، صارت هذه المستعمرات لا تبيعُ إلَّا لإنجلترا، ولا تشتري إلا من إنجلترا، وعلى باقي العالم الذي يريد أن يتاجر مع تلك المستعمرات، أن يفعل هذا من خلال إنجلترا. زاد التحضر والتصنيع نتيجة هذا النمو السريع، فزاد الطلب على العمالة، وبزيادة الطلب على العمالة، ارتفعت الأجور فزاد الطلب على الغذاء والمنتجات الزراعية فازدهرت الزراعة هي الأخرى ونمت، ثم أدى ارتفاع الأجور وجودة الحياة إلى زيادة الطلب على التعليم. وبالفعل حققت إنجلترا بدايةً من القرن السادس عشر وإلى نهاية القرن الثامن عشر إنجازًا في عدد السكان البالغين الذين يعرفون القراءة والكتابة، ففي عام ١٨٠٠م كان أكثر من ٥٣٪ من الإنجليز البالغين يكتبون ويقرأون، أما في فرنسا مثلًا كانت النسبة ٣٧٪ وفي إسبانيا ٢٠٪[٥٩].

٥٨ - روبرت سي آلن، مصدر سابق.

٥٩ - في هولندا كانت هذه النسبة ٦٨٪، ظلت هولندا في معظم البيانات الخاصة بجودة الحياة تتفوق على كل أوروبا في تلك الفترة، فحتى في الدخل الفردي كانت تتفوق عليهم. روبرت سي آلن، مصدر سابق.

بدايةً من الثلث الثاني في القرن الثامن عشر، ارتفعت الأجور في إنجلترا بشكلٍ غير مسبوق، وفي ظل هذا العصر الذي تتنافس فيه الإمراطوريات على التجارة العالمية، صار هذا الارتفاع حجر عثرة أمام المساعي الإنجليزية، فارتفاع الأجور يؤدي إلى ارتفاع التكلفة وبالتالي ارتفاع الأسعار، وهذه الأسعار المرتفعة تهدد بعدم القدرة على المنافسة، وبالتالي كان لزامًا على الإنجليز أن يخفضوا من كلفة الأيدي العاملة بأي طريقة.

كانت الثقافة العامة والخاصة قد تغيرتا بسبب اندلاع الثورة العلمية في أوروبا في القرن السابع عشر، فقد تغيرت نظرة المجتمع لكل شيء بعدما أهدى نيوتن للعالم كونًا منظمًا يعمل وفق قوانين ثابتة في كتابه "المبادئ"، وأنا دائمًا أكرر أن العالم بعد نيوتن غير العالم قبله.

أصابت حمى الثورة العلمية كل الأوروبيين بمختلف طبقاتهم، وتغيرت ثقافة أغلب العوام الذين كانوا يرون السحر هو العلم في القرون السابقة، وكان المصنعون في إنجلترا من ضمن المتأثرين بهذه الحُمَّى، فقد تغيرت ثقافة الإنجليز بظهور فرانسيس بيكون[٦٠] ومذهبه في الملاحظة والتجريب. فلمَّا ظهرت مشكلة ارتفاع أسعار الأيدي العاملة، استغل المصنعون هذه الموجة العلمية في سلسلة من التجارب تمكِّنهم من خفض عدد العمال اللازم للإنتاج من خلال إحلال التكنولوجيا محل العمالة.

---

٦٠ - Francis Bacon فيلسوف إنجليزي (١٥٦١-١٦٢٦)، عمل مستشارًا قانونيًّا للملكة إليزابيث الأولى، وكان أحد رواد المنهج التجريبي في أوروبا، وقد غيرت فلسفته العقلية العلمية الإنجليزية والأوروبية بصفة عامة.

تقول جويس أبلبي[٦١] في كتابها "الرأسمالية": "نتيجة للطابع المنفتح الذي اتسمت به الحياة الإنجليزية العامة، انتقلت المعرفة من الاستكشافات التي تقتصر على فئة معينة من الفلاسفة الطبيعيين إلى جمهور أوسع من محبي الاستطلاع العلمي. وصار الافتتان بضغط الهواء والخواء والمضخات جزءًا من الثقافة التي امتدت إلى الحرفيين والمصنعين...".

تمخضت الذاتية الإنجليزية الأنانية عن فكرة براءات الاختراع، وهي في مضمونها تحوِّل الاختراع إلى وسيلة للكسب، بمنظور آخر هي عملية إدخال للاكتشافات في عالم الرأسمالية، عن طريق تحفيز الاختراع وإعطاء صاحبه حق احتكاره، وبهذه الفكرة ظهرت الرأسمالية الصناعية بجانب أختها التجارية، وتكاملتا معًا.

وهنا يجب أن نذكر أمرًا مهمًّا طالما أننا ذكرنا الإمبريالية الإنجليزية وبراءات الاختراع.

كانت صناعة الحديد هي العماد الرئيس لتفوق الصناعة الإنجليزية في النصف الثاني من القرن الثامن عشر، خصوصًا بعد براءة الاختراع التي حصل عليها هنري كورت كأول مُصنِّع يستطيع إعادة إنتاج حديد عالي الجودة من الحديد الخردة، في عملية اشتُهرت باسم (عملية كورت). لكن في العام الحالي (٢٠٢٣ م) نشرت دكتور جيني بولسترود ورقةً في المجلة العلمية History and Technology صدمت العالم كله وطعنت الغرب في اغتراره بالرجل الأبيض دائمًا، حيث أثبتت بالدلائل والرسائل أنَّ فكرة إنتاج الحديد عالي الجودة من الحديد الخردة كانت فكرة ينفذها مجموعةٌ من الأفارقة المشتغلين بمصانع الحديد في جمايكا،

٦١ - كانت أستاذة تاريخ بجامعة كاليفورنيا لوس أنجلوس، حاصلة على جائزة (آرثر إم شليزنجر الابن) من جمعية المؤرخين الأمريكيين، توفيت عام ٢٠١٦.

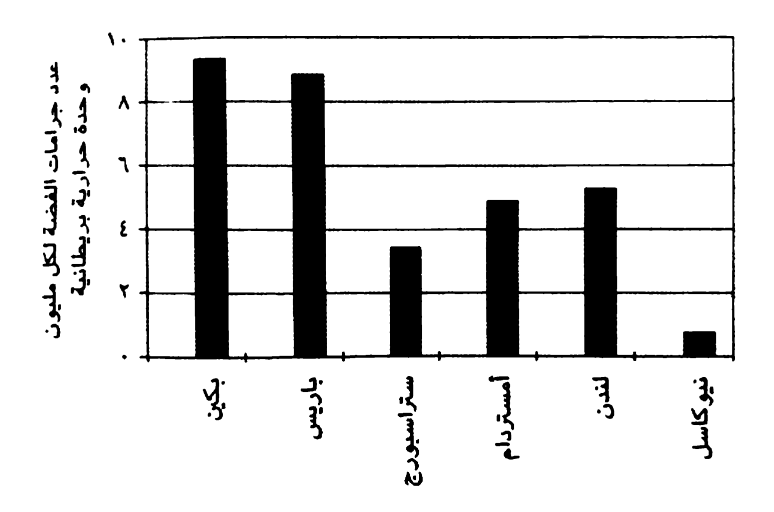
التي كانت مستعمرة إنجليزية وقتها، وأن هنري كورت الذي كان يعاني ضائقة في حياته العملية عندما علم بأمر هؤلاء المخترعين الأفارقة، ذهب إلى هناك ونقلَ مسبكًا كاملًا من مسابك أولئك الأفارقة إلى إنجلترا، ثم استخدم طريقتهم ونجح فيما نجحوا فيه من قبل، وهكذا حصل على براءة اختراعه المشهورة. وبعد أن صارت هذه الطريقة الجديدة تتم على أراضي إنجلترا، صدرت الأوامر بغلق كافة مصانع الحديد في جمايكا!

أشارت بولسترود أيضًا في بحثها إلى شهرة مهارة العمال الأفارقة في صناعة الحديد لدى البرتغاليين منذ القرن الخامس عشر.

سار المصنعون الإنجليز في مسار إحلال التكنولوجيا محل العمل للهدف الذي ذكرناه، وهنا يجب تسليط الضوء على أنَّ الأجور كانت أغلى بكثير من تلك التكنولوجيا التي حاول المصنعون الاعتماد عليها، فحتى الطاقة التي يمكن أن تجعل استخدام التكنولوجيا مكلفًا أكثر من الأيدي العاملة، لم تكن كذلك في إنجلترا، فقد كانت أرض الإنجليز تحوي أرخص مصادر طاقة في العالم. فقد كانت مملكةً من مناجم الفحم. انظر الشكل[٦٢] التالي الذي يقارن بين أسعار الطاقة في أوروبا في القرن الثامن عشر:



٦٢ - روبرت سي آلن، مصدر سابق.



بسبب ارتفاع الأجور وانخفاض أسعار الطاقة، كان استخدام التكنولوجيا وتخفيض عدد الأيدي العاملة له جدوى اقتصادية كبيرة جدًّا، وإليك المثال التالي:

على المستوى العالمي كانت إنجلترا تنافس الهند في صناعة القطن، وهي منافسة صعبة جدًّا، ففي العام ١٧٥٠م كانت إنجلترا تغزل ٣ ملايين رطل من القطن سنويًّا في حين كان إقليم البنغال يغزل حوالي ٨٥ مليون رطل من القطن سنويًّا![٦٣] وفي نفس الوقت كان على إنجلترا أن تحل معضلةَ ارتفاع الأجور التي توشك أن تقضي على صناعتها، فتتالت الابتكارات التي أظهرت ماكينة جيمس هارجريفز[٦٤]، ثم ماكينة ريتشارد

٦٣ - روبرت سي آلن، مصدر سابق.

٦٤ - James Hargreaves نسَّاجٌ إنجليزيٌّ (١٧٢٠-١٧٧٨)، اخترع دولاب الغزل وحصل على براءة اختراعه عام ١٧٧٠، ويعد أول من أدخل التكنولوجيا لصناعة القطن.

أركرايت[٦٥]، ثم جمع بين الماكينتين صمويل كرومبتون[٦٦] في نموذج واحد للمغزل الآلي، وبهذه الآلات صار لإنجلترا ميزة تنافسية قوية بعد ما كانت تخاف عدم القدرة على المنافسة بسبب ارتفاع التكلفة، فبإحلال هذه الآلات قلت التكلفة بسبب خفض عدد العمالة، وتضاعفت الإنتاجية، فحققت إنجلترا على الهند والصين تفوقًا كبيرًا في السوق العالمية.

وحتى تدرك كم كان لإدخال هذه التكنولوجيا في الصناعة جدوى عظمى في إنجلترا منقطعة النظير في سائر أوروبا، ففي النصف الثاني من القرن الثامن عشر كان بناء مصنع غزل على طراز أركرايت يعيد على المستثمر ٤٠٪ من استثماره في إنجلترا، بينما في فرنسا مثلًا كان المعدل ٩٪ فقط، وأما في الهند فكان معدل العائد أقل من ١٪[٦٧]. فلا عجبَ إذن من أن يُقام ١٥٠ مصنعًا من هذا النوع في بريطانيا.

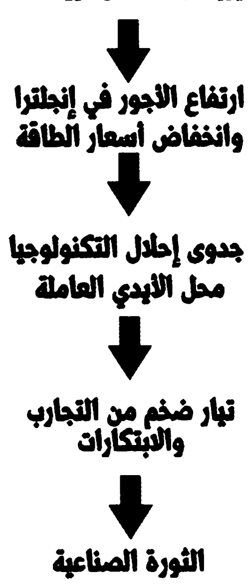
انطبق هذا الكلام على مختلف الصناعات في إنجلترا في ذات الفترة، فتطبيقات الابتكارات التي اعتمدت على الثورة العلمية في مجال الطاقة البخارية كانت ذات جدوى مرتفعة أيضًا، وهكذا حدث في إنجلترا تيار ضخم من الابتكارات المدفوعة في الأساس بفكرة تخفيض العمالة مرتفعة الأجور، وأدى هذا التيار إلى الثورة الصناعية في إنجلترا. ويمكن إيجاز سبب حدوث الثورة الصناعية في إنجلترا دون غيرها بالرسم التالي:

---

٦٥ - Sir Richard Arkwright مخترع ورجل أعمال إنجليزي (١٧٣٢-١٧٩٢) طوَّر الماكينة التي اخترعها هارجريفز، وهو أول من حشد العمال ونظَّمَ العمل وأقام المصانع بمفهوم العصور الحالية.

٦٦ - Samuel Crompton مخترع إنجليزي (١٧٥٣-١٨٢٧) له إسهام مهم في صناعة القطن حيث طوَّر المغزل الآلي الذي كان قد استُخدم في إنجلترا في القرن الثامن عشر.

٦٧ - روبرت سي آلن، مصدر سابق.



هنا لا بد من الوقوف على نقطتين غاية في الأهمية:

أولًا: ما ميز هذه الثورة هو أنها خلقت نموًّا مستمرًّا، وهذا هو إنجازها الأعظم الذي يظهر في الفصول القادمة.

ثانيًا: حتى تلحق الدول الأخرى بإنجلترا كان عليها ألا تنخدع فتستنسخ نفس التكنولوجيا وتقحمها في أنشطتها الاقتصادية وصناعاتها، فما دامت الأيدي العاملة رخيصة أو على الأقل مناسبة، فإن هذا الإجراء في الغالب لن يكون له جدوى اقتصادية، لذلك فإن الاستفادة الفعلية تكمن في قدرة الدول على تطويع هذه التكنولوجيا وتحويلها لأنماط

مناسبة لها، ولمفرداتها الاقتصادية الخاصة، وهذا المضمون الاقتصادي المهم لا ينطبق على اقتصاد القرن الثامن عشر فقط، بل هو مفهوم عام ينطبق اليوم على الدول النامية في مساعيها.

غيرت الثورة الصناعية شكل إنجلترا، وبحلول القرن التاسع عشر، انتقلت هذه الثورة إلى أوروبا الغربية، وبالطبع أثَّرت تلك الأحداث والتغيرات على العقول التي تكلمَّت في الاقتصاد في النصف الثاني من القرن الثامن عشر، وهذا ما نستعرضه في حكايةٍ بطلها آدم سميث في السطور القادمة...

الفصل السادس

أستاذ الأخلاق

على السواحل الشرقية لاسكتلندا توجد مقاطعةٌ عتيقةٌ اسمها كيركالدي لها إطلالة مميزة على بحر الشمال من ساحله الغربي، وتقع في شمال إدنبره. في هذه البلدة وتحديدًا في الخامس من يونيو عام ١٧٢٣ م وَلَدتِ السيدة مارجريت دوجلاس ابنها الذي لن يُكتب له أن يلقى أباه أبدًا، فقد مات زوج السيدة مارجريت في يناير من العام نفسه، أي قبل ولادة الطفل بستة أشهر.

قبل أن يُتمَّ الطفل الخامسة من عمره خَطَفه الغجر الذين كانوا قد بلغوا الشمال الأوروبي في القرن السادس عشر. لم تطل مدةُ اختطافه، إذ استطاع خالُه أن يعيده سالمًا إلى السيدة مارجريت.

وسط أنشطة كيركالدي المتعددة نشأ آدم سميث، فرأى تجارة الأسماك والسفن واستخراج الفحم وتجارته وأنشطة إعادة تصنيع الحديد إضافة إلى أعمال الجمارك وحتى أعمال التهريب... ففي النهاية كيركالدي تعد أحد أهم موانئ البلاد.

انتهى آدم من المدرسة التي كان مشهورًا فيها بذاكرته الاستثنائية[٦٨]، ثم التحق بجامعة غلاسكو ليدرس الفلسفة، ولتفوقه فاز بمنحةٍ دراسيةٍ في جامعةِ أكسفورد.

تفتحت مدارك الشاب الاسكتلندي في إنجلترا على عوالم جديدة أثرى من عالمه بتفاصيلها، وأشبع نهمه للقراءة بمكتبة كليته الغنية في أكسفورد. وفي العام ١٧٤٦ م عاد سميث إلى كيركالدي وانكبَّ على الكتابةِ في الأدب والمنطق والأسلوب العلمي. وبفضل الصلات العائلية[٦٩] دُعيَ سميث لإلقاء سلسلةٍ من المحاضرات في إدنبره حول الأدب الإنجليزي وفلسفة القانون.

نجحت محاضراته نجاحًا ملفتًا، وبعد أقل من خمسة أعوام من عودته من أكسفورد عُيِّنَ سميث في جامعةِ غلاسكو لتدريس المنطق والأخلاق والأدب والبلاغة.

في العام ١٧٥٩ م نُشرَ لسميث وقد بلغ ٣٦ عامًا كتابُ "نظرية المشاعر الأخلاقية" ولجودةِ الكتاب قام الفيلسوف العَلَم ديفيد هيوم[٧٠] بإهداء نسخةٍ إلى السياسي الكبير تشارلز تاونسند الذي انبهر بالكتاب بدوره وأُعجِبَ بسعة دراية سميث وفكره، فقدم له عرضًا سخيًّا ليعملَ مؤدِّبًا خاصًّا لابن زوجته دوق مدينة باكلو (Buccleuch). وبقبول سميث لهذه الوظيفة تغيرت حياته.

---

٦٨ - آدم سميث، إيمون باتلر.
٦٩ - إيمون باتلر، مصدر سابق.
٧٠ - David Hume فيلسوف اسكتلندي، له كتابٌ مشهور في تاريخ إنجلترا، تولى عددًا من المناصب رفيعة المستوى، كسكرتير السفارة الإنجليزية في باريس، ووكيل للوزارة، توفي عام ١٧٧٦ م.

كانت العملية التأهيلية المعدَّة مسبقًا للشاب الأرستقراطي الذي صار سميث مسؤولًا عنه تقتضي السفر إلى فرنسا. ويبدو أن سميث كُتِبَ عليه أن يُختطف مرةً أخرى ولكن هذه المرة كانت بمذاقٍ خاص وأنيق، فبرغم استياء سميث من عدم قدرته على الاختلاط مع الآخرين لضعف فرنسيته، فقد استمتع هناك بصحبة ديفيد هيوم الذي كان وقتها سكرتيرًا للسفارة الإنجليزية في فرنسا. أمَّا الأوقات التي لم يكن فيها يجالس هيوم كان يُفترَسُ فيها من الملل الشديد، لذلك قرَّر أن يشغلَ نفسه بالكتابة، وبالفعل بدأ في مصنَّفٍ جديد.

انتهت الرحلة وعاد سميث إلى إنجلترا عام ١٧٦٦ م ومنها إلى كيركالدي، حيث اشترى منزلًا فخمًا وركز على استكمال الكتاب الذي بدأه في باريس. وفي العام ١٧٧٦ م الذي كُتبت فيه وثيقة الاستقلال الأمريكي، نُشرَ لآدم سميث كتابه الجديد تحت عنوان "بحث في طبيعة ثروة الأمم وأسبابها" كوثيقة لاستقلال علم الاقتصاد.

An Inquiry Into The Nature And Causes Of The Wealth Of Nations

يدين سميث لهذا الكتاب بكل الشهرة التي تنعَّمَ بها في حياته وحتى بعد موته وإلى يومنا هذا. فهذا الكتاب الذي يُقال له اختصارًا "ثروة الأمم" هو عمدةُ الكتب التي افتُتِحَ بها علم الاقتصاد كعلمٍ مستقل بذاته، له هيكله وموضوعاته. والحقيقة أن آدم سميث نفسه لم يكن ينتوي أن يؤسس لعلم الاقتصاد، لكنه أراد أن يستغل سعة اطلاعه ودراساته للإجابة على الأسئلة التي تدور حول: كيف تكوِّنُ الأمةُ ثروتها الحقيقية؟ وحتى يجيب على تلك التساؤلات أنتج للعالم هذا

المؤلف الضخم الذي لولاه لما خصَّصنا للرجل فصلًا كاملًا ولا تناولنا طَرَفًا من سيرته.

كتب آدم سميث موضوعه في خمسة أجزاء، صفحاتهم مجموعة تقارب الألف صفحة، وما بين أيدينا اليوم من نسخ لثروة الأمم يكون في الغالب على مجلدين اثنين. ويمكننا عنونة الأقسام الخمسة للكتاب كالتالي:

الجزء الأول: تقسيم العمل، ومشكلة القيمة والتوزيع.

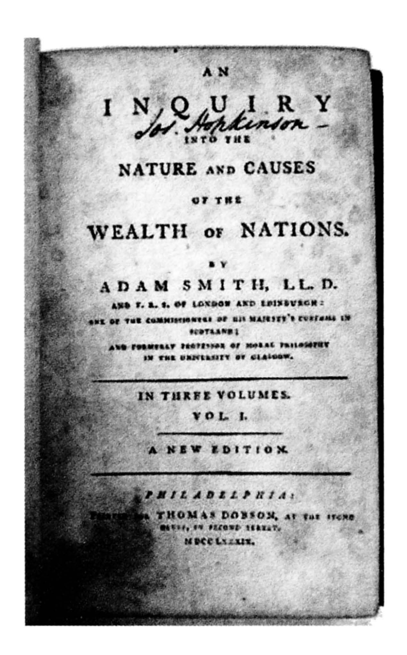
الجزء الثاني: أهمية تراكم رأس المال.

الجزء الثالث: المسار الطبيعي للأمم لتكوين الثروة.

الجزء الرابع: مناقشة مذهب الميركانتيلزم ومذهب الفيزيوقراط.

الجزء الخامس: دور الدولة في النشاط الاقتصادي.

بالطبع هذه العناوين المختصرة من تعبيري الخاص بما يوافق مصطلحات اليوم، وإلَّا فإنَّك كنت ستقرأ عناوين يزيد أحدها عن السطرين أحيانًا!



AN
INQUIRY
INTO THE
NATURE AND CAUSES
OF THE
WEALTH OF NATIONS.
BY
ADAM SMITH, LL.D.
AND F.R.S. OF LONDON AND EDINBURGH:
ONE OF THE COMMISSIONERS OF HIS MAJESTY'S CUSTOMS IN SCOTLAND;
AND FORMERLY PROFESSOR OF MORAL PHILOSOPHY IN THE UNIVERSITY OF GLASGOW.

IN THREE VOLUMES.
VOL. I.

A NEW EDITION.

PHILADELPHIA:
THOMAS DOBSON, AT THE STONE HOUSE, IN SECOND STREET.
MDCCLXXXIX.

كتاب ثروة الأمم في ثوبه القديم

وقبل أن نناقش أفكار سميث التي أوردها في كتابه، هناك ملاحظات مهمة يجب ذكرها، نجملها في النقاط التالية:

أولًا: كثيرون جدًّا أولئك الذين لم يقرأوا الكتاب ومع هذا يقتبسون منه ويعلقون عليه، فكما قال كينيث جالبريث هو أحد ثلاثة كتب يشعرُ أدعياء الثقافة أن من حقهم الاقتباس منهم ولم يقرأوهم: الإنجيل، وثروة الأمم، ورأس المال لماركس. إنَّ أجيالًا من المتخصصين قد قرأوا الكتاب وفندوه وقتلوا عناوينه بحثًا، ثم ألفوا عنه سطورًا لا تُحصى، وهذا الذي جعل أجيال القرن العشرين يستشعرون تُخمةً كاذبةً ظانِّين

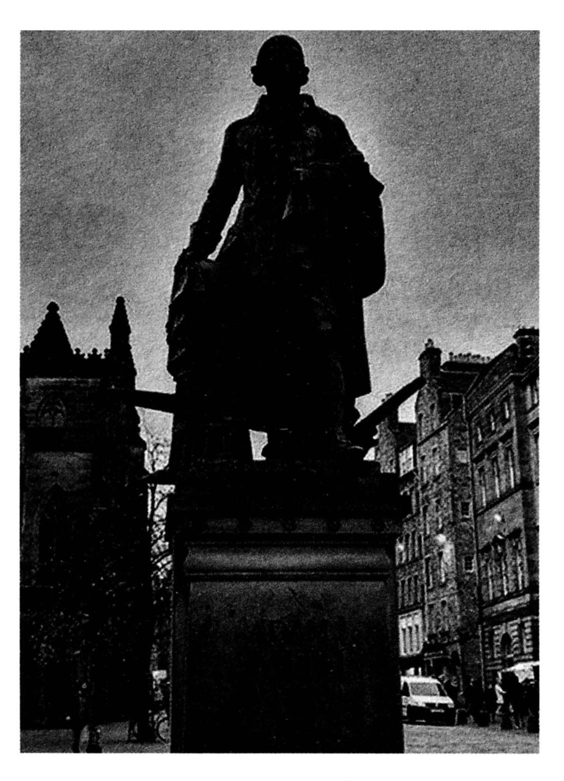
أنَّهم قد ألمُّوا بما كتبه سميث من اطلاعهم على كتابات تلك الأجيال الأولى التي ناقشت الكتاب.

ثانيًا: مطالعةُ الكتاب نفسه مفيدة جدًّا في استقراء أفكار سميث بعيدًا عن الاقتباسات المشهورة التي عجَّت بها الكتب، فالرجل قد عاصر أكثر فترات أوروبا ازدحامًا من حيث كثافة الأحداث السياسية والاقتصادية والتغيرات المجتمعية، يكفي أنَّه نشأ هو والثورة الصناعية كأترابٍ في مدرسةٍ واحدة، وهو بهذه الفضيلة يُعدُّ مؤرخًا قلَّ أن تجد مثله.

ثالثًا: الاستغناء عن الكتاب بالكتب التي ناقشته، أدَّى إلى انتشار تصورات خاطئة عن أفكار سميث، فأنا بنفسي رأيت من يقول إن تقسيم العمل هو اقتراح لآدم سميث في كتابه، قدمه للعالم لأول مرة كأداة للنمو، وهذا التصور خاطئ بالكلية، فعندما تكلم سميث عن تقسيم العمل تكلَّم عنه من زاوية الراصد لا المُقترِح، فهو بالنسبة إليه ضرورة بشرية تظهر بتطور المجتمعات البدائية، ثم أقام على هذه الظاهرة التي رصدها جُلَّ نظامه الذي كتبه، ورأى أنَّه يؤدي إلى النمو إذا تم استغلاله بكفاءة عالية، لذلك تناول أسبابًا من شأنها تحفيز تقسيم العمل مثل اتساع السوق. وهذا يتضح جليًا في سرد سميث وافتتاحه للفصول التي كان يقارن فيها في الغالب بين المجتمع قبل تقسيم العمل والمجتمع بعد أن صار تقسيم العمل واقعًا فيه. وقد قال بوضوح في مطلع الفصل الثاني من الجزء الأول: "لم يكن تقسيم العمل هذا الذي أتاح لنا الكثير من الفوائد، من نتاج حكمةٍ بشرية... بل هو النتيجة الحتمية رغم كونها جاءت بطيئة ومتدرجة". فهو يرصد تقسيم العمل كنتيجة حتمية لتعدد الحاجات وعجز الإنسان عن تلبيتها كلها بنفسه.

رابعًا: يُعدُّ ثروة الأمم من أكثر الكتب التي وُصِفت بالملل في التاريخ، والحقُّ أنَّ سميث نفسه قد اعترف بهذا في ثنايا الكتاب أكثر من مرة، فتجده يقول: "... فأنا أحب أن أجازف وأكون مملًّا كي أطمئنَّ إلى أنَّ ما أقدمه يكون على درجة جيدة من الوضوح والسهولة". وتارة يقول: "لقد رأيتُ أنه من الضروري تقديم دراسةٍ مطولةٍ لهذه الفكرة السائدة... رغم علمي بأن هذه الإطالة قد تبعث على الملل". ومع هذا يبقى الكتاب مملًّا برؤية معاصرة، والسبب بعد الإسهاب المتعمد الذي اعترف به المؤلف يكمن في نقطتين: الأولى هي كون الكتاب جامعًا لكثير من الاستطرادات التي تخرج عن نطاق الدراسة الاقتصادية، فالكتاب أصلًا بحثٌ اجتماعيٌ شامل. والثانية هي استعمال سميث للكثير من الألفاظ للتعبير عن كلمةٍ واحدة قد اصطلحنا عليها اليوم، فمثلًا عندما يتكلم عن دفع قيمة السلعة يقول دفع كامل الإيجار والعمل والأرباح التي يجب أن تُدفع لأجل تحضير السلعة وإيصالها إلى السوق. فهو يفكك لفظة القيمة إلى مكوناتها، ولا يفعل هذا مرةً واحدةً على سبيل الشرح، بل يكرره. ففي النهاية هذه الاصطلاحات التي جاءت إلينا مُقَوْلَبة، تَعامل معها سميث مفككة ومجردة.

خامسًا: الكتابُ يُعدُّ تأريخًا للفكر الاقتصادي، فقد أرَّخ فيه سميث للميركانتيلزم والفيزيوقراط وذكر نتفًا من بعض الحضارات القديمة، وهو بهذا يكون أول كتاب لتاريخ الفكر الاقتصادي، وأول كتاب للفكر الاقتصادي!



تمثال آدم سميث في إدنبره

أما جوهر أفكار سميث في الكتاب الذي بدأ به علم الاقتصاد فيمكننا سرده على النحو التالي:

تقسيم العمل.

تعرضَ آدمُ سميث في بداية الكتاب إلى فكرة تقسيم العمل التي تُعدُّ مرحلةً حتميةً من مراحل ارتقاء الحياة البشرية، فبمجرد أن تتعدد

الحاجات يصبحُ الإنسانُ عاجزًا عن تلبيتها كلها، فيتخصص كل فردٍ في المجتمع فيما يتقنه فينتج ما يكفيه وزيادة، ثم يعمد إلى هذه الزيادة فيستخدمها في المقايضة. ولجوء الإنسان إلى المقايضة ناتجٌ عن تركيب أصيل في خِلقته، وهو شيء يميزه عن الحيوان، فالإنسان كائن يستطيع الانتفاع من غيره عن طريق مبادلة المنفعة. وهذا بالضبط ما يعرضه أي فرد في صفقةٍ ما على الطرف الآخر، أعطني ما أريد وسوف تنال مني ما ترغب[٧١]. وبهذه الطريقة يحصل كل شخصٍ على ما يريد من الآخر وهذا الشكل من تكامل المصالح الفردية يسد حاجات كافة أفراد المجتمع. نحن لا نحصل على عشائنا من إحسان الجزار أو الخباز بل نخاطبُ فيهم مصلحتهم الخاصة وحبهم لذواتهم[٧٢]، ففي النهاية هو يريد أن يعطيني ما أطلبه ليحصل على المقابل الذي يريد.

هذا المفهوم البسيط يعني أنه بالضرورة كلما زاد عدد الأفراد في المجتمع زاد تقسيم العمل، من هنا جاء استنتاج سميث بأن تحفيز تقسيم العمل يحتاج إلى سوق واسع حتى تزدهر ثمرته. فالفرد الذي يعيشُ منعزلًا بعيدًا عن أقرب مجتمع مأهول، يعتمد على نفسه في تلبية كل حاجاته قدر الإمكان. أما الذي يعيش وسط المجتمع والعمران (السوق) فإنَّه سيلجأ في تلبية كل حاجةٍ إلى أفضل من يلبيها له. فالقدرة على تقسيم العمل محدودة بحجم السوق فعندما يكون السوق صغيرًا لا يجد المرء ما يشجعه على تخصيص عمله كله لوظيفة واحدة[٧٣].

ثمة استدلال آخر أحسَنَ فيه سميث، وقد بيَّن فيه أثر اتساع الأسواق على تقسيم العمل ودفع النمو في المجتمعات القديمة. ففي ذلك الزمان

---

٧١ - آدم سميث، ثروة الأمم.
٧٢ - آدم سميث، مصدر سابق.
٧٣ - آدم سميث، مصدر سابق.

كان النقل البري لمسافات بعيدة أكثر كلفة من النقل المائي (البحري والنهري)، وبما أن تحقيق الدولة لأسواق كبيرة يتطلب نقلًا أقل كُلفة، فإن الدول التي تطل على سواحل هادئة وتتخللها الأنهار كانت هي الأقدر على التطور المبكر، مثل مصر القديمة.

هذا ما رصده سميث من تقسيم العمل في المجتمعات التي سبقت عصره، أما في زمنه فقد صار تقسيم العمل أكثر دقة، فلم يقف على تخصص كل فرد في صنعةٍ ما، بل صارت الصنعة الواحدة مهما بدت بسيطة تنقسم على أفرادٍ لكلٍ منهم مرحلة، وهنا ضرب سميث المثل المشهور بمصنع الدبابيس الّذي ينقسم فيه العمل إلى عدد مدهش من المراحل: "عاملٌ يسحب السلك، وآخر يسويه ويزيل ما فيه من تجعدات، وثالث يقصه، ورابع يدبب رأسه، وخامس يصقل طَرَفه ليوضع له رأس، وهذا الرأس يحتاج إلى عمليتين أو ثلاثة كل واحدة منها منفصلة عن الأخرى، ثم وضع الرأس وهو عملٌ له خصوصيتُه، ومرحلة أخرى لتبييض الرأس، فهو عملية أخرى، وثمة مرحلة أخرى لوضع الدبابيس في أغلفتها، وهكذا نجد أن عملية صنع الدبوس تتشعب في ثماني عشرة عملية مختلفة"[٧٤].

ذكر سميث أن هذا التقسيم يمكِّن العامل الواحد من إنتاج ٤٨٠٠ دبوس في اليوم، في حين أنَّه لو قام بالمراحل كلها بنفسه لن يحسن أن ينتج في اليوم أكثر من عشرين دبوسًا!

وإن كان تقسيم العمل في هذه الصناعة غير المهمة على حد تعبير سميث ينفع بهذه الطريقة المذهلة، فهو في غيرها أنفع، فهو يفيد بصورة مباشرة في ثلاث اتجاهات هي التي تؤدي إلى هذه النتائج، أولًا، يجعل

---

٧٤ - آدم سميث، مصدر سابق.

كل عاملٍ يتقنُ مرحلته بسهولة ويبرع في تنفيذها. ثانيًا، يوفر الوقت الذي يضيعه العامل في الانتقال من مرحلة لأخرى. ثالثًا، هذا التقسيم هو السبب المباشر في ظهور الابتكارات التي طُبقت في الصناعة، وهذه الفائدة تحديدًا قد عاشَ سميث في عصرها، فالنصف الثاني من القرن الثامن عشر غزرت فيه براءات الاختراع كما ذكرنا في السابق، وكان غالب المبتكرين هم في الأصل عمال وحرفيون. فمن السهل إدراك كم هو صعب اختراع ماكينة تقوم بصنع شيء بصورة تامة من أول مرحلة إلى آخر مرحلة، أمَّا لو قسمت العملية إلى مراحل، فإن المراقب الجيد لمرحلته قد يجد فكرة ابتكارٍ تقضي له مهمته، وهكذا.

القيمة والتوزيع.

نحن اليوم نعبر بمصطلحي القيمة والتوزيع عن مشكلة الأسعار وعدالتها والعوامل التي تؤثر فيها وتكوِّنها، وكيفية الحفاظ على توازنها، ثم كيفية توزيع هذه القيمة كعوائد على العناصر التي أنتجت السلعة. هذه هي النقاط نفسها التي تناولها آدم سميث في كتابه فجعلها جزءًا أصيلًا من هيكل النظرية الاقتصادية.

تعرضَ سميث في البداية إلى لغز القيمة المشهور الذي يسأل: لماذا تكون قيمة الماس أعلى من قيمة الماء مع أن هذا الأخير ضروري للبقاء على قيد الحياة؟ ثم فكَّك سميث القيمة على قسمين: قيمة استعمالية وقيمة استبدالية، وقَصَدَ بالأولى المنفعة، أي قدر الإشباع الذي يتحصَّل عليه الفرد من استهلاك الشيء. وبالثانية قَصَدَ السعر، وذكر أن هاتين القيمتين تجمعهما علاقةٌ عكسية للشيء ذاته، فالشيء الذي تكون قيمته

الاستعمالية عالية تنخفض قيمته الاستبدالية والعكس بالعكس! ثم تحايل على اللغز وركَّزَ بحثه على القيمة الاستبدالية التي هي سعر السلعة في السوق، فهي مناط الأمر كله.

أراد سميث أن يحدد ما هي العناصر التي يتوقف عليها سعرُ السلعة في المجتمعات بعد أن صار تقسيم العمل فيها أمرًا واقعًا.

في مجتمعات كانت الأرضُ فيها مشاعًا، وتحكم أسواقها البسيطة عملية المقايضة، قضى بأنَّ قيمة السلع تساوي مقدار العمل الذي مكَّن صاحبها من حيازتها. وعلى هذا تكون كمية العمل هي المقياس الحقيقي لقيمة استبدال أي سلعة، ووفقًا لهذا المفهوم المجرد البسيط فلو كان حيازة السلعة (أ) تتطلب جهدًا ومشقةً ضعفي ما تتطلبه حيازة السلعة (ب) فإن الواحدة من السلعة (أ) تُستبدل باثنتين من السلعة (ب).

لكنَّ هذه الصورة البسيطة تعقَّدت بتطور المجتمعات وظهور النقد كوسيط لعملية التبادل، ثم تخصيص الأراضي.

فأمَّا ظهور النقود فقد جعل لكل سلعة قيمتين، قيمة حقيقية تتمثل في كمية العمل المبذول فيها، وهذا هو الأصل، وقيمة سوقية تتمثل في كمية النقد المدفوع فيها، وهاتان القيمتان لا تتساويان في الغالب، والسبب هو أنَّه في حين تثبت قيمة العمل المبذول للحصول على الشيء، فإنَّ قيمة النقد نفسه عرضة للتغير دائمًا، فمثلًا يستطيع الملك أو الحاكم تخفيض قيمة تلك النقود في يوم، لكن هل يستطيع أن يقلل من كمية العمل اللازمة لاصطياد حيوانٍ ما؟ فعُرضةُ قيمة النقود للتغير هي التي تجعل في هذه الحالات لنفس السلعة قيمة حقيقية وهي العمل، وقيمة سوقية وهي المدفوع بالنقود.

من جانبٍ آخر أدَّى ظهور النقود إلى إمكانية تراكم رأس المال، وصار الفرد الذي يتمتع بهذه الأفضلية قادرًا على استعمال مجموعة من الأفراد ليبذلوا عملًا معينًا لإنتاج سلعة ما، وبالتالي صار لزامًا على قيمة هذه السلعة أن تكون كافية لكمية عمل العمال، إضافة إلى ربحٍ يجنيه هذا الرجل الذي جازف بماله في هذه العملية الإنتاجية. على هذاٍ صارت القيمة الاستبدالية للسلعة تتكوَّن من أجور للعمال، وربحٍ لصاحب رأس المال. وأمَّا تخصيص الأراضي، فبعد أن كانت الأراضي فضاءً شاسعًا أمام المجتمعات القديمة تلك، يقتطع منها الأفراد ما يريدون ويستعملون منها ما يشاؤون، تطورت المجتمعات فصارت تلك الأراضي لها ملكية تؤول دائمًا لفردٍ ما أو للمملكة أو الدولة، على هذا صار الانتفاع بالأرض يقتضي عائدًا يحصل عليه صاحبها. ولا بد أن يُقتطع هذا العائد من قيمة السلعة التي استُخدمت الأرض في إنتاجها.

فصارت القيمة الاستعمالية للسلعة تتكون من أجور العمال وربح صاحب رأس المال وإيجار الأرض.

واضحٌ كما ترى أنَّ سميث لم يُدخل في تلك العناصر عنصرَ التنظيم أو الإدارة، إذ عدَّ رب العمل هو المنظم الحقيقي للعمل، وعائده هو الربح، وأنه لو استخدم غيره في أي عمل تنظيمي أو إشرافي فهو في النهاية يُعدُّ عاملًا بأجر، وجعل سميث الفائدة مجرد إيراد ثانوي مشتق من الربح المتحقق عن استعمال مال المقرض، فهي التعويض الذي يدفعه المقترض للمقرض لقاء الربح الذي أتيح له من استعمال ماله (أما في اقتصاد اليوم، فالفائدة هي العائد على رأس المال، والربح هو العائد على التنظيم).

فلمَّا كانت القيمة تتكون من تلك العناصر الثلاثة، فإنها بالضرورة تشكل العوائد التي تنقسم عليهم، في صورة أجر وربح وإيجار، ويستطرد سميث في تعليقه على الأطراف الثلاثة، ويرى أنَّ العامل هو الطرف الأضعف الذي يُظلمُ دائمًا من رب العمل الذي يستعمله، وأنَّ العمالَ دائمًا يقعون ضحيةً للتآمر. لكن في مجتمع رشيد لا بد أن تؤدي المنظومة دورها في النمو وخلق الفوائض وهذا بالضرورة يعود على العامل بالمنفعة المتمثلة في زيادة الأجور.

وأمَّا أرباب العمل أصحاب رؤوس الأموال، فإنَّهم يختارون بحصافةٍ النشاط الذي يضعون فيه مالهم، وضمان هذه الحرية لهم، يوجه -بشكل تلقائي- رؤوس الأموال بكفاءة عالية تقود المجتمع في النهاية إلى النمو.

ثم علَّق سميث على أصحاب الأراضي وذكر أنَّهم يحصلون على سعر احتكاري لقاء استخدام أرضهم التي يملكونها، لا بسبب أي جهدٍ بذلوه. بالطبع هو يتكلم عن أولئك الأرستقراطيين الذين لم يشقوا يومًا في حياتهم. ثم أقرَّ سميث بعين الراصد أنَّ طبقة التجار الذين اغتنوا جدًّا في عصره هم السبب الرئيس في ارتفاع سعر الأرض بسبب رغبتهم في امتلاك عقارات ريفية شاسعة.

وقبل الانتقال للحديث عن توازن الأسعار، أشار سميث إلى أمرٍ مهم يجدرُ بنا ذكره هنا. ففي البلاد المتحضرة انعدمت السلع التي تكون قيمتها الاستبدالية عملًا فقط، وصارت كلُّ السلع يُسهِم في قيمتِها العملُ ورأسُ المال والأرض، وعوائد رأس المال والأرض تكون أكبر بكثير من عوائد العمل، وهذا يعني أن قيمة الإنتاج السنوي لمجتمعٍ ما، تكون أكبر بكثير من كمية العمل الذي بُذل فيه، ولو وُجهت فوائض

هذه القيمة الكبيرة التي تعود لصاحب رأس المال ومالك الأرض إلى شراء كمية أكبر من العمل، لحدث معدل نمو مذهل عامًا بعد عام.

فمثلًا، لو كان إنتاج لوح من الخشب يحتاج إلى عامل أجره ٥ وحدات، هذا اللوح يُعرضُ في الأسواق بقيمة ٣٥ وحدة، يعود منها على العامل ٥، وعلى صاحب رأس المال ١٥ وحدة، ومالك الأرض ١٥ وحدة. هذه الوحدات الثلاثون، بما إنها زيادة عن قيمة العمل المبذول فعلًا، فلو أعيد ضخها في شراء عدد عمال زيادة عند تكرار العملية الإنتاجية، يصبح لدينا ٦ عمال إضافيين، فيتضاعف الإنتاج بنفس المعدل...

السعر الطبيعي وسعر السوق

لاحظَ سميث أنَّ سعر السلعة في السوق يختلف عن سعرها الطبيعي هبوطًا وارتفاعًا، ورأى أنَّ السبب في هذا هو العلاقة بين الطلب الحقيقي وبين كمية السلعة التي وصلت إلى السوق (العرض والطلب). فلو كان هذا الطلب الحقيقي أكبر من كمية السلعة التي نجحت في الوصول إلى السوق فعلًا، يرتفع السعر السوقي عن السعر الطبيعي، والعكس بالعكس. وهذا الطلب الحقيقي يميزه سميث عن الطلب الذي لا تدعِّمه قدرة، فرغبة الفقير في شراء السلعة التي لا يقدر على قيمتها تظل مجرد رغبة ولا تخلق طلبًا يؤثر على السوق، أمَّا الرغبة التي يملك صاحبها قدرةً على الشراء، فهذه تتحول إلى الطلب الحقيقي الذي يقصده سميث.

ويرى سميث أنَّ المصلحة الخاصة هي التي تعود بهذه الأسعار دائمًا إلى سعرها الطبيعي وبشكل تلقائي مثير للدهشة، فمن مصلحة من يوظف أرضه أو ماله أو عمله في سلعةٍ ما أن يجني أكبر عائد ممكن من

هذا التوظيف، وعليه فإذا زادت كمية السلعة في السوق وانخفضت قيمتها يسحب هؤلاء توظيفهم هذا ويحولوه لسلعة أخرى، وهذا يقلل من كمية المعروض من السلعة الأولى في السوق، وبالتالي يرتفع ثمنها، فتجذب لنشاطها من يوظفون أرضهم ومالهم وعملهم في إنتاجها... وهكذا.

وهذه المنظومة التلقائية، لا تفسد إلَّا بتدخل يعوق حريتها، كأن تتدخل الطبيعة في الأمر بما لا قبل للإنسان به، أو أن تتخذ الدولة إجراءات من شأنها تقليص هذه الحرية مثل منح الاحتكارات، وقد كان هذا الأمر سائدًا في العصر الذي عاشه سميث كما ذكرنا من قبل، وهذا الاحتكار يفسد المنظومة كلها، فسعر السلعة المحتكرة هو أعلى سعر يمكن الحصول عليه في كل حين، بينما السعر الذي تفرضه المنافسة الحرة هو أدنى سعر يمكن القبول به، وهو السعر الطبيعي.

من ناحية أخرى تتدخل الحكومة أحيانًا فتقوم بِسَنِّ سياسات خاصة بالعمالة كالتدريب على المهن التي تمكِّنُ العامل من رفع أجره عن المستوى الطبيعي، وهذه في نظر سميث تعوق آلية منظومته الحرة وتفسدها، لأن هذه الأجور لا بد أن تكون قابلة لحركات المنظومة صعودًا وهبوطًا.

تراكم رأس المال

رأى سميث أن تراكم رأس المال هو أمرٌ لا بد أن تهدف إليه الحكومات الرشيدة، فهو المحرك الأول للنمو، وبداية أمره تظهر في الادخار، فالعائد الذي يحصل عليه الفرد، يتوزع بين الاستهلاك والادخار، وهذا الأخير هو الذي يتحول إلى استثمار، أي أن الدولة يجب أن تحفز هذا الادخار

الذي يتحول إلى رأس مالٍ مركوم، على هذا يجب استخدام سياسة ضرائب رشيدة لا تحرم المجتمع من الادخار فتقتل قدرته على تراكم رأس المال، وعندها يزدادُ ثراء المجتمع نتيجة للتوجيه الآلي الحصيف لرأس المال هذا، حتى يصبح أفقر فردٍ فيه أغنى من أغنى فردٍ في مجتمع آخر لا يمتثل لهذه المنظومة!

تطرَّق سميث بعد ذلك للحديث عن المدرستين الاقتصاديتين اللتَيْن عاصرهما، فقد نشأ الرجل في قرنٍ سيطر عالمُ التُّجار عليه، وعاشه بكل تفاصيله، وهو لم يكن معزولًا عن أولائك الطبيعيين في فرنسا، بل زارهم وجالسهم ودَرَى بآرائهم.

نظرةٌ على الميركانتيلزم

بدأ سميث بالميركانتيلزم لأن مذهبهم هو الأكثر قربًا للفهم في بلده وفي عصره على حد تعبيره، ولا يخفى على أي قارئ، سَخَطُ سميث في تناوله لأفكار أولئك التجار، فقد هاجم عمود أفكارهم الذي نصبوا عليه خيمتهم، وقطع بأنَّ ثروة الأمم لا تُقاس بقدر ما تمتلك من الذهب والفضة، وذكرَ أنَّ هذه الفكرة مفهومٌ شعبيٌّ خاطئ، نتج عن الالتباس بين دور النقود كأداة للتبادل ودورها كمقياس للقيمة، فقد اعتاد الناس أن يميزوا الغني من الفقير بمقدار ما يمتلك من نقود، ظانِّين أن تلك النقود تخلق لديه قدرةً في الحصول على ما يريد، وهذا المنطق الفاسد عمَّمه التجار على الدولة وبنوا عليه مذهبهم، حتى كان أول سؤال يسأله الإسبان بعد اكتشاف الأمريكتين حين وصلوا إلى الساحل: هل يوجد ذهبٌ أو فضة في الجوار؟[٧٥]

---

٧٥ - آدم سميث، مصدر سابق.

ويُعزي سميث انتشار هذا المفهوم الخاطئ إلى شيوع الحروب الضخمة التي كانت تحتاج للكثير من الذهب والفضة لتمويلها، لذلك كانت الدول في أوقات السلم تسعى جاهدةً لتجميع الذهب والفضة بحيث يكون لديها ما يكفي لشنِّ الحروبِ الخارجية[٧٦].

والحقيقة، أنَّ أي مجتمع مهما جمع من الذهب والفضة، لو انغلقت عليه أبوابه، ثم شحَّت سلعُه، لن تنفعه تلك النقود مهما بلغت، وعندها سيدرك الجميع أنَّ الثروة الحقيقية هي حجم الإنتاج من السلع.

على هذا أسقط سميث حجج التجار في فرض القيود على تصدير الذهب والفضة، الأمر الذي عطّل آلية تقسيم العمل، فبدلًا من التبادل الحر بين الدول، الذي من شأنه دعم التخصص والتقسيم واستغلال المزايا التنافسية، قيدت الدول نفسها بأغلال الميركانتيلزم، حتى صارت الدولة تعتمد على نفسها في إنتاج سلعةٍ ربما لو استوردتها من غيرها لكانت أجود وأقل كُلفةً، لكنَّ التجار حالوا دون هذه النتيجة الرشيدة.

كذلك هاجم سميث فكرة الميزان التجاري الموجب، وقال إنها الفكرة التي مرَّرها التجار واستبدلوها بقيود حركة المعدنين، حفاظًا على مصالحهم الخاصة، وقد انخدع بها الأمراء والنبلاء وسادة الأرياف، الذين يكفيهم أن يروا تدفق الذهب والفضة إلى داخل البلاد، هذا الذي أدَّى في النهاية إلى تركيز الدولة على التجارة الخارجية ومراقبة الميزان التجاري، مع إهمالٍ تامٍّ للتجارة الداخلية!

وأقرَّ سميث حقيقةً مهمةً عندما ذكر أنَّ إقامة المستعمرات في البلدان الخارجية، ناتجة عن هذا الفكر الذي يبحث دائمًا عن أسواق يصدِّر لها سلعَه ويحصل منها على الذهب والفضة.

---

٧٦ - آدم سميث، مصدر سابق.

نظرة على الفيزيوقراط

لم يكن النظام التجاري نتاجًا لمُنَظِّرين قد قعَّدوا له وخططوا بقدر ما كان تسلسلًا من الممارسات التي غذتها شهوة الثراء عند التجار، لكنَّ المذهب الطبيعي كان له منظِّروه كما ذكرنا، وهؤلاء الأرستقراطيون الفرنسيون كانوا يحظون باحترامٍ شديد لدى سميث، فرغم انتقاده لبعض أفكارهم، أطرى عليهم كثيرًا، ففي مطلع الفصل الذي تكلم فيه عن مذهبهم قال واصفًا أفكارهم: "... لم يأخذ بها أحدٌ حسب علمي، ولا توجد حاليًّا إلا في أفكار عددٍ قليلٍ من رجالٍ عُرِفوا بسعة علمهم ونبوغهم في فرنسا... لذلك سأحاول أن أوضحَ الخطوط العريضة لهذا النظام الذي أبدعَ كثيرًا من جاؤوا به".

أشار سميث في البداية إلى أنَّ هذا الفكر كان ردة فعل لأفكار مذهب التجار التي سيطرت على أوروبا تلك الفترة، والتي طُبِّقت على فرنسا وسياساتها الداخلية، ففي عهد كولبرت وزير لويس الرابع عشر، انصبَّ الاهتمام بنشاط المدن الذي يغذي التجارة الخارجية، وأُهمل الريف والزراعة، ومُنع تصدير القمح وفرضت الضرائب والقيود على الأنشطة الزراعية. فقد كان كولبرت هذا من معتنقي أفكار الميركانتيليزم.

أشاد سميث بأفكار الفيزيوقراطيين في طلبهم لحرية الأسواق وإلغاء القيود والتوجيهات وترك القانون الطبيعي يعمل، فهذا الجوهر يشبه كثيرًا إن لم يطابق منظومة آدم سميث الحرة. وأشاد أيضًا بفكرة الاهتمام بالناتج وليس الذهب والفضة. لكنه انتقد في أفكارهم وصفهم للحرفيين والصناع والتجار بالطبقة العقيمة مشيرًا إلى أن هذه الفئات تشارك في الإنتاج وتتكامل مع الزراعة، بل إنَّ دولةً تعتمد على الصناعة والتجارة

تكون أغنى في رأيه من تلك التي تعتمد على الزراعة فقط. لكن العلاقة الطبيعية والرشيدة بين تلك الأنشطة هي علاقة تكاملية لا يستغني فيها طرف عن الآخر.

في المجمل أشاد سميث بنظام الفيزيوقراطيين وقال: لكن هذا النظام بكل ما فيه من عيوب ربما هو الأقرب إلى الحقيقة التي نعرفها في الاقتصاد السياسي، ولهذا فهو جديرٌ بأن يدرسه كل من يرغب في التعرف على مبادئ هذا العلم... فهو عند تصويره لثروة الأمم على أنها لا تتكون من الأموال بل بالسلع المستهلكة التي تُنتج سنويًّا، وفي تصويره للحرية التامة على أنها الوسيلة الناجحة الوحيدة لجعل هذا الإنتاج السنوي أكبر ما يمكن، يبدو عادلًا ومنصفًا بقدر ما هو سخيٌّ وحُر".

دور الدولة

لا يخفى عليك الآن، وقد قرأت هذا القدر من أفكار سميث، كم كان يفضل ترك النشاط الاقتصادي حرًّا يعمل وفقًا للآليات التلقائية التي ذكرها، وعلى هذا فإنَّه قد قلَّل من دور الدولة وحصره في ثلاث نقاط: أولًا، عليها القيام بالمشروعات والأشغال العامة الضرورية للمجتمع والتي لا تهدف إلى ربح، كالتعليم والصحة والمرافق... ثانيًا: حفظ الأمن الداخلي وإقامة العدالة. ثالثًا: الدفاع ضد العدوان الخارجي.

وهذه الوظائف الثلاث هي الضامن لاستقرار النشاط الاقتصادي الحر، فهذا النظام الآلي يفسد في غياب الأمن والعدالة، ويفسد بالطبع لو انهارت البلاد على يدِ أعدائها. من زاوية أخرى تقوم الدولة بالدور الوحيد الذي لا يمكن لمنظومة السوق الحرة القيام به، وهو المشروعات

غير الهادفة للربح، فتتكامل بهذا الدولة مع منظومة سميث.

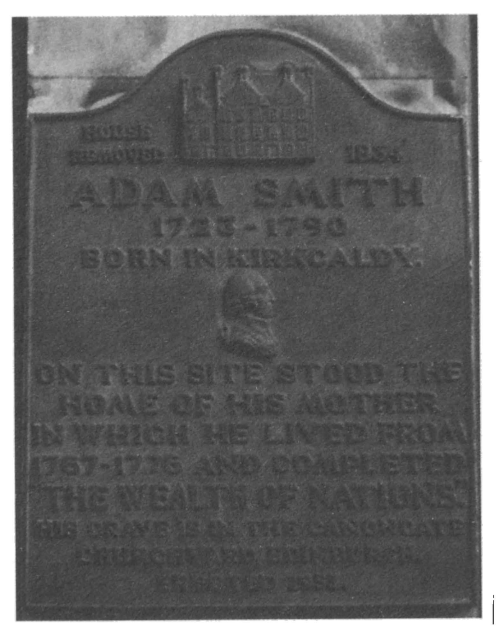
وأشار سميث على الدولة بعدم الإفراط في الاستدانة من مدخرات أفرادها بالشكل الذي قد يعطل حركة تراكم رؤوس الأموال، وعليها أن تراعي في فرض ضرائبها أولئك الذين يُنظر إليهم ككبار ملاك رؤوس الأموال، فهم المحرك الأساسي لعجلة الاقتصاد.

اليد الخفية

إذا أردنا أن نعبر عن جوهر منظومة آدم سميث التي يراها هي الأكفأ في تحقيق الثروة والنمو للمجتمع، فلا أفضلَ من تعبيره هو نفسه عندما استخدم لفظة "اليد الخفية". هذه أشهر استعارة في تاريخ الاقتصاد، وهنا يجب أن أذكر لك شيئًا لا يذكره كثيرٌ من الاقتصاديين الذين يتناولون أفكار الرجل. إنَّ سميث استخدم هذه الاستعارة نفسها في كتابه الأول "نظرية المشاعر الأخلاقية" وهذا يشير إلى أمرٍ مهم، فالرجل في الأصل دارسٌ للسلوك والأخلاق، فيبدو أنَّه رأى في تصرفات الإنسان التي لا تنطلق إلا من دافعٍ ذاتي، تكاملًا وتوافقًا يحقق في النهاية غايةً مجتمعية أسمى، وذلك في شتى النواحي، وليس فقط الاقتصادية، لذلك تراه في منظومته، ينطلق من تقسيم العمل الذي نشأ أصلًا عن الطبيعة البشرية بهدف رغبة كل فرد في تحقيق مصلحته، ثم يصل إلى آلية سوقٍ حرة لا يحركها إلَّا المصلحة الخاصة ذاتها. فهذا الإنسان الذي ينتج سلوكُه النشاطَ الاقتصادي، يُحقق المصلحة العامة الكلية من حيث لا يدري عندما يرغب في تحقيق مصلحتِه الخاصة، وهذا التوجه غير المقصود، وصفه سميث بأنَّ يدًا خفيةً قد قامت به!

هذا الرجل الأنيق الذي ترنَّم بهذه الآلية الحرة، عُيِّن بعد نشر الكتاب مفوضًا للجمارك في إدنبره! وقد أشعلت الوظيفةُ فتيلَ عقله الساخط أصلًا على هذه الإجراءات التقييدية، فجعل ينتقد سياسات بريطانيا ويصفها بأنها اعتباطية فاشلة.

في يوليو عام ١٧٩٠م وبينما كان سميث يقضي أمسيةً ماتعة مليئة بالجدال وعرض الآراء، أحسَّ بتعبٍ مفاجئ، فأجَّلَ هذه النقاشات زاعمًا أنَّ لها بقية، وذهب إلى بيته ليرتاح في فراشه. لكنَّ هذا الفراش أبى أن يفارقه سميث إلا إلى قبره، فمات آدم سميث بعد أيام قليلة قضاها في فراشه، لكنَّ موتَه لم يطوِ صفحته...



لوحة تذكارية لآدم سميث في مسقط رأسه كيركالدي

الفصل السابع

معاناة تشارلز ديكينز

إنها مدينةٌ من الطوبِ الأحمر، أو من الطوبِ الذي كان من الممكن أن يكون أحمر لو أنَّ الدخان والرماد سمحا بذلك. أمَّا الواقع فقد جعلها مدينةً يجتمع لها الأحمر والأسود بصورةٍ غريبةٍ كأنَّها وجهٌ متوحشٌ ملطخٌ بالدماء، وهي مدينةُ آلات ومداخن طوال تخرج منها أفاعٍ لا نهاية لها من الدخان... وفيها قناةٌ سوداء ونهرٌ يجري ماؤه قرمزيًّا لما يخالطه من أصباغ كريهةِ الرائحة، وفيها أبنيةٌ كبيرة متراصَّة ممتلئة بالنوافذ لا ينقطع فيها الضجيج والارتجاج طوال النهار، وفيها أسطوانات الآلات البخارية التي لا تتوقف عن الحركة بصورةٍ رتيبةٍ كأنَّها رؤوس مجموعةٍ من الفيَلة التي أصابها الاكتئاب والجنون، وفيها بضعة شوارع كبيرة متشابهة، وكثيرٌ من الشوارع الصغيرة أشد تشابهًا. هذه المدينة مأهولة بأناسٍ كلهم متشابهون، يخرجون ويدخلون في ميقاتٍ واحد، ولخطواتهم على الأرض صوتٌ واحد، ويذهبون إلى عملٍ واحد، أيامهم متشابهة وكذلك أعوامهم.

أترى كم البؤس الذي تنضح به كلماتُ تلك الفقرة السابقة الكئيبة التي تصفُ مدينةً وسكانَها، هذه هي الكلمات التي اختارها روائي إنجلترا الأول تشارلز ديكينز ليصفَ مدينة كوكتاون التي تدور فيها أحداثُ روايته "أوقات عصيبة".

كانَ ديكنز أفضلَ من جعل للعالم عينًا على حال الطبقات الدنيا للمجتمع الإنجليزي في العصر الفيكتوري، وكان له السبقُ في تعريف العالم أجمع بأولئك العمال الذين أطلق عليهم في روايته هذه "الأيدي".

وُلِدَ تشارلز جون ديكنز في فبراير عام ١٨١٢م في حي لاندبورت في ميناء بورتسموث جنوب إنجلترا. كان أبوه موظفًا بسيطًا في المدينة، وقد أنجب من زوجته السيدة إليزابيث سبعةً غير تشارلز الذي كان ترتيبه بينهم الثاني في استشرافهم للدنيا. لم يستطع الأب إعالة هذه الرؤوس العشرة بدخله الزهيد، فاستدان ولم يوفِّ، وانتهى به المطاف إلى السجن، فترك تشارلز المدرسةَ ليعمل حتى تستطيع الأسرةُ المسكينةُ إبقاء بطونها صامتةً، وبالكاد نجحوا في هذا.

كان عُمر تشارلز عندما عمل في أحد المصانع ١٢ عامًا تقريبًا، وهي سنٌّ مبكرة جدًّا ليرى صاحبها ما رآه هذا الفتى المسكين. لذلك تركت هذه المعاناة أثرًا أعظم من ذلك الذي تتركه في قلوب العمال البالغين، وتعرَّف على العالم الذي لطالما صوَّره في كتاباته التي تُرجمت لشتى لغات العالم. وقد مات في يوليو عام ١٨٧٠م ودفن في ركن الشعراء في ويستمنستر في قبرٍ كُتبَ على ضريحه: كان متعاطفًا مع الفقراء والمكروبين والمقهورين، وبوفاته فقدَ العالمُ أحد أعظم كُتَّاب إنجلترا. والآن قبل أن تنسى أنَّك تقرأ كتابًا يناقش تاريخ الفكر الاقتصادي، دعني أسألك:

ما الذي جعل ديكنز يتكلم عن مدن إنجلترا في النصف الأول من القرن التاسع عشر بهذا القدر من المعاناة؟ كيف تحولت إنجلترا إلى هذا الواقع القاسي بعد الثورة الصناعية التي جعلتها أغنى دول العالم؟

مات آدم سميث بعد أن خلق للاقتصاد هيكلًا معينًا، فصارت له مواضيعه الخاصة التي يجب على كل منشغلٍ بالاقتصاد أن يهتم بها عرضًا وتحليلًا، وهنا تكمن أهمية "ثروة الأمم" الحقيقية، فالأفكار التي آمن بها سميث في ذاتها تقبل الخلاف، أمَّا الذي لا يمكن أن يختلفَ عليه أحد أو يخفي إعجابه به، هو تأسيسه لهذا البناء الذي صارت له أبوابه الخاصَّة.

أتذكر ديفيد هيوم الذي كان سببًا في عملِ سميث مؤدِّبًا لدوق باكلو الشاب، كان لديفيد صديق شخصي يُدعى دانيال مالتس، وكان رجلًا إنجليزيًّا أرستقراطيًّا. في العام ١٧٦٦م رُزِقَ دانيال هذا بتوماس. وأضيف إلى قوائم السكان في إنجلترا اسم الوليد توماس روبرت مالتس.

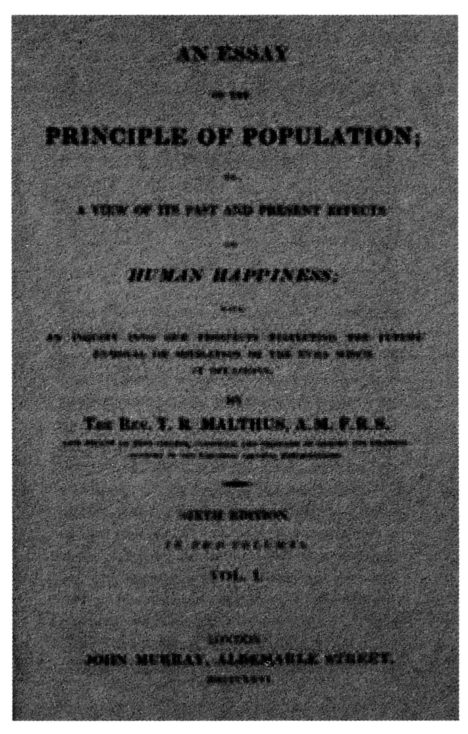
حظي الفتى بتعليم منزلي رفيع المستوى حتى التحق بالكلية اليسوعية في جامعة كامبردج عام ١٧٨٤م حيث درس الفلسفة والعلوم وعلى رأسها الرياضيات، وقد لفت الأنظار وفاز بجوائز للخَطابةِ باللغات اليونانية واللاتينية والإنجليزية[٧٧]. وفي العام ١٧٩٣م عاد للعمل في الكلية اليسوعية. وهذه العلاقة بالكلية اليسوعية هي التي جعلته مشهورًا بين كل أقرانه فيما بعد بالقس الاقتصادي.

في العام ١٧٩٨ نُشِرَ لمالتس "مقال عن السكان" وهو العمل الذي تسبب في شهرته وحجز له مكانًا في تاريخ هذا الفكر، رغم أن له مؤلفًا آخر في أصول الاقتصاد السياسي. وهذه الشهرة التي نالها مالتس لم

---

٧٧ - تود جي باكولز، أفكار جديدة من اقتصاديين راحلين.

تكن شهرةً إيجابية تحمل إليه المديح، بل كانت في كثير من الأحيان تحمل عليه الهجوم والسخرية، والسبب في هذا هو نظريته السوداء التي احتواها كتابه.


AN ESSAY

PRINCIPLE OF POPULATION;

A VIEW OF ITS PAST AND PRESENT EFFECTS

HUMAN HAPPINESS;

THE REV. T. R. MALTHUS, A.M. F.R.S.

SIXTH EDITION

VOL. I.

LONDON:
JOHN MURRAY, ALBEMARLE STREET.

صورة لمقال مالتس عن السكان عام ١٨٢٦

قضت نظرية مالتس بأنَّ عدد السكان يتوقف على الموارد الغذائية، لكن عدد السكان يتزايد وفقًا لمتوالية هندسية (٢، ٤، ٨، ١٦، ...) في حين تتزايد موارد الغذاء وفقًا لمتتالية حسابية (٢، ٤، ٦، ٨، ...)، على هذا فإن هناك كارثة تلوح في الأفق لا مناص منها، فقصعة الطعام التي

يقتسمها فردان اليوم، سيتقاتل عليها عشرات في يومٍ ما في المستقبل. وحتى يتحقق التوازن بين السكان والغذاء ويهرب المجتمع من تلك الكارثة فالأمل معقود بالأمراض والأوبئة والمجاعات والكوارث الطبيعية، فهذه الحلول التي أطلق عليها مالتس "جيش الدمار العظيم" من شأنها أن تقلل عدد السكان وتعيد التوازن. أمَّا غير هذه الكوارث، فليس أمام السكان إلَّا الاعتماد على تأخير الزواج والالتزام بالعفة. وعليه يجبُ ألَّا تسرف الدولة في مراعاة الفقراء والتوسعة عليهم، لأن هذه التوسعة من شأنها إتاحة قدر من الرفاهية التي تجعلهم يتزوجون، وهذا الزواج يترتب عليه إنجابٌ سيضر بالمجتمع ككل ويعجِّل من الاصطدام بحاجز النقص الغذائي!

أريدك أن تعود الآن وتقرأ الفقرة السابقة لترى كم مرة تكررت كلمة كارثة!

يقول مالتس:

"يبدو أن المجاعات هي المنقذ الأخير، مع أنها أكثر موارد الطبيعة ترويعًا. إن قوة تعداد السكان تفوق كثيرًا قدرة الأرض على إنتاج اللازم لحد الكفاف للإنسان، وبالتالي لا بد من الوفاة المبكرة أن تزور الجنس البشري بشكلٍ أو بآخر. وتعد رذائل البشر أداة فعالة وقوية لتقليص عدد السكان؛ فهي رسل جيش الدمار العظيم، وهي دائمًا تنهي المهمة العظيمة بنفسها، لكن في حال فشلت في حرب الإبادة هذه، فإن مواسم الجفاف والأوبئة والأمراض والطاعون تتقدم في عرضٍ مخيف لتحصد آلافًا وآلافًا من الأرواح. فإذا لم يحدث النجاح، تتهادى المجاعة الرهيبة

المحتومة في مؤخرة الجيش. وبهجمة واحدة قوية، تجعل تعداد السكان معادلًا للموارد الغذائية العالمية[٧٨].

هذا الرُّعبُ هو موجز نظرية مالتس عن السكان، والتي خلدت اسمه في كل الأدبيات التي أرَّخت لعلم الاقتصاد، وهذه النظرة القاتمة شغلت جزءًا كبيرًا من الفكر الاقتصادي البريطاني ردحًا من الزمن.

لا ينكر أحدٌ أن مالتس في البداية لم يكن دقيقًا في استنتاجاته ولا في مصادرها، لذلك أعاد بحثه وأصدر نسخة جديدةً من نظريته قوَّمها بمصادر أقوى بعدما قام برحلات إلى السويد والنرويج وفنلندة وروسيا وفرنسا وسويسرا، لدراسة السجلات والقوانين المدنية بتوسع، ثم حالفه في رأيه تعداد سكان بريطانيا ذاتها الذي صدر رسميًّا عام ١٨٠١ م، ليكشف أن عدد السكان في أواخر القرن الثامن عشر قد زاد بشكل مهول.

وإن رأينا في عمله جهدًا من جانب الدراسات السكانية، فالرجل قد أهمل جانب الغذاء والموارد والتحديثات والتكنولوجيا بشكلٍ يدعو للسخرية!

وإذا أردنا أن نأخذ جانبًا تطبيقيًّا من هذه النظرية فسيكون، عدم مساعدة الفقراء حرصًا على المصلحة العامة. فقد تبنَّى رئيس الوزراء البريطاني عام ١٨٠٠م وجهة نظر مالتس وسَحَبَ دعمه لمعونة الفقراء التي دافع عنها من قبل أمام البرلمان، والسبب في ذلك هو أن هذه المعونة تشجع الفقراء على الإنجاب وبالتالي تعجِّل من الكوارث التي ذكرها مالتس والتي من شأنها أن تحصد أرواح الآلاف!

---

٧٨ - مالتس، مقال عن السكان.

كيف تعتني حكومات تتبنَّى مثلَ هذه الأفكار بالصبي تشارلز ديكينز الذي اضطر للعمل في هذه السن؟!

حتى إصلاحات من أطلق عليم "مصلحون اجتماعيون" كانت مجرمة في حق الواقع ومُضحكة لقارئ التاريخ قاسي القلب. فقد قام المصلح الاجتماعي دافيد ديل بشحن الأطفال من ملاجئ غلاسجو وإدنبره إلى عنابر المصانع ليعملوا ١٣ ساعة في اليوم!

ما رأيك في هذا الإصلاح العظيم؟

أما الرجل الأشهر الذي عاصر مالتس، والذي يُعدُّ الرجل الثاني في جماعة الاقتصاد الكلاسيكي بعد آدم سميث فهو ديفيد ريكاردو. الرجل الذي لم يتلقَّ التعليم الذي تلقاه مالتس قط، لكنَّه نزل إلى ميدان العمل مبكرًا ومارس نشاط الاستثمار في البورصة حتى حقَّقَ ثروةً قبل أن يتم عقده الثالث وصار رجلًا من ملاك الأرض!

ولد ديفيد ريكاردو عام ١٧٧٢م في إنجلترا لمهاجر هولندي، وواحدٍ من قلةٍ من اليهود الذين سُمح لهم بأن يمارسوا السمسرة في بورصة لندن. ونشاط أبيه هو الذي أكسبه تلك المهارة التي مكنته من تأسيس شركة استثمار في الأسهم والسندات وتكوين ثروته مبكرًا.

في منزله الرحب في ضيعته التي اشتراها، بدأ ريكاردو يكتب في الاقتصاد، وسرعان ما لفت الأنظار بذكائه وقوة حجته. حتى ألحَّ عليه جيمس مِل[٧٩] أن يترك عزلته وينصهر في المجتمع الفكري في لندن، وبالفعل تحوَّل ريكاردو بعد ما انصاع لنصيحة جيمس مِل إلى نموذج

٧٩ - James Mill فيلسوف اسكتلندي كبير، ومن مشاهير تلك الحقبة، وله إسهامات في القتصاد السياسي ومؤلفٌ ضخم في تاريخ الهند، وهو والد جون ستيورات مِل. توفي عام ١٨٣٦.

للسيد الإنجليزي[٨٠]. وفي العام ١٨١٧م كتبَ ريكاردو "مبادئ حول الاقتصاد السياسي" بعد أن درسَ أفكار سميث.

التزم ريكاردو بالهيكل العام الذي وضعه سميث كأساس لجوانب الاقتصاد، ولم يُدخل عليها بابًا جديدًا، فتكلم عن القيمة وعوامل تكوينها، ثم توزيعها في صورة أجور وإيجار وربح. لكنَّ عَرْضَ ريكاردو لم يكن بوضوح عرض سميث، بل شابه كثيرٌ من الغموض.

رأى ريكاردو أن قيمة الأشياء التي لا يمكن تكرارها تكمن في ندرتها، وفصل بينها وبين الأشياء التي يمكن إنتاجها وإتاحتها بشكل متكرر. وهذه الرؤية جديرة بالاحترام بسبب إضفاء جانب أكبر من الاهتمام على الندرة في علم الاقتصاد الذي صار تعريفه يُعنى بالندرة في المقام الأول فيما بعد. أما الأشياء التي تنتج باستمرار فقيمتها تتوقف على كمية العمل المبذول فيها كما أقرَّ سميث.

أما من جانب كيفية توزيع هذه القيمة إلى أجور وإيجار وربح، فثمة إضافات لريكاردو جديرة بالذكر، يمكن إيرادها على النحو التالي:

عرَّفَ ريكاردو الأجور بأنها الثمن اللازم لتمكين الكادحين من البقاء والاستمرارية في كدحهم دون زيادة أو نقصان. وقد بيَّن ريكاردو أن سعر العمل الحقيقي أو الأجور الحقيقية تُقاس بحجم السلع اللازمة لبقاء العامل حيًّا، وميز بين هذا السعر الطبيعي وبين سعر السوق.

ومعنى بلا زيادة أو نقصان أن هذه الأجور يجب أن تتوازن دائمًا عند حد معين. وبهذا التعريف البسيط قضى ريكاردو على العمال بالبؤس الدائم. فعندما ترتفع الأجور يزداد عدد السكان والعمال، الأمر الذي

---

٨٠ - تود جي باكولز، مصدر سابق.

يدفع الأجور إلى الانخفاض مرةً أخرى، ليس فقط إلى حالها الأول، بل إلى مستوى أقل أحيانًا. وعلى هذا فقد تحالف ريكاردو مع مالتس على الفقراء من جانب جديد، وحوَّل الأجور المنخفضة إلى أغلال حديدية لا يمكن للعمال الفكاك منها أبدًا، وهذا المبدأ هو الذي أُطلق عليه "قانون الأجر الحديدي" الذي صرخ في وجه "الأيدي" بأنَّ أي سعة قد يحصلون عليها ستعود عليهم بفقرٍ أقسى من فقرهم الحالي!

يقول ريكاردو في كتابه: "عندما يتجاوز سعر العمل في السوق سعره الطبيعي يسعد العامل وتزدهر ظروفه ويغدو بمقدوره الحصول على حصة أكبر من ضروريات ومتع الحياة، ورعاية أسرة أكبر... ويتزايد السكان ويزداد عدد العمال، ويتبع ذلك انخفاض في الأجور إلى معدلاتها الطبيعية وأحيانًا إلى ما دون ذلك كردة فعل على الوضع المستجد"[٨١].

ومهما تكلم ريكاردو عن سبل الراحة التي يجب أن تتوفر للعمال، أو عن الفرق الإيجابي في حياة العمال الذي قد تحدثه التكنولوجيا والتراكم الرأسمالي، ومهما تكلم بشكلٍ من الشعارات الغامضة عن مسببات ترفع قيمة العمل السوقية على المدى البعيد، فإنَّ العالم الذي تلقى كتاباته لم يتأثر إلَّا بهذا البؤس الذي صبغَ به حياة العمال، وإلى يومنا هذا تنصرف الأذهان أول ما تنصرف عند ذكر ديفيد ريكاردو إلى قانون الأجر الحديدي.

وأمَّا ريع الأرض أو إيجارها فقد عرَّفه ريكاردو بأنَّه ذلك الجزء الذي يُدفع لمالك الأرض مقابل استخدام ما تتمتع به تربتها من قدرة. وهنا يركز ريكاردو على أن مقصده من القدرة هو قوى الأرض الأصلية غير القابلة للإهلاك والتلف. لذلك هو يميز بين مفهوم الريع عنده

٨١ - مبادئ حول الاقتصاد السياسي، ديفيد ريكاردو.

وبين المفهوم نفسه عند آدم سميث الذي قد ينصرف إلى مُنتَج الأرض. لذلك فهو يؤكد في كتابه فيقول: "في الصفحات التالية من هذا العمل عندما أتحدثُ عن ريع الأرض آمل أن أُفهم بأنني أتحدث عن تعويض يُدفع لمالك الأرض مقابل استخدام قواها الأصلية السليمة، أي غير القابلة للتدمير أو الاهتلاك"[٨٢].

ولَمَّا كانت مساحات الأرض تندر نسبيًّا أمام الزيادة السكانية، فإنَّ هذ الريع يرتفع بزيادة الضغط السكاني. وهنا أشار ريكاردو أنَّ ارتفاع الأسعار لا يمكن أن يُتهم فيه ريع الأرض كجزء من تكوين السعر، بل إن الازدهار والزيادة السكانية هما السبب في ارتفاع هذا الريع في المقام الأول. وأشار ريكاردو إلى أن ندرة الأرض ستدفع بالضرورة إلى استغلال الأراضي قليلة الجودة ثم الأقل وهكذا حتى يصل بنا شح الطبيعة إلى أن يكون عائد هذه الأرض هو بالكاد حد الكفاف للمزارعين العاملين فيها. وهو بؤسٌ من نوعٍ جديد.

وهنا أشار ريكاردو إلى أنه في حالة تقييد الأسعار لنفس المنتج بغض النظر عن الجودة، فإنَّ المُزارع تتقلص عوائده، لأن الأراضي ذات الجودة الأعلى يكون ريعها أعلى من الأراضي ذات الجودة الأقل، لكن منتج كلا الأرضين يُباع بنفس السعر، في حين دفع مزارع الأرض الأولى أكثر مما دفع مزارع الأرض الثانية الأقل جودة.

أما أكثر جوانب نظرية ريكاردو غرابةً وغموضًا فهي رؤيته للربح الذي يعود على الرأسمالي، وقد أصابني صداعٌ كاد أن يفتك برأسي عندما أردت أن أفهم كلامه في الفصل الذي خصصه للأرباح، وتحول هذا الصداع إلى غضبٍ عندما تيقنتُ أن ريكاردو كتب في الفصل كلامًا

٨٢ - ديفيد ريكاردو، المصدر السابق.

كثيرًا لا يُمكن أن يُفهم أبدًا، حتى ظننتُ أنَّه لو قرأه هو لما فهمه. ووددت لو عاصرتُه حتى أرسل له خطابًا أتوسل إليه فيه ألا يكتب، لأن كتابته سيئة جدًّا.

فالرجل في مطلع الفصل جعل القيمة تتوقف على تكلفة العمل عند الحد الذي لا يوجد فيه ريع، وهو بذلك قد أغفل الربح أصلًا، ثم تراه يتكلم عن الربح كعائد للرأسمالي!

على هذا فهو يقحم الربح في الهامش المخصص للأجور، ويبني بينهم علاقةً عكسيةً بالضرورة. ولا أرى تفسيرًا لهذا اللغط والغموض أفضل من تفسير جون كينيث جالبريث عندما قال: "وقد حاول الباحثون منذ أيام ريكاردو أن يجدوا عنصرًا له مغزى في رؤيته للأرباح. وكانت مشكلتهم هي أن تفسيره كان مضطربًا بصورة تدعو إلى الدهشة، فيبدو أنَّه وجد صعوبةً كبيرة في خلق متسع للأرباح في نظريته. لأنه إذا كانت قيمة الناتج تتحدد بالتكلفة التي يستوجبها العمل اللازم، عند الهامش الذي لا يوجد فيه ريع، وحيث يكون الفائض قبل الهامش هو الريع، فعندئذ لا يبقى شيء ليكون عائدًا على رأس المال... ولكن من الواضح أن هذا العائد موجود وريكاردو بغموضٍ في لغته يعزوه إلى العمل"[٨٣].

فالربح عنده ليس مقابلًا مُستحقًّا لمخاطرة توظيف المال في نشاط دون غيره، رغم أنَّه في مواضع أخرى من الكتاب يذكر هذا بمنتهى الوضوح، بل هو -وفقًا لرؤية كينيث- العائد على الآلات والأدوات والمصانع التي قد شُيدت في الماضي وتشارك في العملية الإنتاجية اليوم.

وهنا تفصيلة مهمة، فهذه الآلات وإن كانت مملوكة اليوم لأحد الرأسماليين فهي في الأصل من إنتاج مجموعة من العمال، وهذا يعني

٨٣ - جون كينيث جالبريث، مصدر سابق.

بشكلٍ مباشر أنَّ إسهام هذه الآلات في تكوين القيمة النهائية للسلعة هو مساهمة من العمال في الأساس وليس من الرأسمالي، وبالتالي فعائد هذه الآلات هو في الأصل حقٌّ مؤجلٌ للعمال من عملٍ سابق.

هذا التحليل كان أثمن هدية أهداها رجل لخصومه في التاريخ، وستدرك هذه المبالغة جيدًا عندما تصل إلى الفصل الذي نتناول فيه آراء الثائر ماركس.

ثمَّة نقطتان مهمتان خصَّصَ ريكاردو لكل واحدة منهما فصلًا مستقلًّا؛ التجارة الخارجية، وتعليق موجز على قوى العرض والطلب.

بخصوص النقطة الأولى، حثَّ ريكاردو على التجارة الخارجية وأسهب في شرح مميزاتها بأمثلة رقمية، وفي بيان فعاليتها في تحقيق الربح لرأس المال، وفي الوقت ذاته تحقيق أعلى نفع للمستهلكين، وكرَّر كلام سميث عن تقسيم العمل والتخصص بين الدول في سياق تجارة حرة لا تقيدها الحواجز، فقال: "في ظل نظام تجارة حرة نموذجي يكرس كل بلد رأسماله وعمالته في توظيفات أكثر نفعية له، ومما يدعو إلى الإعجاب أن يربط هذا السعي نمو المنفعة الفردية بالخير العام للجميع... عبر هذا المبدأ نجد أنَّ مكان صناعة الخمور هو فرنسا والبرتغال، والذرة في أمريكا وبولونيا، والمعادن وسلع أخرى تُصنَّع في إنجلترا"[٨٤].

وقد كانت الفترة التي تبعت الحروب النابليونية تشهد صراعًا مهمًّا بين ملاك الأراضي الأرستقراط، وبين أصحاب المصانع البرجواز. فبسبب الحرب انعدمت تقريبًا التجارة الدولية، الأمر الذي رفع أسعار الحبوب في إنجلترا، ومع اقتراب الحرب من نهايتها خشي ملاك الأراضي من انخفاض أسعار الحبوب بسبب عودة التجارة الدولية الحرة. وهذا

---

٨٤ - ديفيد ريكاردو، مصدر سابق.

بالضبط ما كان يتمناه أصحاب المصانع الذين إذا انخفضت أسعار الحبوب تنخفض متطلبات الحياة للعمال وبالتالي تنخفض أجورهم. وقد انتهت هذه المعركة لصالح ملاك الأراضي الذين استطاعوا أن يدفعوا البرلمان إلى إقرار قانون منع استيراد الحبوب بأقل من سعر محدد عام ١٨١٥ م[٨٥]. وهذا هو ما أزعج ريكاردو فزادت ضراوته في مهاجمة فرض القيود على التجارة الدولية.

لكنَّ ريكاردو عندما تناول هذا الموضوع تفرَّد في شرحه لتقسيم العمل الدولي بشكلٍ يأخذ في الاعتبار "تكلفة الفرصة البديلة" للمرة الأولى، وفي نظري هذا أفضل إسهام لريكاردو في كل ما كتبه في الاقتصاد. وكالعادة شَرَحَها الرجل بغموضٍ. لكن يمكننا ببساطة أن نعبر عن رؤيته هذه بأنَّ على الدول أن تتخصص في المنتجات بناء على "التضحية الأقل" فمثلًا لو أنَّ مصر حتى تنتج وحدة من المنتج (أ) تضحي بإنتاج وحدتين من (ب)، وكانت تونس حتى تنتج وحدةً من (أ) تضحي بثلاث وحدات من (ب). فحتى لو كانت تونس تنتج (ب) بتكلفة أعلى من التكلفة المطلوبة لإنتاجه في مصر، يجب أن تتخصص مصر في المنتج (ب) وتترك تونس تتحصص في المنتج (أ). هذا من شأنه أن يزيد حصيلة الدولتين من المنتجين.

جديرٌ بالذكر -في سياق البؤس الذي أنتجته أفكار ريكاردو- أن اتباع بريطانيا لسياسة حرية التبادل التجاري الدولي وخاصةً في السلع الزراعية أدى بشكلٍ مباشر إلى كارثة في الجزيرة الآيرلندية التي كانت محط قلاقل مستمرة لبريطانيا، ففي منتصف القرن التاسع عشر فتكت المجاعات بالشعب الآيرلندي بسبب هروب الحبوب عن طريق التصدير

٨٥ - تود جي باكولز، مصدر سابق.

إلى الخارج، بالشكل الذي أصاب البلد نفسه بشحٍّ في الغذاء تحول إلى مجاعة خُلِّدت في التاريخ باسم المجاعة الكبرى. أمَّا حكومة بريطانيا، فقد كانت وقتها تتبنى أفكار ريكاردو وأصدقائه ولا تترك قيودًا على حركة تلك السلع، حتى وإن مات الناس جوعًا!

أما النقطة الثانية التي أفرد لها ريكاردو فصلًا قصيرًا في كتابه، هي مدى تأثير العرض والطلب على السعر السوقي. فهو يقرُّ بأثر الكمية المعروضة من السلعة على تحديد سعرها في السوق، ويقرُّ بأثر حجم المطلوب منها. لكنَّه بيَّنَ أنَّ هذا الأثر قصير الأجل، غير دائم، وليس هو المتحكم الفعلي على المدى الطويل الذي يحدد سعر السلعة في السوق، بل الكُلفة هي المحدد الرئيس للأسعار. فعلى المدى الطويل لا تتوقف الأسعار إلَّا على التكلفة، أما قوى العرض والطلب فهي تؤثر أثرًا محدودًا.

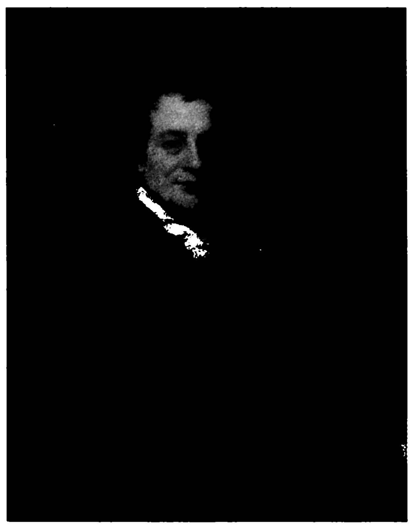
خفِّض كلفة إنتاج القبعات وسينخفض سعرها في النهاية إلى السعر الطبيعي على الرغم من أن الطلب يجب أن يتضاعف مرتين أو ثلاث أو أربع مرات... إنَّ الرأي القائل بأن السعر يعتمد على التناسب بين العرض والطلب قد أصبح قولًا مأثورًا في الاقتصاد السياسي، وكان مصدر الكثير من الأخطاء في ذلك العلم[٨٦].

والآن علينا أن نسترجع تحليل ريكاردو لأقسام التوزيع الثلاثة من زاوية عالم ديكنز، لنرى أنَّه أقر إن الأجور المنخفضة لا سبيل لزيادتها لأن هذه الزيادة ستزيد الوضع بؤسًا، ورأى أنَّ الأراضي تتعرض لندرةٍ نسبةً لحجم السكان المتزايد، الأمر الذي يؤدي إلى استغلال الأراضي قليلة الجودة ثم الأقل، حتى تُستخدم أراضٍ تكفي بالكاد بقاء عمالها على حد الكفاف، وأخيرًا هؤلاء العمال الفقراء الذين يعملون في صناعة

٨٦ - ديفيد ريكاردو، مبادئ الاقتصاد السياسي.

الآلات وتشييد المصانع يتعرضون لسرقة مباشرة من الرأسماليين الذين يجنون العائد على هذه الآلات والمصانع كأرباح.

بالطبع لو أنك تعيش في عالم ريكاردو هذا فلا أمان لك إلَّا أن تكون من أصحاب الأراضي الأرستقراطيين أو من أصحاب المصانع البرجوازيين، أما أن تكون مواطنًا عاديًّا تكدح لتتكسَّب، فإنَّك بهذا تقع تحت رحمة الأجر الحديدي والطعام قليل الجودة الناتج عن أراضٍ شحيحة إضافة إلى تعرضك للسرقة من الرأسماليين بصورة دائمة!



ديفيد ريكاردو

في العقد الأخير من القرن الثامن عشر كانت الأجواء مشتعلة بين بريطانيا وبين فرنسا الجمهورية، التي قررت بالتوازي مع أحداث ثورتها أن تفتح جبهات للحرب ضد جيرانها، وفي الفترة التي انتصر

فيها الأسطول الإنجليزي على الأسطول الفرنسي في كامبرداون، وقاد نابليون حملةً على مصر بهدف قطع تجارة إنجلترا مع الشرق[٨٧]، كان الفرنسي جان باتست ساي في هدنةٍ خاصةٍ مع بريطانيا، حيث انكبَّ على كتاب سميث وأخذ يقدم أفكاره وشروحها واختصاراتها بالفرنسية في إحدى الدوريات.

كان ساي رجل أعمال ثم أستاذًا جامعيًّا، وله مؤلفٌ في الاقتصاد السياسي، انتشرَ انتشارًا واسعًا في فرنسا وترجم إلى الإنجليزية، وبالطبع وصفه بعض المعجبين بأنه أكثر إيجازًا من كتاب سميث.

ويُعدُّ ساي أول من فصل بين المنظم وصاحب المال، يعني فصل بين الإدارة التي تباشر العمل وبين صاحب رأس المال الذي قام به النشاط، وهذا الإسهام مهمٌّ جدًّا، لكنه لم يبدُ كذلك وقتها لأنَّ الواقع كان يشغله كثيرٌ من القضايا التي تبدو أهم.

وبخصوص قضايا الواقع المهمة التي شكلتها أفكار سميث ومالتس وريكاردو، فقد كان لساي إسهامٌ مهم، وهو قانونه الذي اشتهر باسمه والذي نومئ إليه اختصارًا "العرض يخلق الطلب". وهذا القانون تغلغل في جسد الفكر الاقتصادي البريطاني حتى صار ركنًا من أركانه.

بما أن ثمن السلعة يعود في صورة أجور للعمال وإيجار لملاك الأرض وربح لأصحاب الأموال، ولما كان هؤلاء هم شرائح المجتمع الذين يشكلون المستهلكين في النهاية، فإنهم بإمكانهم شراء كل ما تم إنتاجه من دخولهم التي تعادل قيمة هذا الإنتاج. هكذا رأى ساي الواقع بمنتهى البساطة، فلا يمكن أن يحصل إفراط في العرض، لأنه بالضرورة ووفقًا

٨٧ - معركة أبي قير البحرية ١٧٩٨، التي انتهت بهزيمة نابليون على يد القائد الإنجليزي نيلسون.

للآلية السابقة سيخلق طلبًا مساويًا له. وإذا اكتنز بعض هؤلاء جزءًا من عوائدهم، فإنهم سيوجهونها إلى الاستثمار وهو جزء من الطلب العام على السلع أيضًا. وإن طال هذا الاكتناز فإنه وفقًا لآلية السوق الحرة، ستنخفض قيمة المعروض من السلع حتى توافق حجم الطلب الناتج بعد الاكتناز، وهكذا.

في قانون ساي، لا يمكن أن يحدث فائض من المعروض بصورة دائمة (لا كساد).

وإن كان ساي بهذا القانون قد أسهم بشيء يخلد اسمه في التاريخ، فإنه بالقانون نفسه قد أسهم فيما هو أهم إذ كان سببًا في صداقةٍ بين مالتس وريكاردو!

فقد تعرض الاثنان لهذا القانون وهما وقتئذ صنما بريطانيا، أمَّا القس فقد اعترض على القانون، لأنَّ العمال الفقراء لن يكونوا عند حسن ظن ساي، وستكون قيمة السلع المنتجة أغلى من متناولهم، ومن جانب آخر أولئك الرأسماليون يميلون إلى الإمساك عن الترف أحيانًا، ولا ينفقون كل أموالهم. ومجموع هذا سيُحدِث عجزًا كبيرًا في الطلب. وكان مالتس يستشهد على إمكانية حدوث هذا الخلل بين العرض والطلب بالكساد العام الذي عانت منه البلاد في العقد الثاني من القرن التاسع عشر كنتيجة للحروب النابليونية، والذي ظهر فيه عجزٌ واضحٌ للطلب أدى إلى زيادة معدلات البطالة في النهاية.

إذا ادخر المستهلكون فسوف يودعون أموالهم في البنوك، وتقرِضُ هذه الأموال إلى الأشخاص الراغبين في الإنفاق على السلع أو الاستثمار، وفي كلتا الحالتين ينفقُ شخصٌ ما الأموال[٨٨]. بهذه الكلمات دافع ريكاردو

---

٨٨ - تود جي باكولز، مصدر سابق.

عن قانون ساي ودحضَ رأي مالتس. وقد كانت آراء ريكاردو تلقى رواجًا أكبر من أي آراء أخرى وقتئذ، حتى قيل: كانت تعاليم ريكاردو تغزو إنجلترا كما غزت محاكم التفتيش إسبانيا.

لذلك رغم رصد مالتس لشذوذ يحدث في الأسواق يبين عوار قانون ساي، إلَّا أن الجميع قد انصاع في النهاية لهذا الفرمان الفرنسي بعد أن دعمه ريكاردو واستدل ببعض كلمات سميث حين قال: "ما يُدخر سنويًّا يُستهلك بانتظام بقدر ما ينفق سنويًّا وتقريبًا في الوقت نفسه أيضًا، لكن... على يد مجموعة أخرى من الأشخاص".

وصار التوجه العام في بريطانيا هو التغاضي عن حالات الخلل التي تؤرق مالتس باعتبارها جزءًا من الدورة الاقتصادية التي تعيشها السوق.

وانتشرت السجالات بين مالتس وريكاردو، حتى انتهت هذه المناقشات بأن تصادقا. ليشكلا معًا قاعدة المثلث الذي كان سميث رأسه.

هذه هي الأفكار التي سادت في بريطانيا بعد سميث، وهؤلاء هم أعلامها الذين كانت رؤاهم تُترجم في صورة قوانين تطبق على المجتمع البريطاني الذي كان يأنُّ في روايات ديكينز، فمالتس وريكاردو كانا مؤثرين بشكلٍ بالغ في الأروقة التي تصدر عنها التشريعات والنصائح التي تُسدى للملكة. فعندما قبل مالتس منصبه في شركة الهند الشرقية كأستاذ للتاريخ والتجارة أصبح -للأسف- أول أستاذ متخصص في الاقتصاد في تاريخ إنجلترا. وأمَّا ريكاردو فكان رجلًا مؤثرًا في الوسط الفكري الإنجليزي، وإذا ألقى حجرًا في بركةٍ تختفي أي موجةٍ أمام موجة حجره. إضافة إلى أنَّه دخل البرلمان وكان مؤثرًا فيه، وكلهم رأوه رائد الفكر الاقتصادي عندما وقف في البرلمان معلنًا أنَّ إنجلترا ستكون ورشة عمل للعالم أجمع.

هذه الورشة التي أثار ريكاردو بذكرها إعجاب جميع الأثرياء الذين سمعوه، هي التي وصفها ديكنز في عالمه، ورشةٌ بنيت على أسس تقضي بأن أجور العمال لا يجب أن تزيد لأن هذا سيضر بهم، وأنَّ المعونات التي تُعطى إلى الفقراء يجب أن تتوقف لأن هذا يعجل من الاصطدام بحاجز نقص الغذاء الذي نظَّرَ له مالتس، وأنَّ الرأسماليين يجنون أرباحًا بسرقة كدح العاملين الذين بنوا لهم المصانع وصنعوا الآلات!

اختمرت الثورة الصناعية في بريطانيا بنهاية القرن الثامن عشر، ومع بداية القرن التالي ظهرت "المصانع" التي صارت رمزًا للعصر الفيكتوري وقادت إنجلترا نحو التقدم وفارقت بها باقي أوروبا وسبقتهم في ميدان الإنتاج، لكن هذه المصانع هي ذاتها التي وصفها ويليام بليك[٨٩] بأنها شيطانية مظلمة[٩٠].

وضعت هذه المصانع نهايةً لنظام العمل القديم الذي يعتمد على الأسرة التي يعمل أفرادها معًا، وأصبح الجميع رجالًا ونساءً يساقون في ميقات ثابت وموحد إلى المصانع والمناجم، يعملون جنبًا إلى جنبٍ مع الآلات، حتى تيبست أرواحهم بقدر ما تيبست بطونهم من فراغها، وصار بعضهم يشبه الآلات، بل إن أحدهم لا يُرى إلا كآلة إنتاج في عين السيد باوندربي في رواية ديكنز، يتمنى لو استطاع أن يقيس قدرته بالحصان. وتمكن أصحاب المصانع لأول مرة من فرض يوم عمل يستمر ١٢ ساعة، وعاش العمال في بيوتهم المتراصة التي تشبه المعسكرات.

---

٨٩ - William Blake شاعرٌ إنجليزيٌ من معاصري الثورة الصناعية (١٧٥٧ - ١٨٢٧).

٩٠ - جويس أبلبي، مصدر سابق.

ما زلتُ أذكر أستاذي الذي درست عليه هذا التاريخ عندما قال لنا إن هذا السبق الذي أحدثته إنجلترا صناعيًّا كان ثمنه جيلٌ من العمال يموتون في منتصف الثلاثينيات من أعمارهم من قسوة الحياة التي يعيشونها.

بجانب هذه المعاناة هوجم العمال من الآلات من زاوية أخرى، فقد حلت هذه الآلات محل الكثير منهم، فقد كان مغزل جيني يقوم بعمل عشرين نساجًا، لذلك أعلن العمالُ الحرب على الميكنة.

هاجم العمال الآلات في المصانع وحطموها، وحتى في الريف هاجم الزُّرَّاع المحاريث الجديدة، وانتشرت هذه الحركات المناهضة للتكنولوجيا التي سلبت من العمال طريقتهم القديمة في الحياة، حتى اضطر البرلمان إلى ضم جريمة تحطيم الآلات إلى الجرائم التي يُعاقَبُ عليها بالإعدام![٩١]

فلجأ العمال إلى تعمد تشغيل الآلات بشكلٍ خاطئ!

الثورة الصناعية التي قامت في إنجلترا بسبب زيادة الأجور انتهى بها الحال إلى سحق العمال والفقراء، رغم إنجازها الذي جعل إنجلترا رائدة ذلك الزمان صناعةً ونموًّا وتسليحًا. وهذه الجملة السابقة رأى ديكنز نصفها الأول، في حين رأى مالتس وريكاردو نصفها الثاني وافتخروا بمُنجز الاقتصاد الإنجليزي وقتها. إضافة إلى أنهم رأوا أن هذه الحياة القاسية للعمال في عصر المصانع تظل أفضل من حياتهم في الريف أو كدحهم في منازلهم مقابل أثمان رخيصة، وأنا أتعجب من ميل كينيث جالبريث لهذا الرأي رغم وصفه لهذه المعاناة بالعبودية الصناعية القاسية!

٩١ - جويس أبلبي، مصدر سابق.

هذه الصبغة سيئة السمعة التي صبغ بها هؤلاء الرجال الاقتصاد في ذلك الوقت هي التي جعلت توماس كارليل[٩٢] يطلق عليهم "أساتذة العلم الكئيب الموقرون".

ويبقى السؤال المهم الآن، كيف استقبلت باقي أوروبا هذا النظام الاقتصادي البريطاني وتعاليمه الرأسمالية الحرة؟

---

٩٢ - كاتب ومؤرخ اسكتلندي، ومفكر مشهور، ويعد واحدًا من أبرز المؤثرين في الثقافة البريطانية والأوروبية في القرن التاسع عشر، توفي عام ١٨٨١.

الفصل الثامن
البقاء للأصلح

في العام ١٨١٥ هَزَمَ تحالُفُ أوروربا جيشَ نابليون هزيمةً قاسية أنهت سيرةَ الرجل الحربية وختمتها بخاتم واترلو[٩٣]. على أثر هذه النهاية نُفي نابليون إلى جزيرة القديسة هيلينا في المحيط الأطلسي تحت رقابةٍ من بريطانيا العظمى، وظلَّ بها حتى مات عام ١٨٢١[٩٤].

وأخيرًا، ارتاحت أوروبا من السيئة الكبرى للثورة الفرنسية.

يُمكن تناول القرن التاسع عشر -بعد هدوء أحوال أوروبا- من ثلاث زوايا مختلفة: الزاوية الأولى هي نضج النظرية الاقتصادية البريطانية ووضوح أفكارها واستكمال بعض نواقصها، ووضعها في القالب الذي صار يسمى النظرية الكلاسيكية، وإن شئت قُل: الرأسمالية الكلاسيكية. الزاوية الثانية هي ظهور الثغرات الكبرى في هذه النظرية بريطانية المنشأ ومحاولة الدفاع عنها والوقوف على ثغراتها. وأما الزاوية الأخيرة

---

٩٣ - Waterloo البلدة البلجيكية التي وقعت فيها المعركة الفاصلة بين القوات الأوروبية المتحالفة وجيش نابليون.

٩٤ - نُقِلَ رفات نابليون إلى فرنسا عام ١٨٤٠.

فهي استقبال باقي القوى التي التقطت أنفاسها أخيرًا بعد واترلو لهذه النظرية، وكيف حاولوا اللحاق ببريطانيا في هذا القرن.

الزاوية الأولى: النظرية الكلاسيكية

خلال عقود النصف الأول من القرن التاسع عشر استوت النظرية البريطانية التي أُسِّسَ عليها علم الاقتصاد، وصارت تعاليم سميث ومالتس وريكاردو أصولًا لهذا النوع من المعرفة، وحُججًا يركنُ إليها الساسةُ ورجال الدولة.

النظام الرأسمالي الحر هو النظام الأكفأ على الإطلاق، فليس للدولة أفضل من أن تترك السوق حرةً لقوى العرض والطلب، وتدعم المصلحة الخاصة لأفراد المجتمع، حتى تحصل على أكفأ نظام اقتصادي. ولا عليها من إفراط الإنتاج وزيادة المعروض السوقي من السلع، فهذا العرض سيخلقُ طلبًا مساويًا له. وإذا أرادت الدولةُ الزيادة، فليس لها إلَّا إلغاء الحواجز التي تعوق حركة التجارة الدولية، عندها ستتمتع بوفرةٍ وجودةٍ وأسعارٍ منخفضة... يا لها من منظومة رائعة!

نجحت هذه الرأسمالية الكلاسيكية في وضع بريطانيا على رأس جدول التصنيع العالمي، وصَدَقَ تنبؤ ريكاردو بأنَّ هذه البلدة ستصبحُ ورشةً للعالم كله. وأثبتت آلية السوق الحرة كفاءةً غير مسبوقة في تخصيص الموارد وتحقيق الوفرة والجودة، وهذا النجاح كانَ قطارًا متسارعًا يدهس كل من يخالف تعاليم النظرية البريطانية، فلا أحدَ يعلو صوتُه فوق صوت سميث وأصحابه.

في القرن التاسع عشر تحول الاقتصاد إلى مهنةٍ لها أربابها، الذين يتكسَّبون منها، بعد أن كانَ مجموعةً من الموضوعات التي يتناولها المثقفون

في أنديتهم وكتاباتهم. وهذا التحول المهم في سيرة هذا العلم، حَشَدَ العقولَ إلى تنقيح وتفنيد النظرية الكلاسيكية التي مثَّلت كل الاقتصاد وقتها.

كان حلُّ لغز القيمة من أهم النقاط التي أفادت النظرية الكلاسيكية وجعلتها تبدو أكثر أناقةً. وقد أرَّقَ هذا اللغز كل الذين تعرضوا له طول القرن الثامن عشر، حتى إنَّ سميث تفاداه كما ذكرنا وركَّز تحليله على القيمة الاستبدالية فقط.

في النصف الأول من القرن التاسع عشر حاول أوجست فالراس(٩٥) إيجاد حل لهذا اللغز العجوز، فخرج بنظريةٍ مفادها أنَّ قيمة أي شيء لا تتوقف على تكلفته فقط، بل يشترك مع التكلفة عنصران مهمَّان جدًّا هما: المنفعة والندرة. فيلزم الشيء أن يكون له منفعة وألَّا يتوافر بكميات كبيرة حتى يصبح ذا قيمة، لذلك فإنَّ الماء الذي يفقد عنصر الندرة في الظروف العادية، يصبح تقريبًا بلا قيمة. وهذا الطرح الموجز يُعدُّ إسهامًا جديرًا بالاحترام إذ لفت الأنظار إلى نقطتين ستدور حولهما جُلُّ النظرية الاقتصادية فيما بعد.

في النصف الثاني من القرن ذاته، وعلى يد مجموعة من الاقتصاديين المتخصصين في أكثر من دولة، ظهر على الساحةِ مفهومٌ مشتقٌّ من نظرة فالراس تلك، وهو مفهوم "المنفعة الحدِّيَّة" أو منفعة الوحدة الأخيرة، وهذا المفهوم هو أهم مفاهيم علم الاقتصاد، ويعدُّ نقطةً فاصلةً بين مرحلتين من تاريخ الاقتصاد، فهذا العلم بعد مفهوم الحدية ليس كما كان قبله. ومعنى المنفعة الحدية، منفعة الوحدة الواحدة من الشيء، فمثلًا، إذا كان أمامك ٥ تفاحات، فإنَّ قدر الإشباع الذي تحصل عليه

---

٩٥ - لم يكن اقتصاديًا محترفًا للمهنة، وهو والد الاقتصادي المعروف ليون فالراس.

بأكلك الأولى يختلف عن قدر الإشباع المتحقق من أكل الثانية وهكذا، قدر الإشباع الخاص بالتفاحة الواحدة يُسمَّى المنفعة الحدية. وبالطبع إذا تفكَّرت في هذا المثال جيدًا فإنك ستستنتج أنَّ المنفعة الحدية تتناقص مع ازدياد عدد الوحدات المُستهلكة، لأنَّ منفعتك من أكل التفاحة الأولى أكبر بكثير من منفعتك من أكل التفاحة الخامسة.

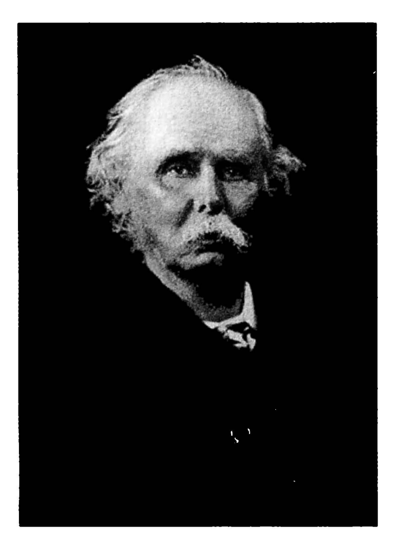
ويرجع جزء كبير من تطوير هذا المفهوم إلى ألفريد مارشال. فقد غيَّرَ هذا الاقتصادي الإنجليزي علم الاقتصاد من خلال رؤيته الثاقبة في هذا الفن بشكلٍ أكثر مرونةً من كل الذين اقتحموا دائرته من قبل. فقد أنكر على سابقيه تعاملهم مع الإنسان -الذي يمثل سلوكه كل علم الاقتصاد- على أنه كيان جامد.

تعامل مارشال مع علم الاقتصاد كعلمٍ حيٍّ له بيولوجيته الخاصة، وبما أنَّ الأحياء صار يحكمهم في منظور داروين نظرية التطور، فإنَّ مارشال تناول الاقتصاد من جانب تطور دارويني أكسبه به مرونةً خاصة في ضوء تغيرات الظروف البيئية.

ويظهر هذا الأثر في توغُّل مارشال في السلوك البشري وكيفية تحقيق الإشباع في مقابل الحاجة، وفي تعامله مع الاقتصاد كوحدات مفككة، فهو يتعامل في كتابه (مبادئ الاقتصاد) مع المستهلك الواحد ومع المنتج الواحد، ويظهر أثره في تقسيمه لمدد النشاط الاقتصادي للمرة الأولى، فتبعًا لتغير الظروف وتغير علاقات متغيرات العملية الإنتاجية وتغير قدرة المنشأة المنتِجة على تغيير أسلوبها وأدواتها، قسم المدد التي يُسكبُ عليها علم الاقتصاد إلى قصيرة، وطويلة، وقد قَصَدَ مارشال بالأجل القصير المدة التي تستطيع المنشأة أن تغيِّرَ فيها كمية عوامل الإنتاج

المتغيرة كالعمال والخامات. أمَّا الأجل الطويل فهي المدة التي تستطيع فيها المنشأة تغيير عوامل ثابتة، كبناء مصنع جديد. وهذه المدد مرنة جدًّا وتختلف من صناعة إلى أخرى.

لقد كان مارشال هو من نجح في إقناع جامعة كامبريدج بتخصيص برنامج دراسي لعلم الاقتصاد عام ١٩٠٣م[٩٦]، وذلك بعد قتالٍ طويل هدفه هو استقلال الاقتصاد عن التاريخ أو غيره من العلوم الفلسفية والأخلاقية.



ألفريد مارشال

٩٦ - تود جي باكولز، مصدر سابق.

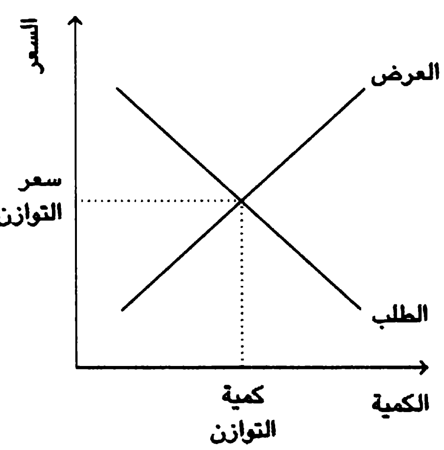
وفي عهد مارشال، تغيرت النظرة إلى لغز القيمة...

إنَّ قيمة الشيء لا تتوقف على منفعته العامة كما أقرَّ فالراس، بل تتحدَّد بقيمة آخر وحدة متاحة عند أقل الحاجات إلحاحًا، فكسرة الخبز في الظروف الطبيعية ليس لها قيمة، أمَّا حالَ المجاعة يكونُ لها قيمةٌ كُبرى تدفعُ الناسَ إلى التقاتل عليها. كذلك الماء في الظروف الطبيعية يفتقد للقيمة تقريبًا، أما في صحراء مُهلكة فإنَّ شربةَ الماء لا تُقدَّر بثمن. لذلك تقلُّ قيمةُ أي شيء كلما زادت وفرته. والقيم التي اصطلح عليها الناس لكل شيء هي قيمة اعتمدت على الندرة في المقام الأول (على قدر الإشباع الذي تحققه الوحدة الأخيرة منه). وبالتالي فإنَّه بزيادة الاستهلاك ينخفض مستوى الإشباع، وتنخفض القيمة التي يرغب المستهلك في دفعها.

كانَ ظهور مفهوم "الحدِّية" تطورًا كبيرًا في النظرية الكلاسيكية، فقد صارت الوحدة الأخيرة هي مفتاح الإجابة على كلِّ التساؤلات. فحتى في جانب الإنتاج وجدت لها الحديةُ مكانًا، وصار تحليل التكلفة يقضي بأنَّ التكلفة تزداد بسبب انخفاض الناتج الحدِّي لوحدة عوامل الإنتاج المضافة، فبزيادة الإنتاج يلجأ المنتجون إلى الموارد الأقل جودة كما قال ريكاردو.

وظهر سحر الحدية وهي تشرح سعر السوق الطبيعي أو التوازني، فلمَّا كانت المنفعة الحدية تقل بزيادة عدد الوحدات المستهلكة، فإنَّك ترى منحنى الطلب يبدأ من نقطةٍ مرتفعةٍ ثم يأخذ في الانخفاض، ليدل على انخفاض القيمة التي يصبح المستهلكون مستعدين لدفعها مع ازدياد الكمية، ومنحنى العرض يبدأ من نقطةٍ في الأسفل ثم يأخذ

في الارتفاع ليدل على ازدياد التكلفة نتيجة لانخفاض الإنتاجية الحدية وفقًا لقانون تناقص الإنتاجية الذي صاغه جون ستيورات مِل. وعند نقطةٍ مباركةٍ يلتقي المنحنيان ليتحدد السعر العادل في السوق. ونتج عن هذه النظرية، الرسم المشهور الذي يدرسه كل طلاب الاقتصاد اليوم في بداية دراستهم لهذا العلم. ولا يدري أحدهم أنَّ هذه المقدمة التي يدرسها كانت يومًا ما تتويجًا مذهلًا لسنوات طويلة من الأفكار الاقتصادية.



حتى الأجور صارت تتحدد وفقًا لإنتاجية العامل الأخير، فلا يمكن للعامل أن يطالب بأكثر من إسهامه في عملية الإنتاج عندما يُضاف إلى القوة المنتجة. والعلاقة بين توافر الأيدي العاملة وطلب أرباب العمل عليها هي التي تحدد المستوى التوازني للأجور بنفس الآلية الحرة التي حددت أسعار السلع في الأسواق.

وحتى العائد على رأس المال، صارَ يُضبط بآلية مشابهة لتلك، فالعائد على رأس المال يقل كلما زاد رأس المال المتاح للاستثمار، والعكس

بالعكس. ويحدث التوازن عندما يتساوى العائد الحدي لرأس المال مع العائد اللازم لجذب وحدة إضافية من الادخار.

هكذا جعلت "الحدية" النظرية الكلاسيكية أكثر أناقة وتلقائية.

الزاوية الثانية: الوقوف على الثغور

هذه المنظومة التلقائية التي ظلَّ البريطانيون يتغنُّون بها كانت حدودها تمتلئ بالثغور التي تحتاج إلى دفاع، والتي يمكن إيرادها على النحو التالي، أولًا: الاحتكار. ثانيًا انخفاض أجور العمال عن الحد اللازم لتوفير متطلبات الحياة الأساسية. ثالثًا: ضعف العمال أمام أرباب العمل الرأسماليين وخضوعهم التام للاستغلال. رابعًا: أرباح الرأسماليين التي ما زالت تحتاج إلى تبرير واضح يخرجها من دائرة التعدي على فائض إنتاج العمال. خامسًا: حدوث حالات من الكساد نتيجة لزيادة كمية العرض، وبيان خطأ أصيل في قانون ساي.

ونحن في هذا سنرجئ الحديث عن النقطتين الأخيرتين إلى الفصول القادمة لتناولهما بتوسع واستفاضة، لأهميتهما في تاريخ الفكر الاقتصادي.

والحقُّ أن النقاط الثلاث الأولى كانت ظاهرة جدًّا في المجتمع البريطاني ولا يمكن إنكارها، لذلك حاول أنصار النظرية الكلاسيكية تبرير وجود هذه المثالب، وكان الهدف في النهاية هو إعلاء راية النظرية التي صارت عقيدةً بريطانية لا يمكن الاقتراب منها!

أمَّا الاحتكار فقد سلَّم به المدافعون عن النظرية، وترددت على ألسنتهم مقولة: لولا الاحتكار لكان هذا النظام مثاليًّا. لكن في النهاية لا يُمكن منع الاحتكار طالما أنَّ النظرية تتبنى فكرة الدولة الحارسة التي

لا تتدخل في النشاط الاقتصادي، فلا مناص من قبول نقطةٍ سوداء في صفحةٍ بيضاء ناصعة عنوانها الرأسمالية الكلاسيكية. لكن العجيب في هذا الموضوع أنَّ أنصار النظرية قد أخذوا ثوب الاحتكار هذا وألبسوه لجانب العمال بشكلٍ مُدهش. فقد ذكرنا أن أجور العمال تتوازن تلقائيًّا في هذه المنظومة الحرة، أمَّا إذا تدخلت الدولة أو غيرها من الهيئات التي تحدد الأجور من تلقاء نفسها، فإنَّ النظام برمته يفسد، ويحدث مشكلة في معدلات التشغيل، وتظهر البطالة. وهنا قال المدافعون عن النظرية الكلاسيكية إن نقابات العمال وما يشابهها من المؤسسات تقوم بعملٍ احتكاري ضارٍّ عندما تتحكم في أرباب العمل الرأسماليين وتفرض عليهم أجورًا معينة يجب أن يحصل عليها العمال. ونتيجة لهذا العمل الاحتكاري السيئ فإنَّ الطلب على العمال يقل، بالشكل الذي يزيد من معدلات البطالة، وهكذا تكون نقابات العمال قد أضرَّت بالعمال! (جديرٌ بالذكر أنَّ النظام الرأسمالي تصالح في النهاية مع فكرة هذه النقابات، لكن بعدما استوت النظرية الاقتصادية بشكلٍ أفضل وصارت الدولة والقوانين والرأسماليين على مستوى مختلف من النضج الاجتماعي والاقتصادي).

أمَّا بخصوص بؤس العمال الظاهر في فقرهم وضعفهم أمام الرأسماليين، فلأنصار النظرية الكلاسيكية دفوعًا طويلة. فقد كانت الكوارث الاجتماعية وتردِّي الأحوال في الطبقات الدنيا، ثغرة كبيرة في هذه النظرية، لذلك كثرت المناقشات والتبريرات حول ضرورة ترك هذا النظام يعمل بغض النظر عن الثمن الذي يدفعه الشعب المسكين.

في العام ١٨٤٨ م نشر جون ستيورات مل كتابَه "مبادئ الاقتصاد السياسي" وتتويجًا لوجهتي نظر مالتس وريكاردو، أكَّد مِل أنَّ فقر العمال

يعود إلى تناقص إنتاجية العامل الحدية، إضافةً إلى ميلهم للإنجاب. وفي الحقيقة لم يكن مِل في نظرته هذه مستقلًّا تمام الاستقلال عن مذهب جيرمي بنتام[٩٧] الذي يُطلق عليه "النفعية". فقد كان بنتام صديقًا لجيمس مِل والد جون ستيورات مل.

ومذهب النفعية هذا يقضي في موضوعنا بأنَّه يجب أن نتجاهل هذه التضحيات التي يقوم بها العمالُ الفقراء أمام هذا النجاح غير المسبوق الذي تحققه النظرية الكلاسيكية. وحتى ننصف مِل الابن يجب أن نعترف أنَّه في كتابه كان يرى أن بؤس العمال مشكلة كبيرة حقًّا، وأنَّه حتى لو أخذنا بمذهب بنتام، فهذا يجب أن يكون وضعًا مؤقتًا، إذ لا يمكن أن تُبقي الدولة على هذا الانقسام الطبقي بصفةٍ دائمة. واختصارًا يمكن أن نستنتج من إجمالي تعليق مِل الابن على هذه المشكلة أنَّه يوافق على تجاهلها، ولكن بشكلٍ غير دائم.

وبقدر ما كانت آراء جون ستيورات مل تحمل قدرًا من العاطفة، كان قلم أستاذ الاجتماع هربرت سبينسر[٩٨] يحملُ قدرًا من الوحشية. فقد رأى سبينسر أن النظرية الكلاسيكية ليس لها ذنب في موت هؤلاء العمال الفقراء، بل الذنب كله يُرمى عليهم هم أنفسهم وعلى أجسادهم الضعيفة التي لم تتحمل عناء العمل وشقاءه، وموتهم المبارك هذا هو مساهمة عظيمة من الطبيعة في تحسين النوع والإبقاء على أولئك الذين

---

٩٧ - Jeremy Bentham فيلسوف إنجليزي، له إنتاج فكري ضخم بخصوص الحريات بصفة عامة والحرية الاقتصادية بصفة خاصة، وهو رائد مذهب النفعية الذي ينص على أنَّ تحقيق السعادة والخير لأكبر عدد أو للدولة في عمومها هو الهدف الذي لا يُلتفت لشيء سواه. توفي عام ١٨٣٢.

٩٨ - Herbert Spencer فيلسوف بريطاني، يعد مؤسسًا للداروينية الاجتماعية، والتي تطبق مفاهيم الانتخاب الطبيعي على المجتمع وأفراده. توفي عام ١٩٠٣.

يقدرون على مكابدة الحياة في عنابر المصانع كثيفة الدخان. لقد كان سبينسر هو الذي أعطى العالم العبارة الخالدة "البقاء للأصلح" وليس داروين[٩٩].

يقول سبينسر في كتابه "دراسة في علم الاجتماع": "إني ببساطة أطبق آراء السيد داروين على الجنس البشري".

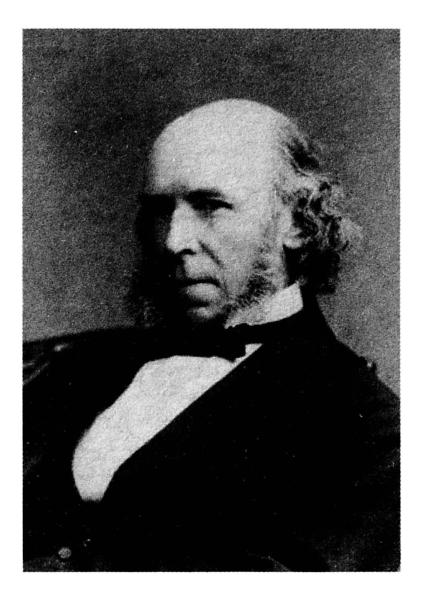
ويُقال إنَّ سبينسر كان قد أقسمَ ألَّا يدخل كنيسةً، لكنَّه حَنَثَ بقسمه ليحضر الصلاة على روح داروين.

على هذا الأساس كره سبينسر أن تتدخل الدولةُ لمساعدة الفقراء بأي طريقة، فعَمَلُ الطبيعة في الانتخاب لا يجب أن يُعطَّل، ولولا أن سبينسر خشي أن يقيد الحرية الشخصية للأفراد لطلب منهم الامتناع عن التبرع للعمال الفقراء.

كان دفاع سبينسر عن جرائم النظرية الكلاسيكية غير المقصودة من وازع الداروينية الاجتماعية عملًا أكثر إجرامًا، لكنَّه في النهاية أراح ضمائر الرأسماليين وأعطاهم صكوكًا عليها توقيع الطبيعة مكتوبٌ فيها هنيئًا لكم فقد اختارتكم الطبيعة لتعيشوا أثرياء.

---

٩٩ - كينيث جالبريث، مصدر سابق.



هيربرت سبينسر

على منوالٍ مشابهٍ لمنوال سبينسر، نَسَجَ ويلفريدو باريتو[100] رأيًا عدَّه المؤرخون دفاعًا آخر عن النظرية المتهمة، وقد كانت لباريتو دراسة في الدخل، لاحظ فيها أنَّ الدخول تتوزع بنمطٍ متماثل في كل الدول، دائمًا ما يكون هناك فئة قليلة هي المستحوذة على غالب الدخول والثروات، وفئة أخرى أكثر عددًا تحصل على قدرٍ يسير من الدخل، وهذا التفاوت الكبير يعكس التفاوت في القدرات الفكرية والمواهب، فمن الطبيعي جدًّا أن يكون المميزون في أي مجتمع هم قلة وسط مجموعةٍ كبيرة من العاديين، ويجب أن ينحاز الجانب الأكبر من الدخول والثروات إلى هذه الفئة المميزة.

---

١٠٠ - Vilfredo Pareto اقتصادي إيطالي الأصل، له إسهامات تقنية كثيرة في الاقتصاد والإدارة والإحصاء، توفي عام ١٩٢٣.

بعد كل هذه الدفوع، التي صاغها أنصار النظرية ليبرروا القسوة وشظف العيش والموت البطيء وغير ذلك من مفردات حياة العمال الفقراء، لم يشعر الأنصار بالراحة والانتصار المنطقي لعقيدتهم، الأمر الذي أدَّى إلى ظهور دفاعٍ أخير مختلف عن الدفوع السابقة.

إذا أراد الاقتصاديون أن يكون علمهم هذا علمًا بحق، يجب أن يكون علمًا محايدًا، لا علاقة له بالمسؤولية المجتمعية والأخلاقية والدينية، فهذه المسائل لها متخصصون آخرون، أمَّا الاقتصاد فهو يهدف إلى تقدم الدولة من خلال الإنتاج والوفرة والتصنيع. هكذا أغلقَ أنصار العقيدة الكلاسيكية الباب أمام كل النقاشات التي تدور حول الأثر الاجتماعي المخزي الذي ترتب على النظرية!

الزاوية الثالثة: النظرية الكلاسيكية في دول أوروبا الصاعدة، وسباق اللحاق ببريطانيا

بعد أن أحدثت الثورة الصناعية أثرها في بريطانيا، حاولت باقي الدول الأوروبية اللحاق بها، وصارت سنوات القرن التاسع عشر تشبه السباق، وظهرت مصطلحات جديدة للتقييم الاقتصادي مثل دولة "متقدمة" أو "متخلفة" وغيرها من المصطلحات التي تبيِّن أنَّ الثورة الصناعية صبغت العالم بمفهوم التسابق على شيءٍ ما أو الهروب من شيء ما.

ومن بين كل الدول الأوروبية التي كانت أقرب لانتقال الثورة الصناعية إليها وكذلك للتأثر بالنظرية الكلاسيكية، برزت ثلاث قوى وانمازت عن جموع المتسابقين: فرنسا، وألمانيا، والولايات الأمريكية

المستقلة حديثًا. هذه القوى كانت أول قوى تتعرض للأفكار الاقتصادية التي انتقلت من بريطانيا إلى الخارج، وانتهى بها الحال في نهاية القرن وهي تسامي بريطانيا في كثيرٍ من القدرات الصناعية.

فرنسا

إذا أردنا أن نؤرخ لفرنسا من منظور الفكر الاقتصادي والتغيرات التي نتجت عنه في تلك الفترة، فإنَّنا بالضرورة سنمر بذكر ثلاثة أسماء: جان باتست ساي، وتشارلز ليونار دي سيسموندي، وبيير جوزيف بوردون.

أمَّا ساي فقد تكلمنا عنه، وذكرنا كيف أصبح قانونه أحد أهم أركان النظرية الكلاسيكية، ويمكنك أن تعد ساي رجلًا فرنسي الجنسية بريطاني الفكر الاقتصادي. فقد ساهم في نشر تعاليم آدم سميث أكثر من معظم البريطانيين الذين حاولوا.

وأمَّا سيسموندي، فهو مؤرخٌ واقتصاديٌّ سويسري المولد، وله إسهامان يتصدران الفكر الذي كتب باللغة الفرنسية في تلك الفترة، أمَّا إسهامه الأول فهو تأصيله لفكرة الطبقتين اللتين تنتجهما النظرية الكلاسيكية، وتأكيده أنَّ هاتين الطبقتين متعارضتان في المصالح، فالفقراء مصلحتهم دائمًا ضد مصلحة الأغنياء، والعمال مصلحتهم دائمًا ضد الرأسماليين. وبهذا التأصيل فإن سيسموندي جعل هذه الطبقية الشديدة التي تحكمها عداوةٌ صريحة بين أبناء البلد الواحد، لا يمكن أن تنتهي إلا بانتهاء النظام نفسه. وأمَّا الإسهام الثاني الذي شارك به سيسموندي في هذا التاريخ هو تأكيده على وجود خلل في قانون ساي، وأن هذه

المنظومة الآلية الحرة تؤدي إلى حدوث فوائض في المعروض من السلع وقد تؤدي إلى كساد.

وفي حالة نكوص وحنينٍ إلى الماضي، رأى سيسموندي حلَّ هاتين النقطتين في خطوة واحدة وهي العودة إلى الزراعة التي تغنَّى بها الفيزيوقراطيون وإلى نظام الحِرَف البسيط، فهذا التحول يكفي للقضاء على صورة الطبقية المزعجة، ويجعل الفرد يختار ما ينتج بدقةٍ لتلبية حاجات فردية أخرى وبالتالي ضمان عدم حدوث فائض.

أمَّا الاسم الثالث الذي لمع في الفترة ذاتها فهو بوردون، وهو سياسيٌّ أكثر منه اقتصاديًّا، وكثيرُ ما يُقرن اسمه بالحركات الاشتراكية والفوضاوية، والحقُّ أن إسهامه الوحيد الذي سنذكره هنا يجعله جديرًا بهذا الاقتران، فقد كان الرجل لا يكتفي بمهاجمة النظرية الكلاسيكية، بل كان يرى الملكية على أنَّها سرقة، وهو صاحب المقولة المشهورة: الملكية هي السرقة! على هذا الأساس فقد كان بوردون يرى أن البديل الأنسب للرأسماليين هو تكوين تعاونيات من العمال أنفسهم.

لقد كانت فرنسا تتهادى بين أنظمة الحكم المختلفة التي تتناوب عليها منذ ثورة ١٧٨٩ م وحتى استقرت كجمهورية عام ١٨٧٩ م. فقد تقلبت في هذه المئة بين الملكية والجمهورية والإمبراطورية.

على كلٍّ، استطاعت فرنسا بداية من النصف الثاني من القرن، قطع مسافات كبيرة في إنشاء المشروعات الضخمة التي اعتمدت على تطور خدمات البنوك، فقد كان تأسيس بنك "كريدي موبيليه" عام ١٨٥٢ م، الذي موَّلَ مشروعات السكك الحديد، خطوةً عملاقةً إلى الأمام[١٠١] وهنا يجب الاعتراف أن البنوك لم يكن لها أهمية تذكر في الثورة الصناعية

---

١٠١ - روبرت سي آلن، مصدر سابق.

في بريطانيا مقارنةً بدورها الذي لعبته عند انتقال الثورة الصناعية إلى باقي بلدان أوروبا.

ألمانيا

في النصف الأول من القرن التاسع عشر كانت ألمانيا مجموعة كبيرة جدًّا من الإمارات والدوقيات والممالك المستقلة[١٠٢]، وهذا الشتات كان حائلًا دون التطور الاقتصادي ومنافسة الجيران، إذ سعت كل دويلة وراء مصالحها الخاصة، وبالتالي قُيدت التجارة بينهم وتعطلت نتيجة لفرض الجمارك والضرائب.

وسط هذا الشتات الاقتصادي ظهرت دعوات مبكرة من رجل الإصلاح "فريدريك ليست" تنادي بضرورة تحرير التجارة بين كل دويلات ألمانيا على طراز النظرية الكلاسيكية البريطانية.

للأسف لم تكن الظروف السياسية الداخلية متوافقة مع ليست، ما أدى به إلى السجن!

هرب ليست من السجن إلى خارج ألمانيا، ثم عاد بعد فترة ليستكمل حكمه، وبعد قضاء ما عليه من العقوبة، خرج متعهدًا بالسفر إلى الولايات الأمريكية وراء الأطلسي. بعد سنوات عاد ليست إلى ألمانيا وكتب "النظام القومي للاقتصاد السياسي"، الذي حوى في سطوره حزمةً من الإجراءات التي تساعد على التقدم في هذا السباق الأوروبي واللحاق ببريطانيا، وكان أهم هذه الإجراءات على الإطلاق، إنشاء سوق وطنية واحدة وإلغاء كافة التعريفات الجمركية الداخلية بين دويلات ألمانيا، هذا بالإضافة إلى إجراءات أخرى مثل تأسيس البنوك لضمان توفير رؤوس

---

١٠٢ - تجاوز عدد الدويلات الألمانية في تلك الفترات ٣٠٠ دويلة.

الأموال اللازمة، وتطوير وسائل النقل، والاهتمام بفرض التعليم، وهذه الإجراءات كلها يحوطها سور من التعريفات الجمركية الخارجية.

هناك إسهامٌ مهمٌّ آخر قام به ليست ويُعدُّ تفنيدًا مهمًّا للنظرية الكلاسيكية، وهو مناقشته حول مدى استاتيكية علم الاقتصاد، بمعنى هل تعد قوانين هذا العلم وقواعده ثابتة مطلقًا، أم أنها تتغير بتغير مفردات النشاط؟ بالطبع مالَ ليست إلى ديناميكية التعاليم الاقتصادية وفرَّقَ بينها بين قواعد العلوم الطبيعية والكيمياء التي تكون صحيحة مطلقًا. وبيَّن أن قواعد الاقتصاد التي تكون صحيحة وإيجابية في مرحلة ما، يمكن أن تكون فاشلة في مرحلةٍ أخرى تمر بها الدولة، على هذا يجب أخذ ظروف البلد ومرحلتها من التطور في الاعتبار عند فرض سياسات اقتصادية معينة، فتحرير التجارة الخارجية في دولة ذات صناعات وليدة تخطو خطواتها الأولى في السباق الصناعي يكون إجراءً ضارًّا ويسمح للدول الأكثر تطورًا بالتهام هذه الصناعات الوليدة وقتلها في مهدها. وهكذا يكون نفس الإجراء المستَنِد لنفس القاعدة فاشلًا في دولة وناجحًا في أخرى.

هذه الرؤية جعلت الاقتصاديين غير البريطانيين ينظرون إلى النظرية الكلاسيكية كنظرية تخدم بريطانيا فقط وتصب في كأسها، إذ كان تحرير التجارة مع بريطانيا التي سبقت الجميع في القدرة الصناعية يُعدُّ تسهيلًا للغزو الصناعي البريطاني لباقي أوروبا. في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، لاقت أفكار ليست ترحيبًا في دويلات ألمانيا، وخاصَّةً بروسيا التي كانت أكبر هذه الدويلات، وسعى بسمارك[١٠٣] إلى ضم كل

---

١٠٣ - Otto von Bismarck رجل دولة بروسي، وكان حاكماً لمملكة بروسيا، وخاض عددًا من الحروب داخل القارة ضد دول مختلفة مثل النمسا والدنمارك وفرنسا، قبل أن ينجح في ضم باقي الدويلات وتكوين ألمانيا الموحدة ليكون أولَ مستشار لها، توفي عام ١٨٩٨.

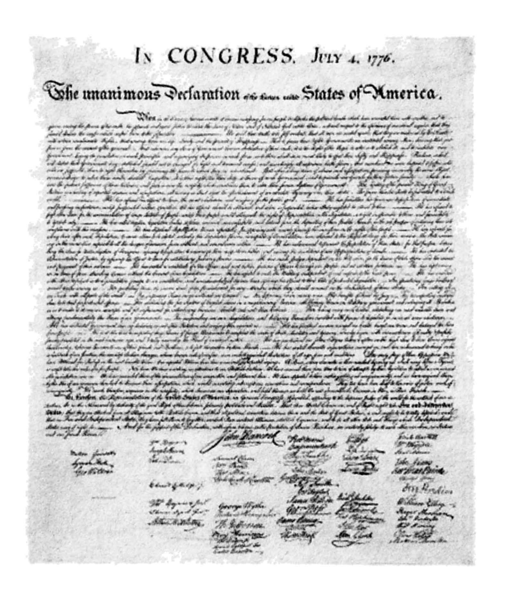
الدويلات الألمانية تحت اتحاد جمركي واحد يُعرف باسم "الزولفراين". وحتى الدويلات الألمانية الجنوبية التي كانت تتودد إليها فرنسا لتضمن عدم انضمامها للأمة الألمانية التي يكوِّنها بسمارك، استطاع هذا الأخير افتعال حربٍ مع فرنسا وخلالها غَمَرَ بالقومية الألمانية كل الدويلات الجنوبية وضمَّها إلى جانبه. وبهذا السعي -الاقتصادي الأصل- الحثيث تأسست دولة ألمانيا الموحدة عام ١٨٧١ م، وصار بسمارك مستشارها الحديدي.

وقد نجحت ألمانيا خلال سنوات توحيدها تحت الزولفراين في الأخذ بالإجراءات التي ذكرها ليست في كتابه، فأسست البنوك واهتمت بالتعليم الأساسي ونفذت المشروعات الكبرى، ومدَّت السكك الحديدية، حتى صارت ألمانيا الموحدة في نهاية القرن اسمًا صناعيًّا كبيرًا يُذكر بجانب بريطانيا.

الولايات الأمريكية

اعتمد اقتصاد المستعمرات الأمريكية خلال القرون السابقة للقرن التاسع عشر على ما أطلق عليه الاقتصادي الكندي هارولد إنيس اقتصاد السلع الأساسية، ومفاد هذه السياسة هو تصدير مجموعة من السلع الأساسية والغذائية إلى ما وراء المحيط الأطلسي وخاصةً بريطانيا، والاعتماد في السلع الاستهلاكية على الاستيراد من أوروبا. سفنٌ محملة بالسلع الأساسية تعبر المحيط ذهابًا ثم تعود محملةً بالسلع الاستهلاكية وتعبر المحيط إيابًا. ولأن الأراضي الأمريكية كانت سخيةً جدًّا، فإن هذه السياسة نجحت وأثْرت المستوطنين ثراءً عظيمًا.

وبحلول نهاية القرن الثامن عشر كانت الأجور في تلك المستعمرات قد بلغت خمسة أضعاف الحد الطبيعي اللازم لمتطلبات الحياة[١٠٤] في إشارةٍ إلى معدلات نمو مذهلة.


IN CONGRESS. JULY 4. 1776.

The unanimous Declaration States of America.

إعلان استقلال الولايات الأمريكية

في القرن التاسع عشر كانت الولايات الأمريكية قد استقلت عن بريطانيا سياسيًّا رغم ارتباطهما التجاري الذي استمرَّ. وكذلك استمر الاعتماد على نفس السياسة التصديرية، لكن في هذه الفترة كان تصدير القطن هو الذي يقود الاقتصاد الأمريكي، فقد ارتفع الطلب على القطن في بريطانيا بعد استواء الثورة الصناعية. وباستخدام العبيد نجحت الولايات المستقلة حديثًا في التوسع في زراعة القطن.

١٠٤ - روبرت سي آلن، مصدر سابق.

إن النظرة للمجتمع الأمريكي هذا على أنَّه مجتمع منفصل تمام الانفصال عن الأوروبيين، نظرة قاصرة جدًّا وتفتقد لقدرٍ كبيرٍ من الحكمة. ذلك أن مجتمع هذه المستعمرات المستقلة حديثًا، ما هو إلا توليفة من جماعة من الأوروبيين الذين حظوا بفرصةٍ جديدة. فبعد اغتصاب الغزاة للأراضي والثروات وقتل الهنود المساكين واستعباد بقاياهم في الأعمال الشاقة بجانب العبيد الأفارقة، وجد المستوطنون أنفسهم أمام أرضٍ بكرٍ سخيةٍ في إنتاجها، بعكس تلك الأرض العجوز المُستهلكة التي هجروها قبل عبور المحيط.

هذا تحديدًا هو الذي جعل تعاليم النظرية الكلاسيكية تفقد جُلَّ قيمتها في هذه الولايات وخاصةً في العقود الأولى من القرن التاسع عشر، فلا معنى ولا حاجة لنظريةٍ في الأجور إن كانت مرتفعة جدًّا، وكان العامل يستطيع ترك العمل والانشغال بغيره بشكلٍ يسيرٍ جدًّا، هذا فضلًا عن توافر العبيد. كذلك لا معنى ولا حاجة لنظَريةٍ في الريع والأراضي متوفرة بمساحات شاسعة تنتظر من يستغلها بلا مقابل، والانتقال من أرض إلى أخرى لا يكون من الأعلى جودة للأقل كما ذكر ريكاردو، بل كان دائمًا للأعلى جودة في تلك الأراضي الخصبة ووديانها.

هكذا تتبدد تعاليم النظرية أمام مجتمع مذهل في الوفرة.

في النصف الثاني من القرن التاسع عشر كان الرجل الأوروبي في الولايات الأمريكية قد حقق إنجازًا كبيرًا في تأسيس البنوك ومؤسسات التعليم والسكك الحديد وفرض حزمةٍ من الإجراءات التي تحمي الصناعات من القارة العجوز التي تقبع وراء المحيط، وقبل أن يُسدلَ ستارُ القرن، تفوقت الولايات الأمريكية في ميدان التكنولوجيا بشكلٍ أعجز أختها الكبرى، بريطانيا.

وبعد هذا الطواف السريع، أرجو أن تكونَ لاحظتَ هذه التوليفة من الإجراءات التي عُدَّت فيما بعد توليفة قياسية للتقدم، والتي تتكون من تأسيس البنوك، والاهتمام بالتعليم الأساسي، ومد خطوط السكك الحديد وتطوير النقل والتحرر من القيود التجارية الداخلية، وفرض الإجراءات الخارجية الحمائية اللازمة للحفاظ على الصناعة. فهذه التوليفة صارت مثار تساؤلات خلال القرن العشرين عندما فشلت في الأخذ بدولٍ أخرى إلى مقدمة السباق، وسنمرُّ على هذا لاحقًا.

السلطة المُصدرة للنقد

في إطارٍ موازٍ لهذا التطورات في الفكر الاقتصادي النظري والعملي، حَدَثَ تطور مهم في مسألة النقود، ففي هذا القرن اتجهت الدول الكبرى إلى إسناد مهمة إصدار النقود إلى جهة مركزية واحدة، بعد أن كانت البنوك التي تُصدرُ الصكوك مقابل الودائع قد تعددت بشكلٍ أدَّى إلى ظهور مشكلات قادرة على تعطيل التطور الاقتصادي.

خلال القرن الثامن عشر والتاسع عشر، وكما اتضح لك من الفصول السابقة تعرضت أوروبا إلى زيادة النشاط الاقتصادي بمعدلات مذهلة، وهذا التمدد احتاج إلى البنوك لتلعب دور الممول والربط بين المدخرات والاستثمارات ودعم المشروعات الضخمة، وبالتالي فمع اجتياح الثورة الصناعية للغرب الأوروبي زاد عدد البنوك. ففي العام ١٧٥٠ م كان عدد البنوك في بريطانيا خارج لندن ١٢ بنكًا، ولكن بحلول عام ١٨٢١ م أصبح هذا العدد ٧٨١ بنكًا[١٠٥].

---

١٠٥ - محمود أبو العيون، مصدر سابق.

وتعدد البنوك كان له أثرٌ جانبي خطير يتمثل في عدم وجود سلطة مركزية لإصدار أوراق النقد. هذا الأثر يمكن اختصار أعراضه التي دفعت إلى توحيد سلطة الإصدار كالتالي:

أولًا: تعدد البنوك المصدرة لهذه الصكوك، جعل الموجود منها في سوق الدولة الواحدة يختلف في الاسم والشكل والجدارة. فليست البنوك سواءً في قدرتها على الوفاء بسداد قيمة الصكوك، الأمر الذي زعزع ثقة الناس في بعض البنوك المُصدِرة وهذا يؤثر سلبًا على حجم النشاط الاقتصادي.

ثانيًا: توسع بعض البنوك في تقديم الائتمان، بهدف تحقيق المكاسب، دون وجود رقابة تُلزِمهم بتوفير غطاء لتلك العمليات، أدَّى إلى تعسُّر بعض البنوك وعدم قدرتها على رد الودائع. ونشاط الائتمان يعني إصدار وتقديم صكوك للعملاء دون مقابل من النقود المعدنية يغطي قيمتها. والأصل في تقديم الائتمان هو حصول البنوك في هذه الحالة على ضمانات من هؤلاء العملاء، حتى إذا تعسَّرَ المقترض، بيعت هذه الضمانات وحصَّلَ البنك قيمتها. لكن مع اتساع النشاط الاقتصادي وزيادة عدد البنوك مع عدم وجود سلطة مراقبة لها، لم تلتزم كل البنوك بتلك الضوابط.

ثالثًا: احتياج الحكومات نفسها إلى تمويل من البنوك وخصوصًا للإنفاق على الحروب الكثيرة التي امتلأت بها القارة في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، جعل الحكومات تفكر في إسناد هذا التمويل إلى جهة واحدة ليصبح الأمر أكثرَ تنظيمًا، وأكثر اتساقًا مع هيبة الدولة.

رابعًا: زيادة موارد الدولة من نشاط إصدار النقود، وإكساب الجهة

المصدرة الوحيدة القدرة على تجاوز الأزمات، فقد انهارت الكثير من البنوك التي كانت قد توسعت في تلك الأنشطة خلال الكساد الذي أصاب الاقتصاد الأوروبي بعد الحروب النابليونية التي انتهت عام ١٨١٥ م.

لهذه الأسباب مجتمعة بدأت دول أوروبا في إسناد مهمة إصدار صكوك البنكنوت إلى جهة واحدة بشكل احتكاري. سبقت هولندا إلى هذا عام ١٨١٤ م، ثم تبعتها إنجلترا عام ١٨٤٤ م، ثم فرنسا عام ١٨٤٨ م، ثم ألمانيا عام ١٨٧٥ م.

الفصل التاسع
المانيفستو[١٠٦] الشيوعي

في نوفمبر من العام ١٨٣١ م قَتَلَت الكوليرا أستاذ الفلسفة ذائع الصيت في جامعة برلين، جورج فيلهيلم فريدريش هيجل. ليكتب أحد الأساتذة واصفًا هذه المصيبة: "ياله من فراغ! لقد كان حجر الزاوية في جامعتنا"[١٠٧].

يُعدُّ هيجل أحد أهم أضلاع الفلسفة الألمانية، ونظرًا لأهمية الفلسفة الألمانية فإن هيجل احتلَّ مكانةً كبيرةً في عالم الفلسفة الأوروبية. وقد ترك الرجل إرثًا كبيرًا ما زال الباحثون المختصون يتجادلون فيه، فإلى اليوم لا أظنُّ أن أحدًا من المهتمين بأعمال هيجل يستطيعُ أن يجزم أنَّه يفهم بدقة المُعتقد الهيجلي في الإله، فأحيانًا تستنتج من فلسفته أنه يؤمن بوحدة الوجود، ثم تتفاجأ بأنَّه قد رفَضَ هذا بمنتهى الوضوح في كتاب (محاضرات في فلسفة الدين) وأحيانًا تستنتج أنَّه للإلحاد أقرب بجعله

---

١٠٦ - تعني البيان، والمقصود هو البيان الرسمي للحزب الشيوعي (Communist Manifesto) الذي أطلقه ماركس وإنجلز عام ١٨٤٨.

١٠٧ - هيجل، بيتر سينجر.

الفلسفة في مقامٍ يعلو مقام الدين، لكنك تتراجع عندما تصطدم بكمٍّ من الأفكار الهيجلية التي لا يمكن إدراكها إلَّا في قالب ديني...

لكنَّ أشهر أفكار هيجل على الإطلاق وخصوصًا بين غير المختصين بالفلسفة هي "المنهج الجدلي" تلك الفكرة التي حققت على أرض الواقع نتائج لو أدركها هيجل نفسه لأدهشته.

المنهج الجدلي هو طريقة هيجل في التعبير عن الفكر الخالص، وبهذا التعبير يُفصحُ التاريخُ عن تقلباته وتغيراته. بصياغةٍ أخرى فإنَّ المنهج الجدلي الهيجلي يُعد وسيلةً لبيان كيف تتكون الأحداث وتتتالى على صفحات التاريخ، حيث تسيطر الفكرة (الأطروحة) ثم تدخل في رواق النقد والتفنيد حتى يثبت عدم كفاءتها وتهزمها فكرةٌ جديدة (الأطروحة المضادة)، ولا تسلم هذه الفكرة الجديدة الناقضة للقديمة مما تعرضت له الأولى، ثم يثبت عدم كفايتها، وتتكون فكرة جديدة هي في الأصل مزيجٌ بين الفكرتين (الأطروحة المركبة). هذه الأطروحة المركبة تبدأ دائرة جديدة بتعرضها لما تعرضت له الفكرة الأولى... هذه الديناميكية هي السردية المقبولة لتشكيل التاريخ في فلسفة هيجل.

عندما مات هيجل، كان المحامي البروسي البارز هينريش ماركس يسعى جاهدًا لتهذيب ولده كارل الذي يميل إلى كل ما هو خبيثٌ وغير لائق. ينحدرُ هذا المحامي وزوجته من عائلتين يهوديتين عريقتين تنتمي إليهما أسماء بعض الحاخامات، ومع هذا فقد ترك الرجلُ اليهودية واعتنق المسيحية البروتستانتية في ثوبها اللوثري. بفضل اسمه وعمله عُدَّ هذا الرجل المثقف من الطبقات العليا في بروسيا، وبجوار نهر موزيل امتلك أرضًا يُنتَجُ منها النبيذ الفاخر.

أمَّا الابن المشاغب كارل هينريش ماركس فقد كان الثقب الأسود الذي تهوي إليه أموال أبيه أولًا بأول. أدمنَ كارل شُربَ الخمر حتى إنه عوقب بالحبس في الجامعة بسبب الثمالة، وعلى أثر هذه الواقعة وغيرها قرر الأب نقله إلى جامعة برلين صاحبة السمعة الحسنة علَّها تصلح من حال هذا الشاب الذي ضُربَ الجفاء بينه وبين الاستحمام حتى صارَ سكيرًا قذرًا يشبه البرابرة.

إذا قرأتَ كل الكتب التي تناولت سيرة ماركس، ثم أردتَ أن تصفه في سطر واحد خلال شبابه، فلن تجد قولًا يبتعد عن هذا: هو ذلك الشاب البوهيمي الذي يتلذذ بإيذاء المشاعر.

في برلين، لم تتغير عادات كارل ماركس في الإسراف وشرب الخمر، فرغم حصوله على مال لا يحصل عليه أترابه إلَّا أنه استدان وماطل حتى قاضاه الدائنون. وكانت محصلة هذا أن غيَّر الشاب محل إقامته في برلين أكثر من عشر مرات خلال خمس سنوات فقط[١٠٨].

في العام ١٨٣٨م مات الأب الذي كان يرجو من ولده التمكن من الفلسفة والقانون فلم يرَ منه إلَّا السُّكر والخيبة. لكن الابن أخذَ منعطفًا جديدًا في حياته، حتى إنَّه تقدم لنيل درجة الدكتوراه في الفلسفة من جامعة برلين. ولمَّا رفَضَ أساتذة برلين مناقشة ما قدَّمه ماركس لتحفُّظهم على مضمونه، غيَّرَ ماركس وجهته إلى جامعة جينا، وفي أبريل من العام ١٨٤١م حَصَلَ كارل هينريش ماركس على درجة الدكتوراه في الفلسفة. عندما مات هيجل وقبل أن تجف أحبار كتاباته، انقسم المتأثرون بفلسفته إلى قسمين: القسم الأول هم الهيجليون المحافظون الذين عقدوا صُلحًا بين فلسفة أستاذهم وبين الدين والدولة. أما القسم الثاني فهم الهيجليون

١٠٨ - تود جي باكولز، مصدر سابق.

اليساريون الذين رأوا في قبول هيجل للدين والدولة وأحوالها العامة نقطةً سوداء وإن شئت قل: عجزًا عن استكمال الدلالات الراديكالية لفلسفته. وهذه المجموعة عُرفت باسم "الهيجليون الشباب".

رأى الهيجليون الشباب في فلسفة هيجل سبيلًا للعالم الأفضل الذي يعكس السيادة المطلقة للعقل وقوته، وهذا العالم الأفضل هو الأطروحة المركبة التي يجب أن يتحول إليها الواقع وفقًا للمنهج الجدلي. انقضَّ هؤلاء الشباب على الدين الذي يمثل العقبة الأولى في طريقهم لتمكين العقل وجعله القوة التي لا يقيدها شيء، وبقفزةٍ حاسمة رأوا في التدين شكلًا من أشكال الاغتراب!

الإنسان يصنعُ إلهًا ثم يتخيَّلُ أن هذا الإله قد خلقه، ويضعُ الإنسانُ في تصوره عن الإله أفضلَ الصفات التي في ذاته: المعرفة والصلاح والقوة. ثم يركع أمام الصورة التي صنعها بنفسه، ويرى ذاته مقارنةً بها كشخصٍ جاهلٍ وآثمٍ وضعيف[١٠٩]، والحقُّ عند هؤلاء الشباب أنَّ الإنسان حتى يخرج من دائرة الغربة هاته، عليه أن يفهم أنه هو نفسه أسمى من كونه ناقصًا يتعبَّدُ إلى كامل، وأنَّه هو نفسه هذا الكامل.

عندما التحقَ ماركس بجامعة برلين التي غُمرت بفلسفة هيجل، انضم إلى "الهيجليون الشباب" وشاركهم في مجمل أفكارهم الراديكالية، وقد كان يحمل بين جنبيه نفسًا تتوقُ إلى النقد والنقض وهدم الكلاسيكيات. تأثر ماركس بفلسفة هيجل وانتقى منها المنهج الجدلي، مستشعرًا أنَّه سيخطو به خطوةً سيخلدها التاريخ.

تزوج ماركس من جيني فون ويستفالين، وهي فتاة تنتمي إلى الطبقة الحاكمة في بروسيا، اِبتُليت بحب ماركس، حتى قيل إنها قد قطعت

---

١٠٩ - بيتر سينجر، مصدر سابق.

علاقتها بشاب أرستقراطي في سبيل الارتباط بماركس الذي كان والده يشكو قلة نظافته!

اعتمد ماركس في توفير متطلبات حياته على قلمه، فعمل في الصحافة، لكنَّه كان الغراب الذي يشير وجوده في أي صحيفة إلى نهايتها على يد السلطات، فقد كان قلمه ثوريًّا مزعجًا للحكومة، في وقتٍ كانت الأوامر تصدر بمنع نشر ترجمة "الكوميديا الإلهية"، فكيف تصبر الحكومة على كلمات ماركس التى تحمل في حروفها خروجًا سافرًا عن كل ما يمثل عرفًا للمجتمع؟!

وصف زميلٌ حال ماركس عندما كان يعملُ في صحيفة "راينيتش زايتونج" كالتالي: "كان كارل ماركس من تريير رجلًا قويًّا في الرابعة والعشرين من عمره، يخرجُ شعره الأسودُ الكثيف من وجنتيه وأنفه وأذنيه، وكان مستبدًّا ومتهورًا وشغوفًا، يثقُ بنفسه إلى أبعد حد، لكنه في نفس الوقت كان جادًّا ومثقفًا وكان محاورًا لا يهدأ، وكان يستخدم نفاذَ بصيرته اليهودية في دفع كل قضية من قضايا مذهب "الهيجليون الشباب" حتى نهايتها... وتحت قيادة ماركس سرعان ما بدأت الصحيفةُ الشابةُ في الحديث بتهورٍ شديد"[١١٠].

رَصَدت الحكومة البروسية ماركس، ووضعت عينًا على كل كلمةٍ يخطها قلمه، وحتى لا تُغلَق الصحيفة، استقال ماركس. ظلَّ الصحفي المراقَب ينتقل من عملٍ صحفي إلى آخر ومن بلدٍ إلى آخر، فمن بروسيا إلى فرنسا إلى بلجيكا، حتى انتشرت الأخبار بأنَّ الحكومة البروسية قد صنَّفته على أنَّه أحد الخائنين. خلال المدة التي قضاها ماركس في باريس، قرأ أعمال آدم سميث وديفيد ريكاردو ومالتس ومِل وغيرهم

---

١١٠ - كارل ماركس حياته وأفكاره، ديفيد مكللان.

ممن كتب في الاقتصاد السياسي. وفي نفس الفترة، نَشَطَ اتصاله بالحركات الاشتراكية الفرنسية. لكنَّ أهم ما وقع لماركس في فرنسا هو ازدهار علاقته بفريدريك إنجلز، والذي كتب في نفس الفترة مؤلفًا عن ظروف الطبقة العاملة في إنجلترا.



فريدريك إنجلز

كان فريدريك إنجلز ألمانيًّا بروسيَّ المولد، في عمر ماركس نفسه تقريبًا، نشأ في عائلة برجوازية ثرية لها مصانع في أكثر من بلد، فكانت نشأته مترفةً ناعمة، وفي شبابه في تلك الفترة كان يدير مصنع والده في الصباح ثم يستمتع بصحبة النساء في المساء، وهو الحكيم القائل: "إذا كان دخلي ٥٠٠٠ فرانك، فإن كل ما أود فعله هو العملُ وإمتاع نفسي بالنساء حتى أتحول إلى أشلاء. إذا خلت الحياة من الفرنسيات، فإنَّها لا تستحق العيش"[١١١].

١١١ - تود جي باكولز، مصدر سابق.

ويبدو أنَّ إنجلز في برجوازية الصباح وملذات المساء لم ينسَ الطبقة العاملة والحركات الاشتراكية، فقد كان قارئًا نهمًا لأعمال هيجل والأدب الشيوعي. وقد كتب "ظروف الطبقة العاملة في إنجلترا" خلال إدارته لمصنع والده في مانشستر بناء على رصده لحياة العمال الفقراء الذين يعيشون في أحياء منهارة تزاحمهم فيها مقالبُ القمامة التي تفوح رائحتها مختلطة برائحة الموت. وقد تنبأ إنجلز في كتابه بثورة ضارية على وشك أن تقومَ في إنجلترا نتيجةً لهذه المآسي.

جمعت صداقةٌ بين إنجلز وماركس، أوتادها الجنسية الألمانية والفكر الثوري الشيوعي والمساهمة في الحركات الاشتراكية الشبابية في فرنسا وبلجيكا.

اختمرت في أربعينيات القرن التاسع عشر أفكار ماركس الشاب، وكان أهم ملامحها هو إيمانه الشديد بمنطق هيجل الجدلي الذي صبغه هو بصبغةٍ ماديةٍ خالصة، فقد كانت نظرةُ ماركس للواقع تنبع من أصول مادية لا تؤمن ولا ترى أي خيالية أو أعراف أو تعاليم دينية، فكل تلك الأمور ما هي إلَّا مُشتتات تسرق العقل وتصرفه عن الصراع الرئيس الذي يحتكم إليه التاريخ، وما هذا الدين إلا أفيون، تُخدَّرُ به عقول الطبقات المقهورة.

وسلكَ بالاغتراب مسلكًا جديدًا. يرى ماركس أن الإنسان في تطوره في حياته الاجتماعية التي يستهدف بها أمرًا ما، يُنتج عددًا من النتائج التي لم يكن يقصدها، ورأى أن شعور الاغتراب هو الحاكم في علاقة العامل الفقير والمنتجات التي تنتجها يداه، في عالمٍ يستحوذ عليه الأثرياء والطبقات الفوقية ولا ينتمي إليه هذا العامل المسكين.

ووفقًا للدستور الجدلي الذي يجب أن تنصاع له أحداث التاريخ، فإنَّ الرأسمالية القائمة كانت هي الأطروحة، وعلى هذه الرأسمالية الآن أن تُنقَض على يد الشيوعية التي تمثل الأطروحة المضادة. وفي هذا السبيل يجب تحطيم كافة الموانع أيًّا كانت. سَل هذا العامل المسكين لماذا تلتزم بقواعد العمل والدولة، سيخبرك بأنَّه يخاف التعرض للقانون السائد، وهنا يصرخ ماركس مبينًا أن هذا القانون السائد لا بد أن يسقط، وبسقوطه تسقط جميع الأغلال التي كتبت الشقاء على طبقة العمال (البروليتاريا) ويصبحوا حكامًا لا محكومين.

مع ذلك لم ينكر ماركس قدرة النظام الرأسمالي الخارقة في الإنتاج وتطوير المجتمع وتغيير سماته والأخذ نحو التحضر، فقد قال في البيان الشيوعي نفسه: لقد جذبت البرجوازية جميع الدول -حتى أكثرها بربرية- إلى الحضارة، وذلك عن طريق التحسين السريع لجميع أدوات الإنتاج وباستخدام الوسائل التي سهَّلت كثيرًا من الاتصالات. إنَّ الأسعار الرخيصة لسلعها هي المدفعية الثقيلة التي تُدمِّرُ كل الأسوار الصينية، وبواسطتها تُجبر الكراهية البربرية الشديدة للأجانب على الاستسلام... لقد خلقت البرجوازية خلال حكمها الذي لم يتجاوز المئة عام قوى مُنتِجة أكبر وأضخم من الأجيال السابقة مجتمعة.

بل هاجم ماركس أحيانًا أولئك الذين لا يؤمنون بتلك الصفة المميزة للرأسمالية، فقد كان يراها أنقذت جزءًا كبيرًا من البشر من بلاهة الحياة الريفية.

من جانب آخر رأى ماركس الرأسمالية ضرورة لتحقيق الاشتراكية، فهي تمثل الأطروحة التي تنتظر نقيضتها. لذلك تنبأ ماركس بأن الثورات الشيوعية لا بد أن تنجح أولًا وتحكم في إنجلترا وفرنسا، فتلك الدول

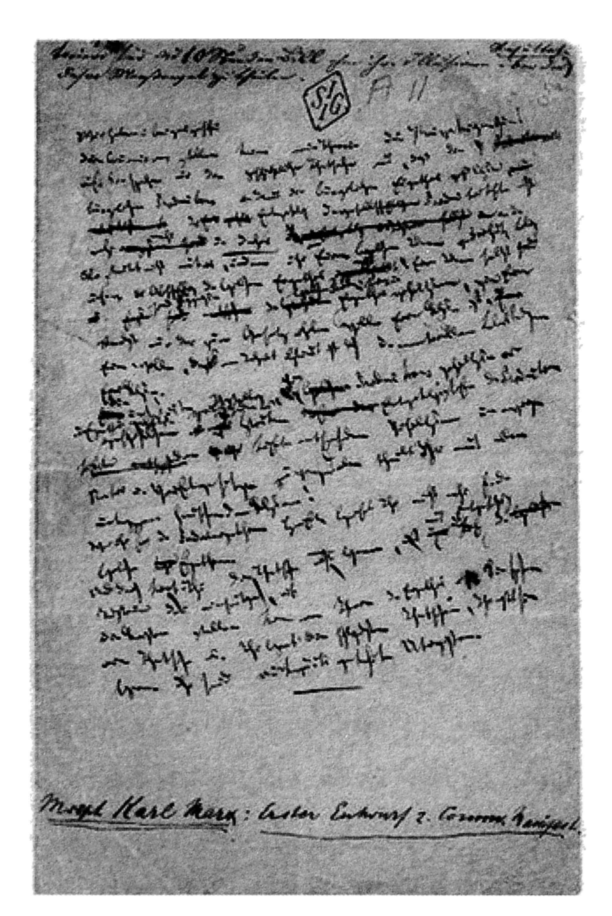
صارت جاهزة لقيام الأطروحة الجديدة، أما الدول الأخرى التي ما زالت تعيش طورَ الأرستقراطية فلا بد أن تنتقل أولًا إلى الرأسمالية...

في تلك الآونة من أربعينيات القرن التاسع عشر تفاعل مزيجٌ من الاشتراكية مع الأقلام الصحافية الثائرة، واشتعلت نفوس الطبقات العاملة، فظهرت موجة ثورية في معظم أنحاء الغرب الأوروبي، تطالب بإسقاط البرجوازية، إضافة إلى حق العمال في التمثيل النيابي، والقضاء على المَلَكيات المطلقة. وقد حقَّقَت هذه الاحتجاجات عددًا من الأهداف الكبرى فيما يُعرف بالربيع الأوروبي ١٨٤٨م. حيث انتهت الملكية المطلقة في الدنمارك، وقامت الجمهورية الفرنسية الثانية على أنقاض الملكية التي أعادها الأوروبيون إلى فرنسا بعد القضاء على نابليون...

في هذه الأجواء الحامية كان ماركس في بلجيكا، بعدما طُرِدَ من باريس، فسمحت له هذه الظروف بالعودة إلى فرنسا ثم منها إلى ألمانيا، لكن سرعان ما انتبهت له الحكومة هناك فهربَ من جديد إلى لندن حيث استقرَّ بأسرته مستأنسًا بإنجلز الذي كان في إنجلترا يدير أعمال العائلة.

لم يكن ماركس خاملًا وسط هذا النشاط العُمّالي الذي امتلأت به شوارع أوروبا، فقد كان منظِّرًا لهذا الحَراك بالتعاون مع إنجلز وأصدرا البيان الشيوعي.

يُعدُّ البيان الشيوعي أحد أهم الوثائق في التاريخ، وتستطيع القول بمنتهى الثقة إنَّه غيَّرَ تاريخ العالم سياسيًّا واجتماعيًّا، وأخيرًا اقتصاديًّا. وقد كان البيان موجهًا في المقامِ الأول إلى عُمَّال إنجلترا وبلجيكا وفرنسا، حيثُ النشطاء الذين كانوا على علاقة بالرجلين الألمانيين أصحاب البيان في السنوات الأخيرة.



ورقة من البيان الشيوعي بخط ماركس

أجهزَ البيانُ على الملكية الخاصة باعتبارها العدو الأول والسبب الرئيس في ما وصلَ إليه حال العمال والفقراء، نتيجة للتفاوت الحاد في توزيع الدخل والثروة والمكانة المجتمعية التي اعتبرها ماركس في فلسفته ناتجة عن النشاط الاقتصادي. فهاجم البيان الملكية الخاصة

ودعا إلى ضرورة تحويل الملكيات إلى الدولة، وهذه الدولة ليست تلك التي كان هدفها الأول دائمًا مراعاة مصالح البرجوازيين، بل دولة حصيفة عادلة تهدم تلك الفوارق الطبقية حتى تختفي الحدود الفاصلة بين الأرستقراطية والبرجوازية والبروليتارية، وتتساوى فيها القرى بالمدن... وبالطبع احتوى البيان على كثيرٍ من الفقرات الرنَّانة التي تهيجُ النفوس وتستنفر سواعدها وتحشد عموم الناس، وحتى نُمثِّل لهذا، إليك هذا المطلع الأخَّاذ من البيان الشيوعي، فبراير ١٨٤٨م:

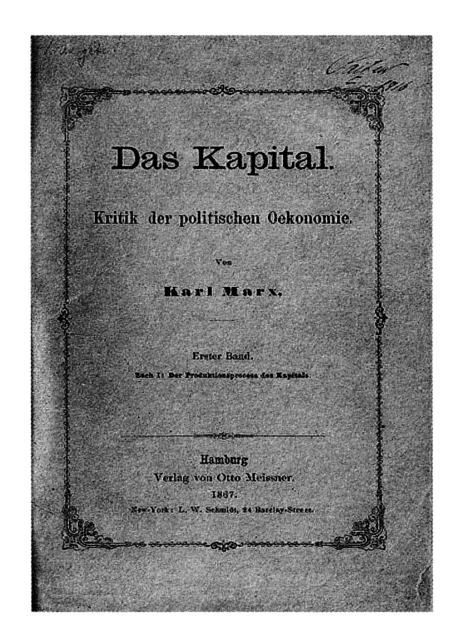
"ليس تاريخُ كل مجتمعٍ إلى يومنا هذا سوى تاريخ صراع الطبقات، فالحر والعبد، والنبيل والعامي، والإقطاعي والقِنّ، ومعلم الحرفة والصانع، وباختصار الظالمون والمظلومون، المتعارضون دومًا، خاضوا صراعًا لا ينتهي، صريحًا تارة ومستترًا تارةً أخرى، صراعًا كان ينتهي دائمًا بتغيير المجتمع كله تغييرًا ثوريًّا أو بانهيار كلتا الطبقتين المتصارعتين"[١١٢].

قضى ماركس وأسرته السنوات اللاحقة في منزلٍ رخيصٍ في أحد أفقر أحياء لندن، وكانت مصادر دخله هي المساعدات التي تصله من عائلة زوجته، ومساعدات صديقه الثري إنجلز، وأخيرًا أجره الذي يتلقاه مقابل مقالاته في "نيويورك ديلي تريبيون". وخلال بضع سنوات أثرت هذه الحياة الملوثة على رئات ثلاثةٍ من أولاده، فماتوا في طفولتهم.

داوم ماركس على قضاء ساعات طويلة يوميًّا في المتحف البريطاني وبين صفحات الكتب، ثم عكفَ على تأليف كتابٍ يجمع فيه كل معرفته بالاقتصاد ليهدم الرأسمالية. وفي العام ١٨٦٧م، صَدَرَ الكتاب الضخم الذي يحمل عنوان "رأس المال".

---

١١٢ - البيان الشيوعي، ترجمة العفيف الأخضر.


Das Kapital.

Kritik der politischen Oekonomie.

Von

Karl Marx.

Erster Band.

Buch I: Der Produktionsprocess des Kapitals.

Hamburg

Verlag von Otto Meissner.

1867.

New-York: L. W. Schmidt, 24 Barclay-Street.

كتاب رأس المال طبعة ١٨٦٧، مكتبة زيورخ

أما وقد وصلنا إلى هذه الصفحة من حياة ماركس، فاسمح لي أن أعامله معاملةَ الاقتصادي، فتلك هي الصفة التي يبدو أنَّه كتب بها كتاب رأس المال، أو هكذا سأفترض. وقد أجَّلتُ مناقشة إرث ماركس الاقتصادي إلى آخر الفصل حتى لا تتعجب عندما تتفاجأ بمدى سطحية وضآلة الأفكار الاقتصادية التي ضرب الرجل لنفسه بها سهمًا في هذا التاريخ، وحتى تفهمَ أن ماركس لا تكمن أهميته التاريخية كرجل اقتصاد بل كفيلسوف اجتماعي وسياسي ثائر، استطاع أن يأخذ من درايته بالفلسفة فتيلًا أشعل به شرارة العمال والطبقات الدنيا في

العالم كله. فهذا الذي يجعل لماركس اسمًا ثقيلًا في شتى محاور التاريخ.

شنَّ ماركس على الرأسمالية حملةً قويةً من المنظور الاجتماعي، أما من المنظور الاقتصادي الصرف، فكانت حملةً هشَّةً كخيمةٍ بلا أوتاد. وعلينا الآن أن نوضح أفكار ماركس ضد الرأسمالية والتي ضمها كتابه الضخم الذي يصلُ في بعض الطبعات إلى ٣٠٠٠ صفحة. فهو يشبه -من منظور اقتصادي- الصندوق الضخم الذي يُهدى إليك، وعندما تفتحه تجده خاويًا إلا من وردة صغيرةٍ مسقرةٍ في قعره!

هاجم ماركس النظام الرأسمالي من ثلاث نقاط، وحاول قدر الإمكان أن يدلل على آرائه بعددٍ ضخم من الاقتباسات وقراءاته السابقة، والحق أنَّ ماركس قرأ عددًا كبيرًا من الكتب في الفترة التي سبقت كتابته لرأس المال، وهذا يبدو بمنتهى الوضوح في ثنايا الكتاب.

أولًا: التفاوت الظالم في الدخل والقوة (النفوذ)

رأى ماركس أن النظام الرأسمالي يقسم المجتمع بالضرورة إلى طبقتين، الأولى تمتلك كل النفوذ والهيمنة، حتى إنها تجبر الدولةَ على رعاية مصالحها، والثانية ضعيفة ومقهورة مستعبدة لا تمتلك لنفسها خيارًا إلَّا بيع جهدها يوميًّا لساعاتٍ طويلة حتى تحصل على فتات يُبقي على حياتها. وقد آمن ماركس أنَّ نظام الأسر المنتجة السابق للمصانع والرأسمالية كان سيئًا بنفس القدر، بل كان أسوأ لأنه فرَّق بين طبقة العمال بالشكل الذي يساعد على الاستغلال ويمنعهم من إدراك قوتهم إن اجتمعوا، أمَّا المصانع التي كانت تزداد في الحجم عامًا بعد عام وتضم عمالًا أكثر عامًا بعد عام، فهي كالمعسكر الذي يجمع جيشًا من الجنود،

وفي لحظةٍ ما ستدرك هذه الجموع أنها تستطيع أن تقلبَ الطاولة، وأنَّ الرأسمالي صاحب المصنع في حاجةٍ إليهم كما يحتاجون إليه وربما أكثر.

وأمَّا تفاوت الدخل، وحصول الرأسمالي على عائدٍ غير مُستحق يسرقه من العامل، فقد كانت هذه إحدى الضربات النافذة التي وجهها ماركس للنظام، ولم يكن السبب في هذا هو قوة ماركس في توجيه الضربة بقدر ما كان السبب هو وقوعها على جرحٍ كان لا يزال ينزف، فمنذ تعرض ريكاردو لمسألة الربح بقدرٍ من التخبط والغموض في كتابه، ارتبك وضع النظرية وازداد سوءًا. ولم يستطع أحدٌ من المدافعين عن النظرية الكلاسيكية بعد ريكاردو أن يبرر الربح الذي يحصل عليه الرأسمالي في ظل النظرية التي تقضي بأنَّ القيمة ما هي على الحقيقة إلَّا كمية العمل.

هكذا كانت ضربة ماركس نافذة، وحتى التفسير الحدِّي الذي قضى بأنَّ العامل يحصل على أجر مساوٍ للإيراد الحدي الذي يضيفه العامل الأخير المضاف للمنظومة الإنتاجية، كان تفسيرًا ظالمًا في أوراق ماركس، لأنَّ قانون تناقص الإنتاجية ينصُّ على أنَّ إنتاجية العمال تتناقص بزيادة عددهم، وهذا يعني أن العامل الذي التحق بالمصنع منذ شهر يشارك في الإنتاج بكمية أكبر من ذلك الذي التحق بالمصنع اليوم، فلماذا يحصل العامل الأول هذا على أجرٍ يساوي الإيراد الذي يترتب على إضافةِ العامل الأخير للمصنع؟!

وأمَّا القول الذي يشير إلى الربح الذي يتحصَّل عليه الرأسمالي على أنَّه عائد مساهمته بالمصنع والآلات المملوكة له، فهذا مردودٌ عليه لأنَّ تلك الآلات والبنايات ما هي إلَّا مساهمة من العمال في الماضي، وعائدها يجب أن يكون من حقهم أيضًا.

في النهاية يبقى الحكم على أولئك الرأسماليين بأنَّهم سارقون، يُنتج العامل ما قيمته ١٠ وحدات، فيأخذ الرأسمالي ٨، ويعطيه الباقي، أليست هذه سرقة؟!

ثانيًا: الأزمات الاقتصادية (الكساد)

وصفَ ماركس قانون ساي بالهراء، وجعل الكساد والأزمات الاقتصادية أمرًا ملازمًا للنظرية الكلاسيكية، ونتيجة حتمية لا تستطيع الرأسمالية الفكاك منها. والسبب هو أنَّ هذا النظام يتوسع في إنتاجه وتوظيفه باستمرار حتى يصل إلى حدٍّ يقل فيه عدد العمال المتاحين للعمل، وهنا ترتفع الأجور بالضرورة، فتقل الأرباح التي يحصل عليها الرأسمالي وتدخل المنظومة في سلسلةٍ من الانكماش بخفض الإنتاج وتسريح العمالة، وينتهي الأمر بحالةٍ من الكساد. فالتوازن الكلاسيكي المزعوم لا يستقر بالاقتصاد عند حالة التشغيل الكامل، بل لا يستقر أصلًا إلا حال وجود جيش من العاطلين الذين يضمنون عدم ارتفاع الأجور.

ثالثًا: الاحتكار

اعتبر ماركس الاحتكار أصلًا من أصول النظام الرأسمالي، وليس عارضًا يمكن تجاهله، إذ أن ازدياد تركز النشاط الاقتصادي في أيدي عددٍ متناقص باستمرار من الرأسماليين هو اتجاه طبيعي للرأسمالية، وهو اتجاه يمضي في طريقه بقوةٍ لا رادَّ لها. وهنا يقول ماركس بعباراتٍ مُلتهبة:

إنَّ رأسماليًّا واحدًا يعملُ على قتل كثيرين... وإلى جانب التناقص المستمر لعدد حيتان رأس المال الذين يغتصبون ويحتكرون كل مميزات

عملية التحول هذه، يزداد حجم البؤس والقمع والاستعباد والإذلال والاستغلال. ولكن إلى جانب هذا تنمو أيضًا ثورةُ الطبقة العاملة، وهي طبقة تزداد عددًا وانضباطًا واتحادًا وتنظيمًا، من خلال عملية الإنتاج الرأسمالي نفسها. إن الاحتكار يصبحُ قيدًا على أسلوب الإنتاج الذي نشأ وازدهر معها وفي ظلها. وفي النهاية يصل تركز وسائل الإنتاج والطابع الاشتراكي للعمل إلى نقطةٍ يغدوان فيها غير متفقين مع غشائهما الرأسمالي وتتمزَّق أجزاءُ هذا الغشاء الخارجي، ويُقرعُ الناقوسُ معلنًا وفاة الملكية الخاصة الرأسمالية، فالذين نزعوا ملكية غيرهم، تُنزعُ الآن ملكيتُهم[١١٣].

كأنِّي به وهو يكرر جملة "تُنزع الآن ملكيتهم" ثلاث مرات حتى يسمع تصفيق الجمهور الحاد، وليتني به اليوم ليرى برامج تمويل المشروعات التي اختار لها منتجوها عنوان "قروش" ليعلم أنَّ تسمية حيتان القاسية التي صبغ بها الرأسماليين المحتكرين صارت اليوم مدحًا وعنوانًا لبرامج تلفيزيونية ناجحة!

هكذا اعتقد ماركس أنَّ النظام الرأسمالي الذي كان يمتلك نقطة قوة في حجم الإنتاج وتسريع عجلة التحضر، يمتلك بداخله ثلاث نقاط ضعف كافية لانهياره. لكن الحقيقة أن تنبؤاته هي التي انهارت وبقي النظام الرأسمالي!

تعال نرى النقاط الثلاث مرة أخرى من منظور اقتصادي، أمَّا النقطة الأولى التي تخص التفاوت في الدخل والنفوذ، فقد ذكرها كثيرٌ ممن سبقوا ماركس، وإذا فرغناها من جانبها الاجتماعي الذي فشلَ كل المدافعين عن النظرية في تبريره، يبقى لنا نقطةٌ واحدة اقتصادية، ألا وهي الربح

١١٣ - رأس المال، كارل ماركس.

الذي يحصل عليه الرأسمالي، والذي اعتبره ماركس سرقة. فيبدو أن ماركس قد غرقَ في المادية المطلقة حتى نسي الخيال والموهبة والريادة والإبداع والمخاطرة والتخطيط، وكل تلك المقومات التي تكوِّن هذا الرأسمالي الذي يتهمه ماركس بالسرقة، وقد كان ألفريد مارشال يرى في اتهامات ماركس عوارًا كبيرًا، فقد رأى أن السلع التي يستهلكها الناس تعتمد على أموال الرأسماليين كما تعتمد على مجهود العمال، وبهذا فإن الرأسماليين يسهمون في تلبية رغبات المستهلكين بأموالهم وإن شئت قل: باستثمار أموالهم بدلًا من إنفاقها. يقول مارشال: "ماركس وآخرون يزعمون أن العمالة دائمًا ما تنتج قيمة مضافة تتخطى أجورهم وتتجاوز استهلاك رأس المال المستخدم في مساعدتها، وأن الضرر الذي يقع على العمال يكمن في استغلال الآخرين لهذه القيمة المضافة. لكن افتراض أن هذه القيمة المضافة بأكملها من نتاج العمالة فقط يعتبر أن ما يحاولون إثباته أمر من المسلمات بالفعل وبالتالي لا يحتاج إلى إثبات، وهو ليس صحيحًا، ليس صحيحًا أن غزل النسيج في مصنع بعد دفع أجور استهلاك الآلات هو نتاج جهود العمال. إنه نتاج جهودهم إضافةً إلى جهود أصحاب العمل والمديرين المساعدين ورأس المال العامل. ورأس المال هذا في حد ذاته هو نتاج جهد وانتظار... إذن لا يمكن أن تكون فكرة أن قيمة شيء ما تعتمد على مقدار الجهد المبذول فقط صحيحة..."[١١٤].

لم يتفق مارشال مع الشيوعية وأطلق عليها (الخطر الأكبر)[١١٥] ورأى أنها تقتل الطاقات البشرية، فلا أحد يضحي ويكدح ويعاني

---

١١٤) تود جي باكولز، مصدر سابق.

١١٥ - تود جي باكولز، مصدر سابق.

إلَّا لصالحه الخاص وتفوقه الخاص، أمَّا إذا كان كفاحه لا ينعكس على حاله الخاص، فإنَّه يفقدُ الدافعَ بلا شك. إلَّا إذا كان الناسُ كلهم يتفانون بشكلٍ مثالي من أجل المصلحة العامة!

هذا فضلًا عن تغير نمط الإدارة إلى الشكل الذي عزل الرأسمالي عن الإدارة المباشرة، ووضع بدلًا عنه إدارة تكنوقراطية من القادرين على تسيير الأعمال، وهذا الفصل وحده يفسِّخ النظرة التي بُني عليها اتهام المؤسسة الرأسمالية بالسرقة بزعامة صاحبها، فإنَّ المصنع الآن يُدارُ من قبل عاملٍ بدرجة مدير، ويحصل على ربح. هذا فضلًا عن الشركات التي ينقسم رأسمالها إلى عددٍ ضخم من الأسهم، والتي تسعى إدارتها إلى تعظيم العوائد لعددٍ كبيرٍ من الملاك لا يعرفون بعضهم البعض!

وأمَّا النقطة الثانية التي تخص الكساد كنتيجة حتمية للنظام الرأسمالي، فرغم أنها نقطةٌ أصابت كبد الحقيقة، فإنَّ تفسير ماركس لها جعلها تبدو كضربة حظٍّ أو قولٍ نقله عن غيره دون فهم، فالسبب الذي ذكره ماركس في كون الرأسمالية ينتهي بها الحال دائمًا إلى الأزمات يُعدُّ طرفةً اقتصادية، وهذه النقطة تحديدًا سيفسرها أحد أهم العقول التي انشغلت بالاقتصاد في القرن العشرين، وسنفرد لها فصلًا كاملًا عندما نتحدث عن الكساد العظيم.

وأمَّا الاحتكار فقد اعترف به أرباب الرأسمالية أنفسهم باعتباره العيب الوحيد في النظام، وهذا الاحتكار بجانب كافة الكوارث المجتمعية التي تسببت فيها الرأسمالية الكلاسيكية بشكل مباشر، يمكن أن تنتهي كلها أمام كلمة واحدة: الإصلاح.

هذا هو الذي غاب عن عقل ماركس الذي لا يرى طريقةً للتحسين

سوى الثورة والقوة في السماح للمنهج الجدلي بأن يقوم بدوره في التاريخ، ففي السنوات اللاحقة، تجنبت إنجلترا وفرنسا حدوث تلك الثورة الشيوعية التي نظَّرَ لها ماركس، من خلال حزمةٍ من الإصلاحات التي قد ترى فيها لونًا ماركسيًّا هادئًا، لكن بلا انهيار ولا أنقاض. تدخلت الدولة في المشروعات الكبرى التي تخدم الطبقات الدنيا، وفُتح المجال للنقابات العمالية التي صار لها نفوذ يؤرق بعض الرأسماليين، وأدت وفورات الإنتاج وزيادة التحضر إلى زيادة مستوى الرفاهية في طبقات المجتمع كلها حتى تلك الطبقات الدنيا.

وأمَّا تلك الثورة الشيوعية التي تنبأ ماركس بقيامها في الدول الرأسمالية فقد قامت بالفعل، لكن في الدول التي كانت ما زالت في الطور الأرستقراطي، والتي نفى ماركس إمكانية قيام تلك الثورات فيها، وفقًا لمنهجه.

كان ماركس أحد أهم المؤثرين في التاريخ، لكنَّ جل آثاره ظهرت بقوة في الزوايا الاجتماعية والسياسية والفلسفية، أمَّا الاقتصادية فهي أضعف زاوية ترى منها ماركس كمنظِّر. ويمكنك القول إن ماركس هو أجهل اقتصاديٍّ أثَّر في تاريخ الفكر الاقتصادي. ولا أحد ينكر أنَّه إلى الآن ما زال اسم الرجل يُرعبُ أولئك الرأسماليين ويسلب منهم النوم أحيانًا.

الفصل العاشر
درامية القرن العشرين

انتهى القرن التاسع عشر والنظرية الكلاسيكية هي العقيدة المهيمنة التي يدينُ بها السوادُ الأعظم في الغرب الأوروبي والولايات الأمريكية. آلية السوق الحرة هي المنظومة الأكفأ التي يجب الالتزام بها إذا أرادت الدولُ اللحاقَ ببريطانيا أولًا ثم بألمانيا وفرنسا والولايات المتحدة الأمريكية ثانيًا. وهذه الآلية تضمن ضبط الأسعار، ومعدلات تشغيل مرتفعة تصل إلى التشغيل الكامل الذي يقضي على البطالة، من خلال الاستخدام الأمثل لكافة الموارد المتاحة والذي يعتمد في الأساس على المصلحة الخاصة التي تُحركها اليدُ الخفية المباركة التي رآها سميث.

بينما كان الاقتصاديون يتغنون بهذه الأنشودة المُملة، ويرجون رضا تلك اليد الخفية، ظهرت كلمة بطالة للمرة الأولى في قاموس أكسفورد للغة الإنجليزية عام ١٨٨٨ م[١١٦].

في نفس العقد الذي ولدت فيه البطالة في القاموس وُلد جونماينرد كينز. كان والده فيلسوفًا واقتصاديًّا له مؤلفات في المنطق والمناهج

١١٦ - جون مينارد كينز، روبرت سكيدلسكي.

الاقتصادية، وزميلًا لكلية بيمبروك في جامعة كامبريدج. أما والدته فهي فلورنس أدا براون الناشطة المجتمعية والتي تعملُ ناظرةً لمدرسة. فلم يكن غريبًا أن تكون البيئة المحيطة بكينز على مستوى عقلي رفيع، فقد شملت بعضًا من أكابر الاقتصاديين والفلاسفة، ويكفي أن يكون من أفراد هذه البيئة ألفريد مارشال.

التحق كينز بكلية إيتون حيث تميز وفاز بعددٍ من الجوائز وفاز باحترام كبير من زملائه وأساتذته، ولمَّا كانت الرياضيات هي مادته المفضلة فإنَّه ذهبَ إلى الكلية الملكية في كامبريدج عام ١٩٠٢م لدراسة الرياضيات والأدب الكلاسيكي. وفي العام ١٩١٣م عُيِّن عضوًا في اللجنة الملكية لشؤون المال والعملة في الهند.

تأثَّرَ كينز بدائرة العلاقات التي نشأ بينها حتى صارَ يرى أن المعرفة الضرورية في عصره هي معرفة الفلسفة والاقتصاد. ألَّفَ كتابًا بعنوان "العملة والمالية في الهند" وألقى محاضرات في جامعة كامبريدج عن النقود، وكان منظِّرًا متعصبًا لأفكار ألفريد مارشال[١١٧]. وفي العام ١٩١٤م عُين بوزارة الخزانة البريطانية. وفي نفس العام اندلعت الحرب العالمية الأولى.

عندما وحَّد بسمارك ألمانيا، مَسَح بعينه خارطة القارة فَرصَد فيها أربع قوى رئيسة: روسيا والنمسا في الشرق وبريطانيا في الشمال وفرنسا في الغرب. ولأنه يعلمُ أنَّ حربًا ستنشب بينه وبين فرنسا عدوته الأولى والتي هزمها في سبيل ضمه لدويلات جنوب ألمانيا، فإنَّه سعى إلى التحالف مع الجبهة الشرقية، أي النمسا وروسيا. فهكذا يحاربُ على جبهة واحدة.

---

١١٧ - روبرت سكيدلسكي، مصدر سابق.

في نفس الفترة كانت الإمبراطورية العثمانية التاريخية آخذة في الانهيار والتفكك، فتكونت في منطقة البلقان قوميات صغيرة مستقلة، وكانت هذه المنطقة محط أطماع روسيا والنمسا، وبالتالي احتاج التحالف الثلاثي الذي عقده بسمارك لجهدٍ ضخم للحفاظ على استمراره في ظل تضارب مصالح حليفتيه.

سيطرت النمسا على المجر، وصارت تعرف باسم إمبراطورية النمسا-المجر، وعقدت فرنسا تحالفًا مع بريطانيا في ١٩٠٤م. وقد كانت بريطانيا تراقب القارة من وراء البحر، وهدفها هو عدم استفحال أي قوى وحيدة داخل القارة، ويبدو أن ألمانيا التي كانت تنفق على ترسانة بحرية ضخمة، تسعى لأن تكون القوة الوحيدة داخل القارة.

عندما مات بسمارك، فشلت ألمانيا في السيطرة على النمسا وروسيا وإبقائهما تحت حلفٍ واحد، وحدث ما كان بسمارك يراه كابوسًا مرعبًا، خرجت روسيا من التحالف، وتحالفت مع فرنسا. بما يعني أن الحرب التي كان بسمارك ينتظرها من جبهة واحدة، قد تكون في جبهتين.وفي ٢٨ يونيو من العام ١٩١٤م اغتيل الأرشيدوق فرانز فرديناند ولي عهد إمبراطورية النمسا-المجر خلال زيارته لصربيا... ثم اشتعلت الحرب.

اشتركت كل قوى أوروبا في الحرب، وأظهرت جانبًا أصيلًا من ذاتيتها الأنانية العنيفة المغلفة بمظهر عجيب من الحماقة، ومثالًا لا حصرًا، أطلقَ الألمانُ في يوم واحدٍ مليون قذيفة على قلعة فردان الفرنسية[١١٨]. كانت النتائج كارثيةً ولا تقارن بكل الحروب السابقة رغم كثرتها في القارة: أكثر من ٨ ملايين قتيل، و٢١ مليون جريح، و٧ ملايين مفقود، هذا فضلًا عن تغير الخريطة وفناء بعض العائلات الحاكمة!

---

١١٨ - جويس أبلبي، مصدر سابق.

ومع ذلك فإنَّ أكبر نتيجة كارثية للحرب لم تأتِ إلَّا عام ١٩٣٩م.

انهارت اقتصادات الدول وصارت معظم مدنها أطلالًا خَرِبة تذروها رياحٌ ملوثةٌ بالغازات السامَّة. لكن بقيت الولايات المتحدة الأمريكية وراء المحيط تتمتع بكامل فتوتها وأناقتها، تمامًا كما كانت قبل الحرب. فرجحت كفتها في الاقتصاد العالمي وأصبحت هي الدائنُ الأول لتلك الدول المدكوكة وإن شئت قل: الأوحد.

وهذا ما أرَّقَ كينز الذي كان يمارس عمله في وزارة الخزانة البريطانية بعين، ويراقب انتقال سطوة بريطانيا الاقتصادية على العالم إلى الولايات المتحدة الأمريكية بعينه الأخرى. لاحظَ كينز اعتماد بلده على الولايات المتحدة الأمريكية ليس فقط لسد حاجاتها الخاصة، بل لحاجات حلفائها. وخلال الحرب، في أكتوبر عام ١٩١٦ كتب وزير الخزانة البريطاني كلماتٍ جاء فيها: "إذا استمرت الأمور على منوالها الحالي... فسيصبح رئيس الجمهورية الأمريكية في وضعٍ... يسمح له بإملاء شروطَه علينا"(١١٩). وفي تعبيرٍ قاسٍ كتبَ كينز لوالدته: "خلال عامٍ من الآن... سيُرهنُ هذا البلدُ للولايات المتحدة"(١٢٠).

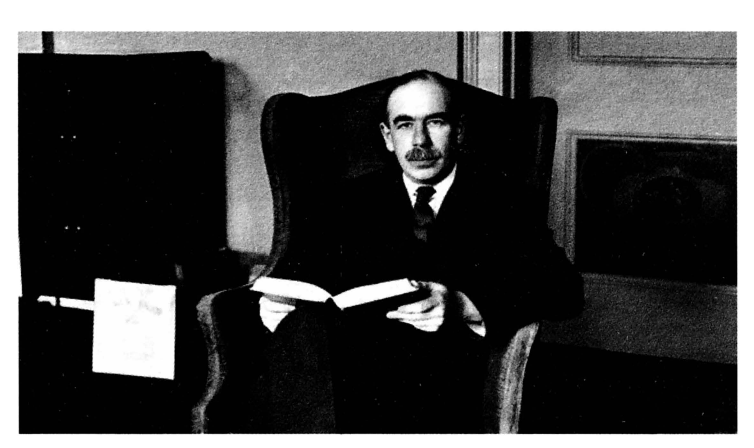
بدايةً من نوفمبر عام ١٩١٧ كان كينز يشارك في مفاوضات القروض في واشنطن، ولمَّا انتهت الحرب شارك في مؤتمر باريس للسلام بصفته ممثلًا لوزارة الخزانة البريطانية. وبنظرةٍ ثاقبة لاحظ أنَّ العقوبات الاقتصادية المفروضة على ألمانيا قاسية جدًّا وغير منطقية، وقد يكون لها أثرٌ غير محمود في المستقبل القريب، وتنبأ باندلاع حربٍ جديدة، وحاول إقناع لويد جورج رئيس الوزراء البريطاني بتغيير تلك العقوبات لكنه فَشل،

١١٩ - روبرت سكيدلسكي، مصدر سابق.
١٢٠ - روبرت سكيدلسكي، مصدر سابق.

فاستقال من منصبه في صيف ١٩١٩ م، ثم ألف كتاب "الآثار الاقتصادية للسلام" يهاجم فيه بنود معاهدة فرساي.

رأى كينز أنَّ العقوبات التي ستطبق على ألمانيا يجب أن تكون مبالغ معقولة تسدد بدفعات سنوية، بالشكل الذي لا يدمر قدرتها الاقتصادية، ورأى أنَّ الدول الأوروبية يجب أن تتعاون في شطب الديون فيما بينها، لأن هذا يجنِّبها مزيدًا من الديون لصالح الولايات المتحدة الأمريكية، فيكفي هذه الدول أن تقترض من الولايات المتحدة ما يعينها على سداد قيمة وارداتها واستعادة قدراتها الصناعية، فمن الحمق أن تقترض من الولايات المتحدة لسداد ديونها فيما بينها، وتكون بهاذا ساهمت بشكلٍ مباشر في تحقيق سيادة الولايات المتحدة على أوروبا والعالم.

كان كتاب كينز هو الأكثر مبيعًا على المستوى العالمي في تلك الفترة، وبعد انتهاء الحرب صار كينز عَلَمًا أوروبيًّا له شأنه في قضايا الاقتصاد.



جونماينرد كينز

الكساد العظيم.

في أيام أكتوبر الأخيرة من العام ١٩٢٩، انتظرت ملايين الأسهم على لائحة البيع في وول ستريت، ولكن لا أحد يشتري... كان هذا إنذار بقدوم الكارثة التي عُرِفت تاريخيًّا باسم الكساد العظيم.

يعني الكسادُ في الاقتصاد عجز الطلب عن مقابلة العرض؛ كمية كبيرة من المعروض تقابلها كمية صغيرة من الطلب.

لو سألتَ أي اقتصادي حَذِق: ما سبب الكساد العظيم الذي خلَّد ذكره التاريخ؟ لن يعطيك إجابةً اقتصاديةً سهلة، لكنه سيكون مضطرًّا إلى سرد بعض الحقائق التاريخية ثم ينتهي منها إلى الكساد نفسه. والسبب في هذا ليس جهله، بل لأن الواقعة لا يُعرف لها سبب مباشر من المنظور الاقتصادي، وحتى انهيار سوق الأسهم في نيويورك ليس سببًا، بل هو أحد مظاهر الأزمة، فالسبب الحقيقي لأزمةٍ بهذا الحجم يحتاج سنوات وليس أيامًا.

وإذا أردت مني أن أعطيك إجابة عن سؤالك ذا، فسأقتبس من علم النفس وأقول: إنَّه اضطراب القلق.

يخطئ كثيرٌ من الاقتصاديين عندما يعاملون علمَهم بمنأى عن السلوك، فالسلوك الإنساني هو أصل النشاط الاقتصادي كله، فالإنسان هو المنتج والمستهلك والرأسمالي والعامل ومالك الأرض، والعرض والطلب هما في الأصل سلوك بشري مجموع.

والآن فلنعد إلى الإجابة عن سؤالك. ماذا تنتظر من شعوب عاشت الحرب العالمية الأولى غير الإصابة بقدرٍ كبيرٍ من عدم الأمان والحاجة إلى التحوُّط بكل وسيلة تضمن ولو شيئًا يسيرًا من الأمن والاستقرار.

من ضمن هذه الوسائل النقود، فادخار النقود يضمن قدرًا من الحرية والأمان، ولَّما كانت كل المؤسسات تتعرض لقذائف الحرب وآثارها، فهذا الادخار لن يكون في البنوك، بل (تحت البلاطة). هذا بالفعل كان الاتجاه العام في السلوك لدى السواد الأعظم من مستهلكي الطبقات الوسطى. من زاوية أخرى استعادت الرأسمالية جزءًا كبيرًا من رونقها وتعافت من آثار الحرب وتوسعت الشركات في استثماراتها توسعًا طاغيًا مدعومًا بتشابك العلاقات الاقتصادية بين أوروبا والولايات المتحدة الأمريكة ومدعومًا بقدرٍ مبالغ فيه من التفاؤل بالمستقبل، وتناسى أولئك الرأسماليون أن الشعوب تعاني من اضطراب القلق المزمن، الذي سيجعل رد فعلهم باكتناز النقود كبيرًا جدًّا إزاء أي خلخلة بسيطة جدًّا تحدث في الأسواق. هذا الذي أدى إلى الكارثة.

فمع أول ارتباك خفيف في الأداء الاقتصادي، مالَ الناس ميلًا متطرفًا تجاه الادخار، وشُلَّ الاستثمار الذي لا يغذيه إلا تلك المدخرات. وتسابقت المؤشرات الاقتصادية في الهبوط بدايةً من ١٩٣٠م. وأعلن الكساد عن نفسه في المظاهر التالية:

- انكماش شديد في الأسعار[١٢١].
- ارتفاع معدلات البطالة.
- انهيار أوضاع الطبقة الضعيفة (كبار السن - المرضى - الفقراء).
- انهيار البنوك، والشركات.
- تخلف عام عن سداد الالتزامات.

---

١٢١ - وليس المقصود هو الانخفاض الحميد في السعر حتى يصل إلى المستوى الطبيعي المقبول أو التوازني، بل يُقصد بالانكماش انخفاضًا حادًّا يضرُّ بجانب الإنتاج لأنه يجبر الشركات على خفض الإنتاج وتسريح العمالة.

لم يكن السؤال السائد وقتها عن السبب، بل سأل الجميع: لماذا لا ينتهي الكساد تلقائيًّا؟ والسبب في هذا السؤال هو ما نصَّت عليه النظرية الكلاسيكية بأن حالات الكساد تكون عرضية فيما يعرف بالدورة الاقتصادية لكن آليات السوق الحرة وبلا تدخل من الحكومة، تعدل هذه الأوضاع سريعًا ويتوازن السوق عند الأسعار الطبيعية ومستوى التشغيل الكامل وتختفي البطالة. وما زالت قاعدة ساي: العرض يخلق الطلب. مكتوبة على رايات عالية ترفرفُ في عقول الاقتصاديين.

وقفت الحكومات تنتظر عمل اليد الخفية، وتَحَرُّك السوق تلقائيًّا، التزامًا بالتقاليد الكلاسيكية. لكن بعض الحكومات أخذت خطوات ضاعفت من حدة الأزمة على المستوى العالمي، فمثلًا رفعت الولايات المتحدة التعريفات الجمركية كإجراء وقائي، فألحقت خسائر فادحة بالطرف الأوروبي، فقد كانت تلك الدول تعتمد على تجارتها مع الولايات المتحدة بشكلٍ كبير.

في العشرينيات كان كينز عضوًا في اللجنة الحكومية لبحث الشؤون المالية والصناعية، ورئيسًا لمجلس إدارة إحدى شركات التأمين وزميلًا للكلية الملكية في كامبريدج، وبهذه الصفات جميعًا خاضَ جدالًا طويلًا ضد وينستون تشيرشل الذي كان وزيرًا للخزانة، حول عودة الجنيه الإسترليني إلى التقييم بالذهب. رأى كينز أن هذا الإجراء سيكون كارثيًّا على أداء بريطانيا في التجارة الخارجية لأنه سيرفع قيمة العملة وأسعار المنتجات البريطانية ويقتل قدرتها على المنافسة. ثم كتب كينز مقالًا بعنوان: الآثار الاقتصادية للسيد تشيرشل[١٢٢].

---

122 - The economic Consquences Of Mr. Churchill.

عندما التهم الكسادُ العالمَ خلال الثلاثينيات كان كينز قد كوَّنَ أفكارًا من شأنها فك شفرة هذه الأزمة. ظهرت هذه الأفكار في كتابه "النظرية العامة" الذي نُشر عام ١٩٣٦م ونال شهرةً عالميةً وضعته بجانب ثروة الأمم ورأس المال على رفٍّ واحد.

لم يكن كينز مناهضًا للنظام الكلاسيكي، لكنه كان راديكاليًّا في رؤيته للأزمة التي عصفت بمعتقدات النظرية القديمة. تجاهلت رؤية سميث وأصحابه جانب الطلب تمامًا، وانصب تحليلهم على العرض والقيمة وتوزيعها، والمشكلة التي يواجهها العالم في تلك الفترة تخص جانب الطلب بشكلٍ أصيل، وهذا ما ركَّز عليه كينز.

اعتبرت النظرية الكلاسيكية أن العوائد التي تنقسم إلى أجور وإيجار وربح وفائدة، من شأنها أن تتحول إلى طلب على المنتجات، وإذا حدث قصور في هذا الطلب فهذا يعني وجود ادخار، والادخار مصيره في النهاية الاستثمار، وهذا الاستثمار هو طلبٌ في حد ذاته ولكن بهدف عمليات إنتاجية، وبالتالي يكتمل الطلب العام ويساوي المعروض. لكن الواقع منذ أواخر ١٩٢٩م يؤكد عكس ذلك، فيبدو أن الجزء المُدَّخر من العوائد لم يتحول قطُّ إلى استثمار، حتى مع محاولات بعض الحكومات لخفض أسعار الفائدة بهدف تحويل تلك المدخرات إلى استثمار.

اكتسب الادخار تفضيلًا مُطلقًا...

هذا التحوُّط الذي دفع الناس إلى الادخار لم تدركه النظرية الكلاسيكية، لكن وضع كينز يده عليه مؤكدًا أن السياسات النقدية وتخفيض الفائدة لن يجدي، وأن الجانب الذي يستدعي الاهتمام الآن هو جانب الطلب والعمالة.

انتقد كينز فكرة النظرية الكلاسيكية في أنَّ أي زيادة غير تلقائية في الأجور بسبب النقابات مثلًا ستؤدي بشكلٍ مباشر إلى زيادة معدلات البطالة، لأن الطلب على الأيدي العاملة سينخفض بارتفاع أسعارها، وحتى تنقضي هذه البطالة يجب أن تنخفض الأجور مرةً أخرى. رأى كينز أن تطبيق هذه النظرية على الواقع يؤدي إلى كارثة عملية، فلو فرضنا أن النقابات تدخلت ورفعت الأجور، فزادت البطالة فعلًا، فوفقًا لهذه النظرية يكون الحل هو خفض الأجور ليزداد معدل التوظيف، لكن لو حدث فعلًا أن خفَّضت الشركات الأجور معًا، ستُذبح قدرة المجتمع الشرائية وينهار الطلب، ويحدث الكساد!

وانتقد كينز إصرار النظرية الكلاسيكية على حدوث توازن تلقائي في السوق يحقق حالة التشغيل الكامل، ورأى أن الواقع يفرض حدوث توازن في الأسواق مع وجود معدل مقبول من البطالة فيما يُعرف باسم "توازن العمالة الناقصة".

بعد هذه الانتقادات، أين الحل للخروج من الكساد الكبير؟

قالها كينز بعلو صوته رغم أنف حُرَّاس النظرية القديمة، على الدولة أن تتدخل في النشاط الاقتصادي...

يجب أن تتدخل الدولة خالقةً للطلب بنفسها، وذلك من خلال التوسع في الإنفاق العام وخفض الضرائب في إطار سياسة مالية تستهدف التمويل بالعجز، يعني تحقيق الدولة ميزانية سالبة من خلال الاقتراض الذي سيسحب مدخرات المجتمع وتشغيلها ليظهر الطلب الفعَّال الذي سيكسر حلقة الكساد. لم يهاجم كينز النظرية القديمة برمتها، ليبني نظريته على أنقاضها، بل ظهرت نظريته متممة لعلمٍ استبان نقصُه،

فظلَّت النظرية الكلاسيكية كما هي في أمور السوق والاستهلاك والإنتاج والعوائد... فيما صار يُعرف باسم الاقتصاد الجزئي، وحكمت النظرية الكنزية جانب الطلب والعمالة ودور الدولة فيما صار يُعرف باسم الاقتصاد الكلي. وطالب الاقتصاد اليوم يتعرف على هذا العلم بكاتبين يحملان هذين العنوانين السابقين.

كان الإنجاز الذي حققه كينز هو مدى ما سمح به من بقاء الأمور على حالها[١٢٣]. بهذه الجملة العبقرية عبَرَّ كينيث جالبريث عن الكيفية التي وَجَدَ بها كينز مكانًا لنظريته وسط سطوة الحرس القديم. ومع ذلك ففي وقتٍ ما في الولايات المتحدة، كان ينظر إلى الكينزيين باعتبارهم خطرًا على الرأسمالية الكلاسيكية يضاهي الماركسيين!

وقبل استعراض الأثر الذي أحدثته النظرية الكينزية بعد تطبيقها، يُستحسن أن نشير إلى كينزيين قبل كينز، وأقصد بهذا أنَّ هناك من طبَّق هذه النظرية قبل أن ينظِّر لها كينز نفسه. فقد آمنت السويد بأن السبيل الوحيد للخروج من الكساد هو الإنفاق على المشروعات العامة وخفض الضرائب، وكانت بالفعل من أوائل الدول التي نجت من الكساد في ثلاثينيات القرن. وفي ألمانيا لَمَّا توسَّعَ هتلر في الإنفاق العسكري خلال نفس العقد كانت النتيجة هي القضاء على البطالة!

والآن تعالَ نرى سير الأحداث التي أجبرت الجميع على تطبيق تعاليم كينز.

طُبقت تعاليم كينز في كندا قبيل الحرب العالمية الثانية، في حين أخطأت الولايات المتحدة وخضعت لأنصار النظرية الكلاسيكية الذين رأوا أن سبب الأزمة يكمن في تدهور أوضاع المنافسة وزيادة

---

١٢٣ - كينيث جالبريث، مصدر سابق.

الاحتكار وانتهاك قواعد السوق، وكان دليلهم هو زيادة البطالة في القطاع الصناعي الذي شاع فيه الاحتكار، في حين لم ترتفع البطالة في القطاع الزراعي الذي ما زال يعمل وفقًا للمنافسة الكلاسيكية. على هذا الأساس انتهجت حكومة الولايات المتحدة نهجًا كارثيًّا برفع الضرائب وخفض الإنفاق، فزادت حدة الكساد في العامين ١٩٣٧، ١٩٣٨م. وهنا وجد الكينزيون الأمريكيون ثغرةً فاستغلوها وصاروا أكثر إقناعًا وجذبًا لنظريتهم.

بسبب الكساد العظيم سقطت الحكومة الألمانية في العام ١٩٣٠م، ورفضت الحكومة الجديدة تخصيص إعانات البطالة التي كان يعتمد عليها الملايين. كانت هذه فرصة لتزداد شعبية الحزب النازي الذي كان يؤيد التوسع في الإنفاق العام، فزادت أصوات الناخبين لهم، وفي العام ١٩٣٢ م حصل الحزب على ٣ , ٣٧٪ من إجمالي الأصوات[١٢٤] وأصبح النازيون أكبر قوة في الرايخستاج[١٢٥].

وفي العام ١٩٣٣ صار هتلر مستشار ألمانيا، وبموت الرئيس هيندنبرج في العام التالي، نصَّبَ هتلر نفسه رئيسًا ومستشارًا.

لقد كان الكساد هو الذي عبَّد الطريق أمام هتلر وحزبه حتى وصلوا إلى الحكم.

ضَرَبَ هتلر ببنود فرساي عرض الحائط، وعمد إلى زيادة عدد الجيش حتى بلغ خمسة أضعاف العدد الذي سمحت به المعاهدة، وطوَّر سلاح الجو وزاد من عتاده، ثم أمر قواته بالتحرك العسكري داخل مناطق محظورة بنص المعاهدة. وهذا الخروج السافر عن معاهدة فرساي التي

١٢٤ - جون هيرست، مصدر سابق.
١٢٥ - البرلمان الألماني.

رآها الألمان ظالمةً ومجحفة رفع قدر الفوهرر هتلر في عين الشعب. فمن غير المعقول أن ترضى ألمانيا باقتطاع جزء من أراضيها الشرقية لصالح بولندا، وجزء من أراضيها الغربية لصالح فرنسا!

وفي أول سبتمبر من العام ١٩٣٩م حقَّقَ هتلر نبوءة كينز، وبدأ الغزو الألماني لبولندا.



الجيش الألماني على الأراضي البولندية

لقد كانت الحرب العالمية الثانية أسوأ نتائج الحرب العالمية الأولى، وكالعادة، الدول الأوروبية لا تنقصها الوحشية حتى تورَّط العالم كله في حربٍ مات فيها ٥٠ مليون نفس!

وفي أوقات الحروب تختفي النظريات الاقتصادية التي تقضي بعدم تدخل الدولة في النشاط، وتدير الدولةُ النشاطَ كله، وهكذا هيمنت كل الدول على النشاط الاقتصادي فيها، وتوسعت في الإنفاق على الحرب،

ومولت هذا الإنفاق بالعجز. أي أن الحرب أجبرت الحكومات على تطبيق تعاليم النظرية الكنزية، فانتهى الكساد العظيم واختفت البطالة، ففي الولايات المتحدة انخفض معدل البطالة من ٢, ١٧٪ عام ١٩٣٩ م إلى ٢, ١٪ عام ١٩٤٤ م[١٢٦]. وبنهاية الحرب كان النصر كينزيًّا أكثر منه نصرًا لدول الحلفاء. في السنوات التي أعقبت الحرب العالمية الثانية، سلَّم الجميع بأن النظرية الاقتصادية صارت تتكون من شقين؛ النظرية الكلاسيكية، والنظرية الكينزية. وزادت هذه الأخيرة بريقًا عندما تزينت بالإحصاءات القومية التي ابتدعها سيمون كوزنتس، لحساب الناتج القومي الإجمالي والدخل القومي... فقد تُرجمت أفكار كينز إلى معادلات رقمية واضحة فصارَ دحضها عملًا شاقًّا.

"لقد وضع كوزنتس وزملاؤه كينز بإحصاءاتهم في موضع القوة وكشفوا العائدات التي تنجم في وقت الحرب عن كسر توازن العمالة الناقصة والإنتاج بكامل الطاقة، وجعلوا من تعبير الناتج القومي الإجمالي تعبيرًا متداولًا في المنازل... فمن دون الحسابات القومية هذه فإن الاقتصاد الكلي كان لا بد أن تتلاطمه الأمواج"[١٢٧].

بلغ انتصار النظرية الكينزية ذروته عندما تحرك مجموعة من الاقتصاديين في الولايات المتحدة لصياغة أفكارها الرئيسة في صورة قوانين تلتزم الدولة بتحقيقها، ففي يناير من العام ١٩٤٥ م قُدِّمَ مشروع قانون تصبح بمقتضاه مبادئ جون ماينرد كينز ثابتة في هيئة قانون[١٢٨]. وعلى مدار سنوات الربع قرن التالية، عاشت النظرية نشوة الانتصار...

---

١٢٦ - كينيث جالبريث، مصدر سابق.

١٢٧ - كينيث جالبريث، مصدر سابق.

١٢٨ - كينيث جالبريث، مصدر سابق.

خريف الكنزية

بدايةً من أواخر الستينيات تعرضت النظرية الكينزية لثلاثة اختبارات قاسية، ففي هذه الفترة ضربَ الولايات المتحدة تضخمُ ظلَّ يرتفع حتى تعدَّى ١٠٪ وللمرة الأولى تصل الدولة إلى التضخم المكون من رقمين، وقد وصل معدل التضخم ٥, ١٣٪ عام ١٩٧٥ م[١٢٩]. ومع هذا الاختبار ظهر قصور كبير في النظرية الكينزية، وهو افتقادها للتوافق السياسي، ففي حالات الكساد تنصح النظرية بزيادة الإنفاق وخفض الضرائب، بهدف خلق الطلب الفعَّال الذي يحرك عجلة الاقتصاد مرة أخرى، فالإنفاق العام يولد طلبًا على السلع والخدمات وعوامل الإنتاج. وهذا إجراء يرجوه الساسة ويحبه الناخبون، فأي سياسي يسعى للترشح لمنصبٍ ما يتمنى أن يكون برنامجه يضمن توسعًا في الإنفاق وخفضًا للضرائب، لأن هذا سيجذب إليه أصوات الناخبين. أمَّا في حالة التضخم هذه ستنصح النظرية برفع الضرائب وخفض الإنفاق العام، بهدف خفض الطلب العام والسيطرة على الأسعار، وهنا يصبح الساسة في ورطةٍ مع ناخبيهم ويصبح علمُ الاقتصاد علمًا للكآبة.

ويبدو أن فصل الاقتصاد عن السياسة مع بداية القرن بعد مجهود من ألفريد مارشال، قد جعل كينز يتجاهل التوافق السياسي في نظريته ولا يرى إلا النشاط الاقتصادي فقط، ضاربًا بوعود الساسة عرض الحائط.

أما الاختبار الثاني فهو، التضخم الحلزوني!

هذه هي التسمية التي أطلقها الاقتصاديون على نوعٍ جديدٍ من التضخم ظهر نتيجة تفاعل زيادة الأسعار وزيادة الأجور، ففي الوقت الذي

---

١٢٩ - كينيث جالبريث، مصدر سابق.

تضخمت فيه الشركات وصارت كيانات عملاقة وتمكنت من فرض أسعارها، تعاظم دور النقابات العمالية وحققت مكاسب كبيرة لصالح العمال، أولها رفع الأجور بما يتناسب مع الأسعار المرتفعة، وهنا ظهر النمط الحلزوني، فزيادة الأسعار تدفع النقابات إلى إجبار الشركات على رفع الأجور ورفع الأجور يدفع أسعار السوق إلى الارتفاع... وهكذا.

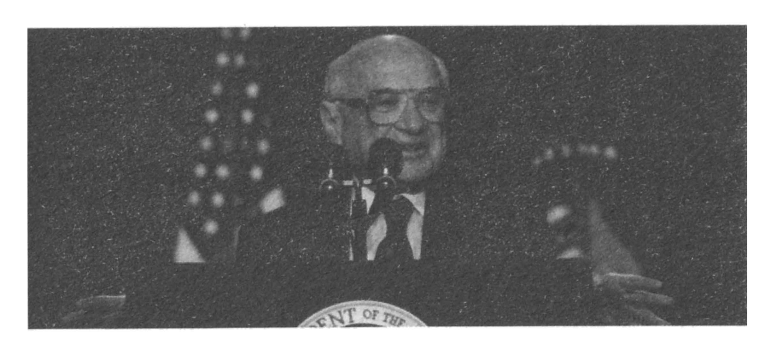
وأما الاختبار الأخير والذي تعاون مع سابقيه في القضاء على النظرية بالفشل، فهو الإجراء الذي اتخذته منظمة الأوبك في أكتوبر من العام ١٩٧٣م. ففي هذا الوقت كانت مصر وسوريا تحاربان الكيان الصهيوني المغتصب، فقامت الدول العربية المصدرة للبترول بحظر تصدير النفط للغرب الداعم لذلك المعتدي. فارتفعت أسعار النفط عالميًّا وزادت حدة التضخم في الولايات المتحدة.

في هذه الفترة طفا على سطح الفكر الاقتصادي أستاذ جامعة شيكاغو ميلتون فريدمان.

أعاد فريدمان إلى الساحة أهمية السياسة النقدية وأثر التحكم في المعروض النقدي على تضخم الأسعار، وقد كانت هذه السياسات مهملة منذ فشلها في تحفيز الاستثمار أيام الكساد العظيم، لكن في هذه الآونة أُذن لها بأن تمارس دورها. كان فريدمان من المدافعين عن حرية السوق والنظرية الكلاسيكية، لذلك جذبت آراؤه كل المحافظين، خصوصًا أنَّه يتبنى حلًّا نقديًّا لا يقترب من آلية السوق الحرة.

كان الرأي هو أن يقوم البنك المركزي برفع أسعار الفائدة، ما يؤدي إلى جذب الأموال إلى البنوك وخفض المعروض النقدي المتداول، وبالتالي تنخفض الأسعار.

طُبقت فكرة فريدمان، فانكمش النشاط الاقتصادي نتيجة لتأثر الاستثمار بالسلب بسبب رفع الفائدة، ومع ذلك ظل التضخم كما هو في البداية، وهذه الازدواجية في ظهور انكماش مع بقاء التضخم أظهرت ما عُرِفَ وقتها بالتضخم الكسادي، فزادت معدلات البطالة وأفلست الشركات المتوسطة والصغيرة. لكن بعد المدة اللازمة، وبحلول النصف الثاني من الثمانينيات قُضي على التضخم، ونجحت سياسة فريدمان النقدية، رغم أنها كانت رحلة درامية مليئة بالآلام.



ميلتون فريدمان

الفصل الحادي عشر
كوب شاي وبعض الإجابات(١٣٠)

عندما نتكلم عن تاريخ الفكر الاقتصادي، يراودني شعورٌ قويٌّ بأنَّ التاريخَ الذي نتكلم عنه هو تاريخُ الرأسمالية، وما تعرَّضت له من نجاحات وإخفاقات، وكيف مرَّت بالفترات العصيبة التي نتجت عن جرائمها وأنانيتها المفرطة، وكيف صارت هدفًا للحركات العمَّالية الشيوعية، ثم كيف استمرت رغم فشلها الكبير أمام الكساد العظيم وحافظت على مكانها بجانب الكينزية الحديثة والسياسة النقدية.

يدعِّمُ هذا الشعورَ أنَّنا اليوم ما زلنا نعيش في عالمٍ تحكمه القوى الرأسمالية بعدما تكاملت باقتصاد الرفاهة الذي جعلَ الدولة تتدخل لصالح الفقراء والضعفاء وكبار السن والعاطلين، وتحتوي شعبَها وعُمَّالها الذين كانوا خارج دائرة الاهتمام في القرن التاسع عشر.

جزءٌ كبيرٌ من هذا الشعور هو حقيقة تاريخية، فقد نشأ علم الاقتصاد في القرن الثامن عشر في صورة الرأسمالية التي نظَّرَ لها آدم سميث في

١٣٠ - كل الإحصاءات المذكورة في هذا الفصل مصدرها التاريخ الاقتصادي العالمي، روبرت سي آلن.

ثروة الأمم، فعلى الأقل يجب الاعتراف بأنَّ هذا العلم في طوره الأول كان هو الرأسمالية بعينها، ثم ظلَّ يتكامل ويتطور حتى بلغ الشكلَ الذي ندرسه اليوم.

هل هذا يعني أنَّ النظام المستخدم دائمًا منذ تاريخ البشر البعيد هو النظام الرأسمالي؟

بالطبع لا، وهنا مغالطة يقع فيها كثيرٌ من الباحثين، فعندما نتكلم عن تاريخ الاقتصاد كعلمٍ، نتكلم عنه منذ عهدٍ قريب يبدأ من أواخر القرن الثامن عشر، لكن سلوك البشر والأنظمة يبدو أمرًا أبعد بكثيرٍ في الماضي.

وفي ذلك الماضي البعيد ستتفاجأ أن الأصل تقريبًا كان هو التخطيط المركزي وملكية الدولة، يعني نظامًا اشتراكيًّا بامتياز، وقد كان هذا مستساغًا في كثيرٍ من الأمم والحضارات القديمة.

مصر البطلمية كانت دولةً اشتراكية، تمتلك السلطةُ الأرضَ والمناجم والتجارة، وتُقسم المساحات على المزارعين وينوب عن الدولة موظفون حتى في أنشطة تجارة التجزئة، وقد احتاج هذا النظام جيشًا من الكَتَبَة الذين يرصدون ويسجلون ويحسبون، لكن في النهاية كانت دولة البطالمة من أغنى دول العالم وقتها (٣٠٠-٣٠ ق.م) وقد تركوا أثرًا عظيمًا يدل على مدى الازدهار الثقافي وما بلغته الدولة من المعارف والآداب؛ تركوا مكتبة الإسكندرية[١٣١].

كذلك كان للصين تجربة مهمة قبل الميلاد بمئة وخمسين سنة تقريبًا،

١٣١ - مكتبة الإسكندرية التي تركها البطالمة حُرقت في واقعة تاريخية مشهورة في المئة الأخيرة قبل الميلاد، والمكتبة الموجودة اليوم هي نتاج لمشروع ضخم قامت به مصر، وافتُتحت في العام ٢٠٠٢ م.

عندما أمَّم أحد الأباطرة كل موارد الدولة وتحكم في التجارة والنقل والأسعار...

وغير هذه وتلك، عندما بلغ الغزو الإسباني الساحل الغربي لأمريكا الجنوبية عام ١٥٣٢م، فإنهم وضعوا حدًّا لأحد أطول التجارب الاشتراكية، فقد كانت إمبراطورية الإنكا تحت نظام اشتراكي مدعومًا باعتقادٍ دينيٍّ عام بأنَّ الملك هو نائبٌ عن إله الشمس.

فالتاريخ الطويل لا يُظهرُ أبدًا ملكية الدولة لعوامل الإنتاج على أنه بدعة.

بل تُعدُّ الرأسمالية اختراعًا بشريًّا، لها عوامل بدأت برحلات الكشوف في أواخر القرن الخامس عشر، ثم ظهرت كرأسمالية تجارية، ثم حولتها الثورة الصناعية إلى الرأسمالية الصناعية التي بدَّلت شكل العالم، أما تاريخها العلمي فيبدأ بعام ١٧٧٦ م بصدور كتاب ثروة الأمم.

لعلك وأنت تقرأ سطورًا من هذا الكتاب رأيت الأفكارَ الاقتصادية صانعةً للتاريخ وليس فقط متفاعلة معه، وهذه رؤية صحيحة، فالأفكار الاقتصادية هي مصانع التاريخ كما أحب أن أسميها، وبمنظور أكثر سطحية يمكننا القول إن كل أهداف الدول والإمبراطوريات والممالك من وراء الحروب وبسط السيطرة والاتفاقات والتحالفات كانت في الأصل أهدافًا اقتصادية، فتلك الأمم لها تطلعات كالتي لك؛ ألا ترجو أن تكون أغنى وأكثر ثراءً؟

من زاوية أخرى أهم وأكثر عمقًا، فحتى لو استبعدنا ذلك الأثر الذي ذكرناه لتوِّنا، يبقى لنا جوهرٌ مهم وهو أن تلك الأفكار كان تطبيقها هو السبب الرئيس في سعادة البعض وبؤس البعض، وفي

استتباب ملك البعض وانهيار ملك البعض، وفي صداقات واتفاقات البعض وعداوة بعض الدول لبعض...

كان لتطبيق الرأسمالية الحرة في مهدها استجابةً للثورة الصناعية أثرٌ مباشرٌ على روايات ديكينز العظيمة التي تئطُّ بالتعبيرات القاسية وتشم فيها رائحة المداخن، ويلامس بطنك خلال قراءتها جوعٌ مزيف. فصناعة شخصية ديكينز الأدبية هي عملٌ قام به سميث ومالتس وريكاردو، وهم الذين صنعوا الرفاهية التي غاصَ فيها فريدريك إنجلز الذي كان يضاجع الفتيات الفرنسيات ويتغنَّى بحسنهن. وكلا الرجلين، ديكينز وإنجلز صنعا التاريخ.

ولقد كان تطبيق جزء من المذهب الفيزيوقراطي في فرنسا أواخر القرن الثامن عشر أحد أهم عوامل التعجيل بالثورة الفرنسية، ففي الوقت الذي يشكو الشعب الجوع والظلم والطبقية، رأى أنصار المذهب الفيزيوقراطي أن الدولة يجب ألا تتدخل في توجيه تجارة المحاصيل الزراعية، وقد أدَّى هذا إلى تصدير الحبوب وشحٍّ في الخبز، فازداد الناسُ جوعًا. وفي ألمانيا كان تبنِّي الحزب النازي لبرنامج شامل للتوسع في الإنفاق العام سببًا أصيلًا في حصد الأصوات والوصول إلى الحكم.

أما خلْقُ النظريات الاقتصادية عداوات وصداقات، فهذا بابٌ واسعٌ لا يحتاجُ إلى الاستدلال، فعندما تتحول تلك الأفكار إلى أيديولوجيات وتوجهات، يتكتَّلُ الناسُ في مربعات ثم تتبعهم الحكومات والدول، حتى يصير العالم مقسمًا إلى معسكرات، وقد كان هذا بيِّنًا في انقسام أوروبا إلى شرقية شيوعية وغربية رأسمالية، بل في ألمانيا نفسها -التي أفنى بسمارك حياته في توحيدها- عندما انقسمت إلى شرقية شيوعية

وغربية رأسمالية بعد هزيمتها في الحرب العالمية الثانية، والتي كانت سببًا في جلب المعسكر الشيوعي إلى قلب أوروبا على ظهر الدبابات الروسية.

لعلَّ هذا الكلام قد جعلك تتساءل: لماذا كانت الشيوعية هي الأقصر نفسًا؟

هناك نقاط جوهرية في فلسفة الشيوعية عليك أن تهتم بها ولا تغفلها، فمن منظورٍ سياسيٍّ اجتماعي، تقوم الشيوعيةُ دائمًا ضدَّ ديكتاتوريةٍ ما... ديكتاتورية مجموعةٍ من الأرستقراطيين، أو ديكتاتورية مجموعةٍ من البرجوازيين، ويكون الوازعُ هو دفعُ الظلم ونقل السلطة الاقتصادية إلى عموم الناس وإن شئت قل: العُمَّال. وهذا من خلال ملكية الدولة لكافة الموارد وعوامل الإنتاج. لكنَّ الحقيقة أنَّ معظم تلك الحركات الشيوعية قد خلقت ديكتاتوريات أشد ظُلمًا، فهي تقوم لتحارب ظلمًا اقتصاديًّا، فإذا بها تأتي بظلم سياسي وأداء اقتصادي هزيل في الغالب. ولا أحد ينكرُ أن التحرك نحو الشيوعية يكون تحركًا نحو ديكتاتورية طبقة العمال القاسية. وما تفقده الدول عندما تدهس أرستقراطيتها من معارف وفنون واتصال بالماضي، يحتاج إلى كتبٍ لبيانه. وعندما تهيمن طبقة العمال التي كانت مسحوقةً بالأمس القريب، يصبحُ كل شخصٍ لا ينتمي إليها مذنبًا ومستحقًّا للعقاب.

ومن منظورٍ اقتصادي فإن الشيوعية بها عيبان أصيلان لا ينفكان عنها؛ وهما قتل الدافع الخاص، والحاجة إلى قدرات خاصة للتخطيط.

أما قتلُ الدافع، فتخيل أنك تعملُ في شركةٍ وتحصلُ على راتب ٥٠٠٠ جنيه، وأنَّك ستبقى مع هذا الراتب خمس سنوات مهما فعلت

أو اجتهدت أو تميزت، كيف سيكون دافعك في تطوير نفسك وتنمية مهاراتك؟

بالطبع لن تفكر في تطوير ذاتك أبدًا، ولا في تطوير إنتاجك، وستتحول حياتك المهنية إلى مجموعة من المهام الرتيبة التي تقوم بها بالحد الأدنى من المجهود اللازم.

والآن، كيف سيكون مجموع الأداء في الشركة؟ بالتأكيد ستنتكس كل مؤشرات الشركة، وتبكي قوائمها المالية. إن مؤسسة الملكية الخاصة هي الأفضل على الإطلاق في المؤشرات لأنها تعتمد على اهتمامك بمصلحتك الخاصة، ففي سوق العمل الخاص أنت تعلم أن قيمتك معقودةٌ بمهاراتك وكفاءتك، وأنَّ غيرك قد يأخذ مكانك غدًا، وهذا يجعل الفرد دائمًا في سلسلةٍ من التطور والإبداع، وبالتالي تحقق المنظومة كلها كفاءة أعلى بكثير من نظيرتها التي تمتلكها الدولة.

حكى لي والدي -رحمه الله- عن جدي الذي كان موظفًا في شركة شرق الدلتا فترة تأميمها، فأخبرني بأنَّ كل سيارة مملوكة للشركة كانت تعود في آخر اليوم فيتسلمها نجارٌ ومنجد وميكانيكي، ويفحصونها فحصًا دقيقًا. لكن بعد التأميم عندما أَمِنَ النجار والمنجد والميكانيكي واطمأنوا إلى أن راتبهم محفوظ وكذلك وظائفهم، كانوا يتقاعسون عن هذا الفحص اليومي في الغالب! ولعلك ترى اليوم حال سيارات هذه الشركة.

أتدري متى يتساوى النظام الشيوعي مع الرأسمالي في هذه النقطة تحديدًا؛ فقط عندما يتحول الناسُ إلى ملائكة... نعم ملائكة لا يستهدفون إلا المصلحة العامة في المقام الأول. لقد كانت براءات الاختراع التي

تمنح للمخترع حق احتكار فكرته اقتصاديًّا والاستفادة منها، هي المحرك الأول للثورة الصناعية في بريطانيا، فهكذا يتحرك الإنسان.

النظام الأكثر كفاءة دائمًا هو النظام الذي يضعك دائمًا أمام اختبار هاملت: أكون أو لا أكون. وهناك جملة مهمة أتمنَّى أن تتأملها جيدًا، فهناك حكمة اقتصادية تقول: بين الرأسمالية والشيوعية يكون الاختيار بين استغلال الرأسماليين، أو فساد البيروقراطية!

وأما التخطيط الدقيق، فهو أمرٌ ملازم لملكية الدولة للموارد وإدارتها لكل النشاط الاقتصادي. فحينما تنجح الشيوعية فإن الهيكل الاقتصادي ينمو ويتعقد، ويحتاج إلى سيطرة أقوى وتخطيط أدق وقدرات أكثر مرونة، وهو أمرٌ تفشلُ فيه الدولة في النهاية مهما حاولت أن تستمر.

فهل هذا هو خطأ ماركس؟

إن كنتَ تقصدُ بهذا ضَعفَه العام في فكرِه الاقتصادي، فهذا أهون أخطائه. والأخطاء الكبرى لماركس في تنظيره الاقتصادي تكمن في نقطتين أساسيتين: الأولى لها جذر فلسفي، وأقصد بهذا ترجمته الخاطئة لجدلية هيجل. كان هيجل يرى أن التاريخ يتحرك وفقًا لآليةٍ معينة وهي ظهور الفكرة ثم نقيض الفكرة ثم الفكرة المركبة من الفكرتين السابقتين، ولو أسقطنا هذه الآلية على الصراع الذي عاشه أهل القرن التاسع عشر، فإنَّ الفكرة هي الرأسمالية، ونقيضها هو الشيوعية، والفكرة المركبة هي رأسمالية منضبطة تسمح بتدخل الدولة، وهكذا سار التاريخ بالفعل. واليوم في الولايات المتحدة يكسبُ العمال قضاياهم ضد شركات ضخمة ويحصلون على تعويضات تبلغ ملايين الدولارات...

لكن بطريقةٍ ما، كان إسقاط ماركس لجدلية هيجل يأخذ مسار فوز

الشيوعية وسيطرتها واستمرارها!

والنقطة الثانية هي أنَّ ماركس يشبه لاعب كرة القدم الذي سدَّد ركلة الجزاء خارج الاستاد! ففي تنظيره تقوم الشيوعية من خلال ثورة عمالية ضخمة في البلاد التي سيطرت فيها الرأسمالية مثل إنجلترا وفرنسا وبعض البلاد المتاخمة لهما. لكن التاريخ سار في طريق مغاير، والكرة التي سددها ماركس سقطت بعيدًا في الشرق حيث روسيا والصين، وكلا الدولتين كانتا في طور الأرستقراطية ولم يتحولا بعد إلى الرأسمالية التي استهدفها ماركس.

لقد كان هذا الألماني بارعًا في التأثير الاجتماعي والسياسي، وقد أثَّر هذا في الفكر الاقتصادي الذي لم يكن قد انفك بعد من كونه اقتصادًا سياسيًّا. أما إسهامه في الاقتصاد النقي فإنَّه يقارب الصفر من الجهة اليسرى لمحور السينات الأفقي.

فهذا هو السبب إذن في تخلف روسيا والصين عن المعسكر الغربي؟

بالطبع لا، وهذه الإجابة ستكون طويلة، ودعني أعيد صياغة سؤالك ليكون: كيف وصل العالم إلى واقعه اليوم؟ فهكذا نحكي حكاية موجزة تشمل كل قارات المعمورة.

الأفكار الاقتصادية التي سردنا تاريخها في هذا الكتاب أنبتت سياسات ونماذج قابلة للتطبيق على الواقع، يمكن أن نحصر منها ثلاثة أشكال رئيسة هي التي غيرت ملامح العالم منذ القرن الثامن عشر وحتى الآن. النموذج الأول هو الثورة الصناعية. وكما ذكرنا كانت تطورًا غير مقصود نتج عن الهياج الاقتصادي الذي حدث في بريطانيا والذي ظهر كأثر لنجاح عصر التجار الاستعماري. جوهر هذا النموذج هو ارتفاع

معدل الأجور بالشكل الذي يجعل استخدام التكنولوجيا وتخفيض العمالة أمرًا مُجديًا وفعَّالًا. وقد ذكرنا تفصيل الثورة الصناعية فلا داعي لذكرها هنا. لكن يجب أن نؤكد أنَّها جعلت بريطانيا تسبق العالم، بل هي السبب في ظهور مصطلحات التقدم والتخلف للتمييز بين الأداء الاقتصادي للدول.

النموذج الثاني هو النموذج القياسي، هكذا أُطلِقَ عليه. وهو مربع ضلعه الأول تطوير وسائل النقل الداخلية ومد السكك الحديدية وإنشاء سوق داخلية مشتركة بلا حواجز أو قيود. وضلعه الثاني هو الاهتمام بالتعليم ومحاولة الوصل إلى أكبر عدد من المتعلمين الذين يقرؤون ويكتبون ويحسبون. وضلعه الثالث هو تأسيس البنوك والتطور في الأنشطة المصرفية التي تساهم في تمويل المشروعات والمحافظة على استقرار العملة والأسعار. أما الضلع الأخير فهو وضع تعريفات جمركية مناسبة للحفاظ على صناعات الدولة من منافسة الصناعات الخارجية التي سبقتها. طبقت الدول الأوروبية الغربية والولايات المتحدة هذا النموذج بهدف اللحاق ببريطانيا، ونجح في هذا الطريق معظمهم، وفي مقدمتهم بجانب الولايات المتحدة الأمريكية، فرنسا وألمانيا. وبنهاية القرن التاسع عشر كانوا قد أدركوا ما طلبوا.

أمَّا النموذج الثالث فهو نموذج الدفعة القوية، وهو عبارة عن استخدام كثافة رأسمالية وإنشاء مجموعة من المصانع الضخمة التي تنتج سلعًا استراتيجية مثل الحديد، في دفعة واحدة دون مراعاة الطلب. يعني إجبار الهيكل الاقتصادي على التحول إلى التصنيع كثيف رأس المال بشكل جذري وبلا تدرج.

طبقت معظم الدول التي حاولت اللحاق بركب الغرب ولكن متأخرًا هذين النموذجين: النموذج القياسي، والدفعة القوية.

اليابان

في النصف الأول من القرن التاسع عشر كانت اليابان تحت حكم عائلة توكوجاوا وهو حُكم عسكري، بدأ منذ أوائل القرن السابع عشر. وكان المجتمع مقسمًا إلى الساموراي والفلاحين والحرفيين والتجار، ولم تكن الملكية الخاصة في حماية الدولة، بل كانت الدولة نفسها تتعدى عليها بمنتهى البساطة، وكانت الأجور منخفضة جدًّا عن أوروبا الغربية، أما معدل النمو فلم يكن يُرى بالعين المجردة.

كل محاولات التنمية في هذه الفترة لم تفلح تقريبًا، وظلت الأجور عند الحد الأدنى اللازم لمتطلبات الحياة، لكن أكثر المؤشرات تفاؤلًا هو معدل التعليم، الذي كسر حاجز ٥٠٪ في الذكور.

في العالم ١٨٠٨م هُدد ميناء ناجازاكي من سفينة أجنبية، وكان هذا دافعًا قويًّا للسعي الياباني الحثيث في دراسة صناعة الصلب وبناء المصانع الضخمة لإنتاج المدافع. بالفعل بحلول عام ١٨٥٠ م نجح اليابانيون في إنتاج أول مدفع حديدي، وفي نهاية عصر توكوجاوا عام ١٨٦٨ م كانت اليابان تمتلك ١١ فرنًا لصبِّ الحديد.

على أثر الحركات الاحتجاجية انتهى عصر التوجوكاوا، وبدأ عصر الإمبراطور ميجي، وكان شعار الدولة: دولةٌ غنية وجيشٌ قوي. وكان السبب في التأكيد على ضرورة تأسيس جيش قوي، هو إجبار القوات العسكرية الغربية الدولة اليابانية على عدم فرض الجمارك على سوقها

في وجه التجارة الأوروبية الغربية. وقد اضطرت اليابان إلى التوقيع على معاهدة تنص على أن الحد الأقصى لتعريفتها الجمركية لا يتعدى ٥٪.

ألغى نظام الإمبراطور ميجي الطبقات الأربع، وأنشأ جيشًا على الطراز البروسي، ووضع دستورًا جديدًا يُرسي أسسًا تحولُ البلاد إلى ملكية دستورية على غرار النموذج البروسي أيضًا عام ١٨٩٠.

بدأت اليابان في عهد ميجي في تطبيق النموذج القياسي بهدف اللحاق بالغرب، وعلى أرض الواقع نجحت اليابان في تحقيق بندين فقط من بنود النموذج الأربعة. فقد نجحت في تطوير النقل الداخلي ومد السكك الحديدية وإلغاء كافة القيود الداخلية على حركة التجارة. ونجحت في تطوير التعليم بشكل ملحوظ. لكن فشلت البنوك في دورها لأنها كانت مؤسسات متخلفة وأقل من المطلوب منها، وكان الاعتماد عليها في استقرار قيمة العملة وتمويل المشروعات الضخمة أمرًا غيرَ حكيم. وأخيرًا فشلت في فرض جمارك تحمي بها صناعتها بعدما أجبرها الغرب على معاهدة الـ٥٪ كما ذكرنا.

في النصف الأول من القرن العشرين، نضج النظام المصرفي الياباني، واستطاعت الدولة التحرر من الهيمنة الغربية المُذلة ونقضت عرى معاهدة الـ٥٪، وبلغ التصنيع ٣٥٪ من إجمالي الناتج المحلي، وفي خطوة مثيرة للإعجاب نجحت اليابان في تطويع التكنولوجيا الغربية وتحويلها إلى النمط المجدي بما يتطلبه اقتصادها، وظهرت زيادة في متوسط الدخل وكذلك معدلات النمو، لكن في النهاية ظلت الفجوة كبيرة بين اليابان وبين الغرب، وبالتالي لم يحقق النموذج القياسي هدفه كما يجب.

في النصف الثاني من القرن العشرين، انتقلت اليابان من النموذج

القياسي إلى نموذج الدفعة القوية، ونظرًا لاحتياج هذا النمط من التغير إلى تخطيط قوي جدًّا، فقد لعبت وزارة التجارة الدولية والصناعة في اليابان دورًا مذهلًا في تحقيق الأهداف وتنسيق الأدوات، ونفذت الدولة مشروعات ضخمة لإنتاج الحديد، ومن نصف مليون طن عام ١٩٤٥ م، ارتفع إنتاج اليابان من الحديد إلى ٢٢ مليون طن عام ١٩٦٠ م، ثم ١٠٠ مليون طن عام ١٩٧٥ م، وبدأت اليابان في تصدير الحديد إلى الولايات المتحدة الأمريكية بعد ذلك!

حققت اليابان ثورةً في الهيكل الاقتصادي، من خلال التخطيط الدقيق للصناعات التي تطلب الحديد في مدخلاتها، ومن خلال التحكم المباشر في نشاط النظام المصرفي، وظهرت المشروعات التي حققت فوائض كبيرة، وارتفعت الأجور، وتغير نمط الاستهلاك، وزاد الطلب على السلع والخدمات فانتعشت التجارة والصناعة، وحققت الدولة نموًّا مذهلًا في الثلث الأخير من القرن العشرين، وبحلول عام ١٩٩٠م لحقت اليابان بالدول الغربية في الصناعة والأجور.

تعد اليابان هي النمط الأنجح على الإطلاق في اللحاق المتأخر وسد الفجوة مع الغرب والتحول إلى الاقتصاد الصناعي، وقد استنسخت كوريا الجنوبية وتايوان رحلة اليابان، ونجحتا في اللحاق بها...

روسيا

أمَّا في الشرق المتاخم لأوروبا فقد حاولت روسيا التقدم في هذا السباق في أوائل القرن العشرين من خلال تطبيق النموذج القياسي، فأنشأت سوقًا وطنية وطورت شبكة النقل ومدت السكك الحديد، ففي العام ١٩١٣ م بلغت خطوط السكك الحديدية ٧١ ألف كيلومتر.

وتوسعت في فرض التعليم، وفرضت الجمارك الحمائية، لكن البنوك كانت أضعف حلقة في النموذج كله، وهنا كانت براعة النموذج الروسي، إذ استعاضوا عن دور البنوك بالتمويل الخارجي من خلال جذب رؤوس أموال أوروبية وبيع السندات في الخارج.

ومن باب الاستثمار الأجنبي المباشر، جاءت الثغرة التي عطلت عمل النموذج القياسي، فقد كانت التكنولوجيا الأوروبية المتطورة تُنقل إلى روسيا دون إدخال أي تعديلات، ما أدى إلى رفع التكلفة وقتل القدرة على المنافسة الدولية. وفي النهاية لم تلحق روسيا بالنموذج القياسي بركب الغرب وظلت الأجور عند مستويات متدنية، وزاد التفاوت الداخلي في توزيع الدخل والثروة حدة، وكان سببًا مباشرًا في اندلاع ثورة ١٩١٧ م.

بعد الثورة البلشفية، وإعلان الدولة السوفييتية الشيوعية، اعتمد الاقتصاد على التخطيط المركزي والخطط الخمسية، وبدأت الدولة في تطبيق نموذج الدفعة القوية. نفذت الحكومة مجموعة ضخمة من الاستثمار في صناعة الحديد وتوليد الطاقة، فعندما دخل الجيش الألماني الأراضي الروسية في الحرب العالمية الثانية كان هدفه عددًا من مصانع الحديد ومحطات الطاقة التي أقيمت بالفعل.

قبل الحرب، بلغ إنتاج الحديد ١٥ مليون طن، وبلغ إنتاج القطن ٩٠٠ ألف طن، وكان هذا الإنتاج من القطن المحلوج يربو عن إنتاج بريطانيا ذاتها.

رغم نتائج الحرب القاسية، استأنف الاتحاد السوفييتي طريقه، واستفاد من انخفاض الكثافة السكانية، وبلغ إنتاج الحديد في العام ١٩٧٥ م

١٠٠ مليون طن، وتفوقت روسيا على الولايات المتحدة بهذا الرقم.

وفجأة، وبعد أن ظنَّ العالم أن الشيوعية والتخطيط المركزي هما الحل المناسب للنهوض، انهارت كل مؤشرات الاقتصاد الروسي في السبعينيات والثمانينيات!

احتاج التطور الاقتصادي المذهل والتحول نحو التصنيع الضخم، إلى قدرة أكثر تطورًا على التخطيط، ولمَّا كان التخطيط الروسي لا يتطور بهذا القدر الكافي في ظل ديكتاتورية مفرطة، فإن هذا كان عاملًا مهمًّا جدًّا في سقوط النموذج فجأة في فوهة الانهيار. بالإضافة إلى أن روسيا أهدرت وقتًا ومجهودًا في سباق آخر غير السباق الذي كانت تنجح فيه بالفعل، وفجأة صارت تتسابق مع الولايات المتحدة في مضمار التسليح وغزو الفضاء!

كان هذا خطأً فادحًا، وحتى البريسترويكا(١٣٢) التي اعتمدها جورباتشوف لم تكن كافية للسيطرة على آثاره بسهولة.

ومع ذلك فقد نجحت روسيا بالفعل بعد هذه الرحلة الطويلة في تقليص الفارق مع الغرب، خاصةً بعد فتح الطريق أمام القطاع الخاص في التسعينيات.

الصين

قبل عام ١٧٥٠ م كانت الصين هي أكبر مُصنِّع في العالم، لكن بنهاية القرن التاسع عشر كانت صناعة الصين قد تقزَّمت أمام الصناعات الغربية، فماذا فعلت الصين؟

---

١٣٢ - برنامج إعادة الهيكلة الاقتصادية.

تُعتبر حكاية الصين، قصيرة إلى حدٍ ما من منظورنا هذا، فبداية من منتصف القرن العشرين كانت الصين شيوعية، ونظرًا لتأخرها جدًّا في سد الفجوة التي بدأت منذ ١٧٥٠ م، فإنَّها لم تمر أصلًا بالنموذج القياسي، بل لجأت للحل الأكثر سرعة، وهو نموذج الدفعة القوية.

نجحت الصين الشيوعية في الوصول إلى استثمار ثلثي الناتج القومي تقريبًا، لكن إنجازها الأعظم هو تطبيق سياسة السير على قدمين، وأقصد اعتمادها على التكنولوجيا كثيفة رأس المال وفي نفس الوقت اعتمادها على التصنيع كثيف العمالة.

قفز إنتاج الصلب من مليون طن عام ١٩٥٠ م، إلى ٣٢ مليون طن عام ١٩٧٨ م.

بعد "ماو" تحولت الصين عن نموذج التخطيط المركزي، في خطوةٍ عبقرية أنجتها من الوقوع في الفخ الذي وقع فيه الاقتصاد الروسي بعد النجاح. وفتحت الطريق أمام الشركات الخاصة، فتخلصت الدولة من الشركات التي كانت على وشك التحول إلى عبء على اقتصادها، وأعادت تخصيص الموارد بشكلٍ أكفأ، فارتفعت معدلات النمو.

في أواخر القرن العشرين بلغ إنتاج الصلب ٥٠٠ مليون طن سنويًّا!

ارتفع الدخل الفردي بين عامي ١٩٧٨، و٢٠٠٦ م بمعدل ٦,٧٪ سنويًّا، وهذه معجزة اقتصادية بكل المقاييس، وما زالت الصين في الأعوام الحالية تحقق معدل نمو يتراوح من ٤٪ إلى ٥٪ سنويًّا تقريبًا. وهي بهذه المؤشرات على الطريق الصحيح ليس فقط للِّحاق بالغرب، بل لتعود كما كانت قبل ١٧٥٠ م، القوة الصناعية الأضخم في العالم.

يتبقى لنا الحديث عن الإقليمين المظلومين دائمًا، وهما أمريكا اللاتينية

وإفريقيا، ولعلك الآن تسأل سؤالًا ذكيًّا وتقول: الأمريكتان قد مرَّتا بالظروف نفسها تقريبًا منذ القرن السادس عشر، فكيف بلغ الفارق بين الشمال والجنوب هذا الحجم؟

وهذا سؤالٌ مهمٌّ جدًّا، وإليك هذه الحكاية الموجزة، ولنأخذ المكسيك مثالًا.

قبل الاستقلال، وتحت الحكم الإسباني، كان حالُ أمريكا اللاتينية الاقتصادي يشبه حالةً من التيه، فالمجتمع يضم أعراقًا مختلفة شكلت طبقات يعلوها الإسبان البيض، ثم المكسيك البيض ثم السكان الأصليين والعبيد الأفارقة. ورُغم كل الظروف التي سنذكرها، ستبقى هذه الطبقية هي السبب الرئيس للتفاوت الذي سألتَ عنه.

هبطت الأجور تحت الحكم الإسباني في النصف الأول من القرن السادس عشر إلى رُبُع الحد اللازم لمتطلبات الحياة، أما عوائد تجارة الفضة فقد استولى عليها كلها الإسبان البيض، وقد أدت غزارة الفضة إلى ارتفاع أسعار المنتجات المحلية وعدم قدرتها على المنافسة في الخارج، فمثلًا، كان سعر طن القمح المكسيكي يساوي ١٤ ضعفًا من سعر طن القمح الهولندي!

هذا الفارق المذهل في الأسعار جعل المكسيك تفشل فيما نجحت فيه الولايات الأمريكية الشمالية، وبحلول عام ١٨٠٠م كانت نسبة التصدير إلى حجم الإنتاج لا تتعدى ٤٪.

بعد الاستقلال، وخلال القرن التاسع عشر، حاولت المكسيك تطبيق النموذج القياسي، لكن تطبيقًا ناقصًا فاقدًا لأهم ضلع من الأضلاع الأربعة وهو الحماية الجمركية، وفي نفس الوقت كانت الولايات الأمريكية

تطبق سياسة جمركة حمائية قوية جدًّا فنجحت، وفشلت المكسيك في تنمية صناعتها الوطنية واجتاحت المنتجات الأوروبية أسواقها.

ضلعٌ آخر من أضلاع النموذج القياسي، تأخرت فيه المكسيك كثيرًا عن الولايات الأمريكية الشمالية، ألا وهو التعليم. ففي الوقت الذي كان ٨٥٪ على الأقل من سكان تلك الولايات يقرأون ويكتبون، لم يتحلَّ بزينة التعليم في المكسيك سوى ٢٠٪ فقط من السكان. وبنظرة أدق وراء هذين الرقمين، تكتشف أنَّ العبيد السود في الولايات الأمريكية في تلك الفترة كانوا تقريبًا ١٤٪ من مجمل السكان، أما نسبة العبيد السود والسكان الأصليين في المكسيك كانت تقريبًا ٨٠٪ من السكان. والآن ببساطة ترى، أن التعليم انتشر في المستوطنين الأوروبيين فقط، وتخلَّف عنه العبيد الأفارقة والسكان الأصليين، أو مُنعوا منه سواء بأسباب مباشرة، أو غير مباشرة مثل انعدام الحافز والإبقاء عليهم كعبيد مهما تعلموا.

نسبة التعليم هذه وحدها كانت مربط الفرس، وأدت إلى حدوث فوارق كبيرة بين الولايات الأمريكية والمكسيك في كل طريق؛ في الإدارة والابتكار والتكنولوجيا والتخطيط ثم الاجتماع والسياسة، وأي تطور تكنولوجي ظهر في المكسيك في القرن التاسع عشر والقرن العشرين كان مستوردًا، وكما تعلم فإن استيراد التكنولوجيا بدون فك شفراتها وتطويعها، يزيد المتخلف تخلفًا.

لقد كان السبب الحقيقي وراء تخلف المكسيك عن جارتها الشمالية هو نسبة السكان الذين تعرضوا للإقصاء[١٣٣].

---

١٣٣ - روبرت سي آلن، مصدر سابق.

إفريقيا

أمَّا إفريقيا، فمنذ ١٥٠٠م وإلى اليوم، فهي كما هي، سواء الجزء الشمالي الصحراوي، أو الجزء أسفل الصحراء. يعتمد الجميع على اقتصاد زراعي مُهلهل، وبينها وبين التحول إلى أي نموذج للتصنيع مسافات، يمكنك القول بمنتهى الثقة إنَّ هذه الدول تكاد تكون هي الأفشل على الإطلاق، وأسباب الفشل الحقيقية ليست اقتصادية، بل سياسية.

صدقني، الحديثُ عن الاقتصاد في هذه القارة هو باعثٌ خالصٌ للكآبة!

والحقُّ أنَّ الخوض في أي كلام اقتصادي عن القارة السمراء هو هذيان لا فائدة منه، فهذه الدول محتلة بقدرٍ هائلٍ من التبعية والفتن والاقتتال والتحارب والانقسام، فعليها أولًا قبل أنْ تناقش اقتصاداتها أنَّ تمتلك إرادة حقيقية حرة...



المراجع

- تاريخ الفكر الاقتصادي، الماضي صورة الحاضر. جون كينيث جالبريث. ترجمة: أحمد فؤاد بلبع. إصدارات عالم المعرفة.
- أفكار جديدة من اقتصاديين راحلين. تود جي باكولز. ترجمة: كوثر محمود محمد، حسين التلاوي. كلمات للنشر.
- الرأسمالية. جويس أبلبي. ترجمة: رحاب صلاح الدين. كلمات للنشر.
- التاريخ الاقتصادي العالمي. روبرت سي آلن. ترجمة: محمد سعد طنطاوي. كلمات للنشر.
- أوروبا تاريخ وجيز. جون هيرست. ترجمة: د.محمود محيي الدين. دار الشروق.
- الثورة الفرنسية. ويليام دويل. ترجمة: رفعت السيد علي. دار الشروق.
- عصر النهضة. جيري بروتون. ترجمة: إبراهيم البيلي محروس. كلمات للنشر.
- ثروة الأمم. آدم سميث. ترجمة: وليد شحادة. دار الفرقد للطباعة والنشر والتوزيع.
- مبادئ حول الاقتصاد السياسي. ديفيد ريكاردو. ترجمة يحيى العريضي، حسام الدين خضور. دار الفرقد للطباعة والنشر والتوزيع.

- آدم سميث. إيمون باتلر. ترجمة: علي الحارس. كلمات للنشر.
- هيجل. بيتر سينجر. ترجمة: محمد إبراهيم السيد. كلمات للنشر.
- الفلسفة الألمانية. أندرو بووي. ترجمة: محمد عبد الرحمن سلامة. كلمات للنشر.
- جون ماينرد كينز. روبرت سكيدلسكي. ترجمة: عبد الرحمن مجدي. كلمات للنشر.
- النقود والسياسة النقدية. محمود أبو العيون.
- دروس التاريخ. ويل وإريل ديورنت. ترجمة: يوسف ربيع. عصير الكتب.
- البيان الشيوعي. ترجمة العفيف الأخضر. منشورات الجمل.

مصانع التاريخ

عندما حارب الأسطول البرتغالي المماليك المصريين في معركة شاول في أوائل القرن السادس عشر، كان الهدف اقتصاديًا محضًا. وعندما خرج كريستوفر كولمبس على رأس ثلاث سُفُن ضخمة تمخر المحيط الأطلسي غربًا باحثًا عن طريقٍ مختصرٍ للهند، كان السبب اقتصاديًا خالصًا. وعندما حاربت بريطانيا العظمى الأسطول الهولندي في كثيرٍ من المعارك خلال النصف الثاني من القرن السابع عشر، كان السبب اقتصاديًا أيضًا. وفي حرب 1973م المجيدة، عندما قطع العرب البترول عن الدول الغربية، كانت رميةً اقتصاديةً موفَّقة..

إن الأحداث الكبرى ماهي إلَّا نتاجٌ صافٍ للأفكار الاقتصادية، وهذه العبارة إذا قلبتها ستفهم أن الأفكار الاقتصادية هي مصانع التاريخ!

وهذا الكتاب يسرد حكاية التاريخ بأحداثه وتغيراته، كما صنعتها تلك الأفكار.. هذا الكتاب يُسطِّر تاريخ الفكر الاقتصادي.



محمد يحيى

كاتب وباحث مصري من مواليد عام 1992 بالقاهرة. تخرج في كليّة التجارة شعبة العلوم الاقتصاديّة جامعة الزقازيق عام 2013، كما حصل على دبلوم في النُّظم السياسية والاقتصادية، ودبلوم في الاستثمار والتمويل، ويعمل حاليًا في مجال الاستشارات الماليّة. صدر له كتاب "ومضات" 2016، و"علم الخيال" 2020، والذي حصل على جائزة أفضل كتاب علمي في معرض القاهرة الدولي للكتاب عام 2021، و"أيام العرب" 2022، و"شقاق العرب" 2023، ويُعتبر "مصانع التاريخ" هو كتابه الخامس.





